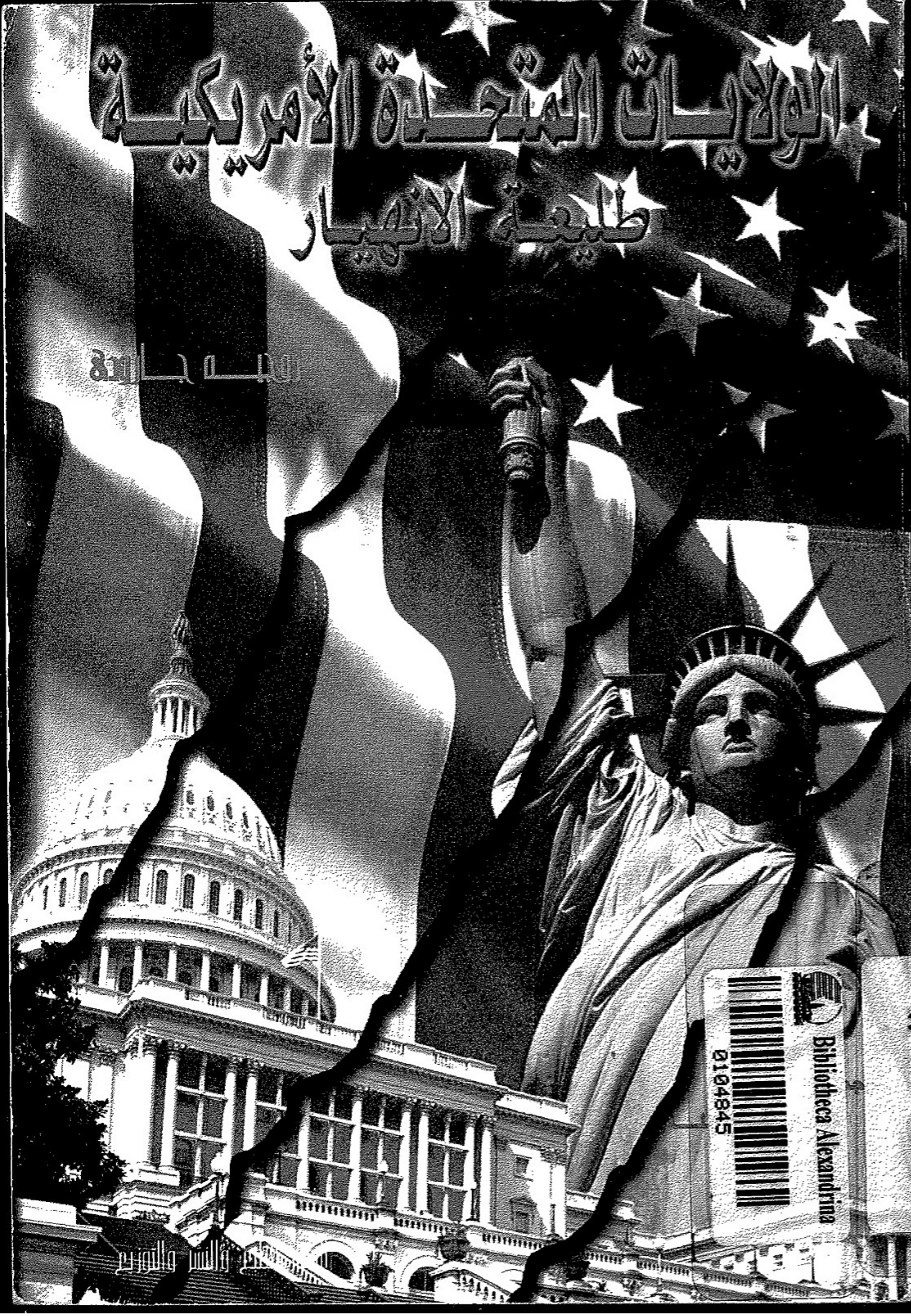
الولايات المتحدة الأمريكية

طليعة الانهيار



« الولايات المتحدة »

طليعة الانهيار

* اسم الكتاب : الولايات المتحدة طليعة الانهيار

* المؤلف : روچيه جارودى

* المترجم : كمال جاد الله

* تصميم الغلاف : أحمد عبد المنعم

* الناشر : النهار للطبع والنشر والتوزيع

الولايات المتحدة

طليعة الانهيار

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م

النهار للطبع والنشر والتوزيع

٧ ش الجمهورية عابدين هاتف : ٣٩١٣٦٨٨ فاكس : ٣٤٠٩٥٢٠

الفهرس

* * *

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المترجم

يحظى الفيلسوف الفرنسى « روجيه جارودى » اليوم بصيت واسع وشهرة تطبق الآفاق حيث يمثل أمام المحكمة متهماً بمعاداة السامية نتيجة لكتابه « الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية » الذى فند فيه تلك الأساطير بالدليل والبرهان العلمى حيث إنه رجل يحترم عقول الناس ورجل ذو ضمير يأبى عليه إلا التحليل والتمحيص والبحث الدؤوب عن الحقيقة ، ووقوف جارودى أمام المحكمة ليعاقب على فكرة المتحرر لا يقل فى شناعته وجرمه عن محاكمة سقراط ومحاكمة جاليليو وكل ذلك يمثل شهادات تسجل ضد الحضارة الأوربية ذات التوجه النمطى الذاتى الوحدوى الذى يريد من غير الأوربيين أن يتنازلوا عن موروثهم الثقافى بزعم البحث عن الحقيقة بينما يتمسكون هم بأوهام وأكاذيب وصلت بهم كما قال الأستاذ « الغتيت » محامى جارودي إلى إمكانية الشك فى الله ذاته ، وعدم الشك فى رقم الستة ملايين يهودى ضحايا النازى . وأغلب الظن أن جارودى لا يحاكم اليوم فى عاصمة التنوير على معاداته للسامية ولكن لأنه تنويرى ليس على شاكله المدرسة التنويرية التى ترى فى العقل الأوروبى المنقذ والمخلص للبشرية وترى فى الإزدياد والثراء عقيدة ، وفى التوجه نحو أوروبا باعتبارها طوق النجاة شريعة ، هذا الكتاب الذى بين أيدينا « الولايات المتحدةطليعة الانهيار » يمثل شهادة روجيه جارودى على العصر يسجل فيها ما انتهى إليه ومنه باختصار ما يلى:

أولاً : أن الغرب ليس وحده صانع الحضارة . فالتقدم والتطور نتيجة عمل وجهد وعرق وعلم قرون طويلة وشعوب متلاحقة ومن هنا فهو يرفض دعوى التميز الأوروبى.

ثانياً : إن توحيد وحرية السوق خطر يهود العالم كله . وقدظهرت بوادره فى المجاعات والتشرد والهجرة من الجنوب إلى الشمال .

ثالثاً : أن تضخم الثروة دون غايات بشرية إنسانية سامية لا يمكن إلا أن يزيد المشكلة تعقيداً ويزيد الغنى غنى والفقير فقراً .

رابعاً : خطر الدوران فى فلك الولايات المتحدة لأن ذلك يهدد بضياع شخصية الشعوب الدائرة فى هذا الفلك .

خامساً : كل ما هو كوكبى يتعلق بمستقبل كوكب الأرض كله لا يمكن أن يحل إلا باشتراك كل أهل هذا الكوكب فى وضع برنامج للخروج من الأزمة .

كل هذا يفيض من فيض من أفكار جارودي التى ضمنها كتابه هذا ومع عدم تسليمنا المطلق بكل ما قال جارودى خاصة كلامه عن تواصل العقائد والعقيدة الإبراهيمية وكلام كثير كنا قد علقنا عليه فى ترجمتنا لكتابه السابق بعنوان «الإسلام والقرن الواحد والعشرون ، شروط نهضة المسلمين » إلا أننا لا نملك إلا أن ننحنى له احتراماً لنزاهته البحثية وأمانته العلمية وتوثيقه الأكاديمى .

والعجب كل العجب أن الغرب الذى يحاكم جارودى اليوم على تحرره الفكرى هو الذي تبنى أفكار أفلاطون عن الأوهام الأربعة وضرورة التخلص منها حتى يستقيم الحكم والقضية المنطقية وهذه الأوهام هى (أوهام الجنس وأوهام السوق وأوهام الكهف وأوهام المسرح) وهو كذلك رأى الغرب - هو الذى تبنى أفكار ديكارت عن ضرورة التخلص من الأحكام المسبقة وسيطرة العقل لا الأوهام على ساحة الفكر والثقافة وحكمته المشهورة « كل ما كان عقلياً فلا بد أن يكون واضحاً» .

أقول هذا هو الغرب ولا عجب فهو يحبذ هذه الأفكار حين تكرس لسيطرته وهيمنته على الشرق وأما حين نتعرض له بالنقد وتعلن بنزاهة وحيادية أن الناس سواسية وأن كل الشعوب ذات موروث ثقافى ومنها ما يفوق الغرب ، حين تفعل هذه الأفكار ذلك لا نجد من متعصبى الغرب سوى البلطجة الفكرية والعهر الثقافى ويتحول المشهد إلى قرار اتهام بمعاداة السامية وانكار جرائم حدثت بحق الإنسانية وغير ذلك الكثير والكثير .

وأخيراً وليس آخراً أتمنى أن أكون بترجمتى لهذا الكتاب قد قدمت شيئاً ولو يسيراً من الشكر والعرفان بالجميل لذلك الفيلسوف الحر المؤمن بعقيدته ومبادئه والذى ينطلق فى كتاباته من ضمير واع حى مهتم بقضايا البشرية جمعاء .

والله من وراء القصد .

المترجم

كمال على محمود جاد الله

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الولايات المتحدة طليعة الإنهيار

تأليف / روچيه جارودى

كتبت سيمون ويل تقول :

« إننا نعلم جيداً أن أمركة أوربا بعد الحرب خطر عظيم جداً ، ونحن نعلم أيضاً ماذا يمكن أن نفقد إذا حدثت تلك الأمركة . . .

إن أمركة أوربا هى بلا شك تمهيد لأمركة الكرة الأرضية كلها . . . ، وهكذا يمكن أن تفقد الإنسانية ماضيها » .

(سيمون ويل « ١٩٠٩م - ١٩٤٣م » فيلسوفة كانت عاملة فى مصنع واتصلت بشارل ديجول فى لندن (١٩٤٢م) ، وهى مؤلفة « الدلال واللطافة »).

* * *

المقدمـــة

إن البطالة والتشريد فى بلادنا ، والجوع فى ثلاثة أرباع العالم ، والهجرة من عالم الجوع إلى عالم البطالة . . .

إننا على شفا اغتيال أطفالنا الصغار ، ونحن ندخل القرن الواحد والعشرين وسنصير حتماً إلى انتحار كوكبى إن تركنا أنفسنا لتقلبات السياسة العالمية الحالية .

هل هناك قاسم مشترك يمكن من خلاله أن نفهم عصرنا ، أو بمعنى أصح هل هناك رابط داخلى وعميق بين كل المشاكل العالمية يستلزم التدخلات العسكرية ، ودور صندوق النقد الدولى والبنك الدولى وأوربا ماسترخت ، ومنظمة التجارة العالمية أى (الجات القديمة) ، وإعادة الرأسمالية إلى أوربا الشرقية ، والمتطرفين المسلمين واليهود والمسيحين ، ومشاكلنا المباشرة :

أى مشاكل البطالة والتشريد ، والهجرة ، والعنف ، والمخدرات ؟

كيف نفهم وحدة هذه الأشياء ومعناها ؟

وكيف بالأخص نضع برنامجاً حقيقياً للخروج منها ؟

هذا هو موضوع هذا الكتاب .

روچيه جارودى

* * *

الفصل الأول

الفوضى العالمية الجديدة

الفصل الأول

الفوضى العالمية الجديدة

ما هي النظرة التركيبية للعالم الذى يتخلص فى نهاية القرن العشرين من أحداثه التى تبدو متنافرة ؟

ما هى المشكلات الرئيسية التى تتهدد المستقبل القريب ؟

هل نحن على أعتاب حرب عالمية ثالثة من نوع جديد ؟

ذلك لأنه حتى الآن ، كل ما كنا نسميه بالحربين العالميتين لم يعد أن يكون صراعات أوربية - أوربية ولم تكن عالمية . فبالنسبة لحرب (١٩١٤م-١٩١٨م) لأن دول الحلفاء (إنجلترا وفرنسا) أدخلوا ضمن جيوشهم « قوات الملونين » من مستعمراتهم ، أو من الدول الواقعة تحت انتدابهم ابتداء من « القناصة السنغاليين» حتى دول شمال إفريقيا بالنسبة لفرنسا وبالنسبة لإنجلترا ، كان هناك جنود الدول الواقعة تحت انتدابها من كندا حتى استراليا .

ونفس الوضع حدث أيضاً فى الحرب العالمية الثانية والتى اندلعت نتيجة نزاع أوربى ، ولكن الحلفاء أقحموا فيها الدول الواقعة تحت انتدابهم : فعلى سبيل المثال فور الإنزال الحربى فى الريف كان (٧٠٪) من قوام القوات المسلحة من المغاربة (كما كانت نسبة القتلى هى الأكثر بينهم أيضاً) وكان ذلك بغية تحرير فرنسا .

كما كانت الحرب بين أمريكا واليابان شبيهة بالحرب الأولى ليست صراع حضارتين، ولكنها صراع متنافسين فى طور النمو ، ولكل منهما نفس النظام الصناعى ، ولذلك كانا يتصارعان على السيطرة على المحيط الهادى والتهام أسواقه . وذلك لم يشتبك المتصارعان عسكرياً ، فلقد تصور هتلر أنه لكى يتحاشى استمرار وجود الأمريكان فى الصراع الأوربى عليه أن يجعل من اليابانين آريين شرقين ، وذلك لتكوين محور « برلين ، روما ، طوكيو » .

بينما يعتقد « هنتنجتون » فيما يسميه « الحرب الحضارية » وهى حرب ثالثة ستكون فى حاله حدوثها حرباً من نوع جديد : فلن تكون فى أساسها صراعات أوربية أوربية ، ولكنها ستكون تصادماً حضارياً بين « المركز » (الغرب) «والمحيط» (البلاد التى كانت مستعمرة) .

ولكنه يعطى هاتين المجموعتين بعداً دينياً : وهو أن الصدام يمكن أن يندلع بين حضاره « يهودية مسيحية » وتحالف « إسلامى كونفوشيوسى » .

إن المشكلة مطروحة بشكل غير دقيق ، ولكنها على أيه حال مشكلة حقيقية ، فهل يمكن للولايات المتحدة فى سعيها الحثيث للهيمنة العالمية بعد انهيار الإتحاد السوفيتى واستبداله « بشيطان » آخر وهو : الإسلام وحلفاؤه المحتملين مما نسميه «العالم الثالث » أقول : هل يمكن للولايات المتحدة بعد أن جعلت تدمير العراق مثلاً يحتذى أن تصل إلى تحقيق حلمها ببسط نظامها اللصوصى المسمى « بالسوق الحر » على العالم كله ؟ ، وقد ذكرت ذلك المعنى وسميته فى كتابى « نحو حرب دينية » وقلت : إنه يمكن أن نطلق عليه « الصدام الحضارى » فوحدة السوق تحاول جاهدة أن تكسر شوكة المقاومة لدى كل من يحتفظون بنظام له قيم أخرى غير قيمة السوق ، وضد من يدافعون عن هويتهم التى هى معنى حياتهم .

إن النقطة الحساسة فى حدود الإمبراطورية الأمريكية والتى كانت تسمى « الثغر» فى الإمبراطورية الرومانية قبل أن يستأصلها البربر هذه النقطة هى : الخليج العربى، لأنه محاط بأغنى حقول البترول الذى ظل لعشرات السنين « عصب النمو الغربى » ، حول هذا الثغر حقق توحيد السوق أحدث انتصاراته بسحق العراق ، وهى الحرب التى خاضتها الولايات المتحدة تحت ضغط نوعين من اللوبى ، وقد أوضح ذلك السيد / آلان بايرفيت فى صحيفة « لوفيجارو » فى (٥ نوفمبر ١٩٩٠م) حين قال : « هناك مجموعتا ضغط قويتان تدفعان الولايات المتحدة لإشعال الصراع فى الخليج :

الأولى : هى اللوبى الصهيونى .

والثانية : لوبى رجال الأعمال .

فى هذه النقطة الحساسة بالنسبة للإمبراطورية الجديدة ما فتئت إسرائيل تلعب

الدور الذى رسمه لها مؤسسها الروحى « تيودور هرتسل » وهو دور « خط الدفاع الأمامى عن الحضارة الغربية ضد بربرية الشرق » .

إن البرنامج الأكثر دقة فى دورهم أعلن فى فبراير (١٩٨٢م) ، أى قبل الغزو الأول للبنان بقليل فى مجلة « كيفونيم » التى تصدر عن منظمة الصهيونية العالمية وهذا البرنامج هو : تفتيت كل الدول المجاورة من النيل إلى الفرات ، ولذلك لا يمكن تلبية طموحات الهيمنة العالمية من جانب الولايات المتحدة فى تلك النقطة الحساسة من حدود إمبراطوريتها . ولذلك فقد فرضت ألوان الحرمان المتعددة على الشعب العراقى عن طريق حصار ما زال يدمر الأطفال محاولاً أن يسرق من تلك البلاد حتى مستقبلها .

وهناك هدف آخر أكثر أهمية ونعنى به إيران تلك الدولة التى لم تستطع العراق أن تدحرها رغم أن الولايات المتحدة وأتباعها كانوا يساعدون العراق على نطاق واسع فى مجال التسليح والتمويل .

والهدف الجديد هو الذى أعلنته الحكومة الإسرائيلية فى شرم الشيخ (١٩٩٦م) وهو « مكافحة الإرهاب » كضرورة إنسانية ، بنغمة الحجج التى يسوقها المستعمرون الجدد حدد شمعون بيريز إيران دون أدنى دليل باعتبارها مركز الإرهاب الدولى معتبراً بالطبع أن الإرهاب يشمل كل أشكال مقاومة الشعوب التى تدافع عن استقلالها بينما يستبعد كل أشكال إرهاب الدولة التى تهدد هذا الإستقلال : فمثلاً عندما يقتل جندى إسرائيلى فى المنطقة التى تحتلها إسرائيل من جنوب لبنان يكون من حق المحتل أن يقاوم هذا الإرهاب كما كان الحال فى فرنسا أيام الإحتلال النازى، ولكن عندما يقصف الجيش الإسرائيلى قانا ويذبح المواطنين فى كل مكان حتى ضواحى بيروت يسمى هذا « دفاعاً مشروعاً » مثلما فعل النازيون حين قصفوا ضاحية شاتوبريان وأعدموا أربعين من رجال المقاومة لأن ضابطًا ألمانياً قتل فى باريس » .

وعندما أسقطت طائرة أمريكية فى البحر عشية أولمبياد أطلانطا نسب الإتهام فى ذلك الحادث إلى إيران ، وذلك قبل إجراء أى تحقيق ، ولذلك فإن تحليل حطام الطائرة فيما بعد لم يعضد أى اتهام لإيران فى تلك القضية بالرغم من ضغوط ال سى - أى - إيه ، ووسائل الإعلام الأمريكية .

ولذا فمن السهل أن نعدد أمثلة على استعمال هذه الحجج وهى « محاربة الإرهاب » أو « التدخل الإنسانى » أو « الدفاع عن حقوق الإنسان » ، وذلك لتبرير العدوان المباشر على المتهمين أو وضع العراقيل لمعارضة أى اتفاقيات تجارية معهم : ولذلك تمسكوا بحقوق الإنسان ليعرقلوا العلاقات الإقتصادية مع الصين ، ولكنهم لم يهمهم المذابح التى راح ضحيتها أكثر من ألفى مواطن لبنانى على يد «أريل شارون » (١٩٨٢م) ، ولم تدفعهم إلى الحد من تمويل وتسليح دولة إسرائيل، حيث إنها مركز الدائرة فى سيطرة الولايات المتحدة على كل بترول الشرق الأوسط .

إنه لأمر ذو دلالة أن يكون الحاخامات الأكثر تطرفاً وتعصباً موجودين فى الولايات المتحدة « حيث يوجد أكبر تجمع يهودى ، وأكثر التجمعات أهمية وعدداً ، حتى من يهود إسرائيل ، إن أكثر المحاربين القومين شراسة هم الحاخامات الذين تربوا فى المدارس التلمودية التى أسسها « الحزب القومى الدينى» بزعامة الحاخام اليهودى الأمريكى « زئيف يهوداكوك » (١٨٩١م-١٩٨٢م) ، والتى تتلخص مبادئه الأساسية فيما يلى : « إن الله يظهر نزول المسيح«لخلاص البشر بهذه المعجزة وهى : جعل كل هذه الأراضى تحت سلطة اليهود فكل الأراضى التوراتية تعد أراضى مقدسة . ويعد هذا تفويضاً إلهياً للاحتفاظ بها ، وضمها وإقامه أكبر عدد ممكن من المستوطنات اليهودية عليها . . وكل تنازل عن جزء من هذه الأراضى يؤخر وقت نزول المسيح « ميثاق جوش إيمومين » تأليف ميرون ــج أرونوف (ط . ديفيد نيومان) .

وهناك جماعة أخرى من الحاخامات الأمريكان وهم : اللوبافيتش المتأثرون بأفكار الحاخام العجوز فى بروكلين (نيويورك) ، وهو « إليعازر مزراحى » الذى تقوم تعاليمه على « أنه ممنوع منعاً باتاً على الشعب اليهودى أن يتنازل عن شبر من أرض إسرائيل الكبرى إلى العرب أياً كان أو التفاوض بهذا الشأن «جريل زامر» «إسرائيل»« الرجال السود » (ط مطبعة المؤسسة الوطنية للعلوم السياسية).

ولكن إيران ما تزال عقبة رئيسية أمام هذا المشروع حيث تربطها علاقات طبيعية برغم التعليمات الأمريكية بفرض الحصار عليها ، مع باكستان والهند والصين وروسيا ، وأخيراً مع تركيا عن طريق تجارة الأسلحة .

إن إيران ما تزال مركزاً ممكناً لتجمع جزء كبير من « الجزيرة الكبرى » الأوربية الأسيوية في مواجهة حلف الأطلنطي . وهذا يفسر لماذا تنصب جهود الإستراتيجية الأمريكية العالمية على ضمان كل إمكانات التسليح النووى لدولة إسرائيل بما فى ذلك رفض أى مراقبة دولية .

إن أكبر نقاط الضعف في تلك الإمبراطورية أنها إمبراطورية بلا عقل أى بلا مشروع مستقبلى متكامل يخص الإنسانية باستثناء تنمية إنتاجها واستهلاكها عن طريق التفوق العسكرى .

وهذا ما حاول هنتجتون أن يخفيه عندما ادعى تعارض الحضارة اليهودية المسيحية مع التحالف الإسلامى الكونفوشيوسى « الذى يعد وريث حضارات العالم القديم من فارس وسوريا حتى الصين » .

ويعتبر المؤرخ توينبى : أن هناك مركزان للحضارة هما النطاق السورى ، ونطاق أسيا الوسطى « فقد نشأت المسيحية فى الشام ، ومنها انتشرت فى جميع أنحاء العالم الهلينى . . . وتكونت النسطورية ، ومذهب الطبيعة الواحدة للمسيح فى إديسا فى أسيا الصغرى . وفى الحجاز جنوب الشام نشأ الإسلام فى مكة والمدينة . . كما نشأ المذهب الشيعى فى الشمال الشرقى للجزيرة العربية » .

إنها حلقة جديدة عجيبة من الإستقطابية للعلاقات الدولية باسم « التجمع » الإمبريالى الإقتصادى وهو المضاد للهويات الثقافية والدينية والتاريخية لكل الحضارات الأخرى .

من هنا يتحتم إقامة تجمع أوربى أسيوى ومن دول أمريكا اللاتينية لمقاومة هذا التوحيد القسرى من جانب مستعمريهم القدامى ، وذلك لإجهاض محاولة الولايات المتحدة للقضاء على خلايا المقاومة على المستوى العسكرى والإقتصادى كما على المستوى الدينى والثقافى ، تلك المحاولة التى تتزايد على مستوى جميع قارات العالم . وإن محاولة الولايات المتحدة لتدمير مركز المقاومة ذرياً لتفضح بجلاء اليوم على كل الكوكب الأرضى حين تأجج صراع كوريا الجنوبية ضد كوريا الشمالية ، وصراع تايوان ضد الصين ، والهند ضد باكستان ، وكذلك البوسنة ضد صربيا ، حتى تجد ذريعة للتدخل العسكرى الأمريكى فى المنطقة التى

كانت تفصل بين الإمبراطورية النمساوية والإمبراطورية العثمانية ، أو فى منطقة أمريكا اللاتينية من خلال معارضة كوبا لدول أمريكا الجنوبية الأخرى ، أو صراع شيلى بوابة المحيط الهادى ضد بوابة المحيط الأطلنطى من جنوب أمريكا الجنوبية.

إن أكثر الأمثلة مطابقة لهذه المناورة هو الدعوة إلى « خطة السلام » فى فلسطين التى لا تضع فى اعتبارها أحداً من الفلسطينين إلا فى مجموعة من الكانتونات تمثل أقل من (٦٪) من مساحة فلسطين تخترقها الطرق الموصلة بين المستوطنات الفلسطينية والتى يحرسها الجيش الإسرائيلى . وقد كرس حزب العمل هذا التفتيت الذى ابتدعه مناحم بيجن ، وتبعوه خلفاؤه من حزب الليكود الذى وصل حالياً إلى سدة الحكم ، وكان هدفهم هوالتمسك بالأرض والمياه عن طريق توطين نصف مليون مستوطن جديد تمهيداً للاستحواذ على فلسطين ، وظهر بجلاء أن هذا التحريض مربحًا للمعتدى لأنه نجح فعلاً فى تقسيم ليس الفلسطينين وحدهم، ولكن العالم العربى كله حول القرار الواجب اتخاذه تجاه مناورات التقسيم العظيمة تلك . ويكمن أعظم أشكال التناقض فى العالم المعاصر فى هذه النقطة وهى نقطة الصدام الحتمى والأكثر وضوحاً فى الصراع الشامل .

ويبدو النفاق السياسى فى أبهى صوره فى دعوى « الدفاع عن الديمقراطية وحقوق الإنسان فى الجزائر » فقد بدا التناقض واضحاً عندما اضطر النظام «الديمقراطى الليبرالى » أن يتخذ قرارات معاكسة لمبادئه حتى قيام أصوليه الجبهة الإسلامية للإنقاذ ، وذلك بقبول مقاطعة العملية الإنتخابية الحرة والقيام بانقلاب عسكرى ضدها .

وهنا كما فى فلسطين تطرح المشكلة الدينية ، وتدفع إلى المقام الأول : ولذلك يجب محاربة حرب صليبية كوكبية تشتعل باسم دين لا يجرأ على ذكر اسمه ، وهو « توحيد السوق » الذى يصطدم مع مقاومة الأديان الحقيقية والتى هى الإسلام فى أوربا وأسيا وإفريقيا ، أو « أصولية التحرر » فى أمريكا .

فلو أن الإسلام بدلاً من أن ينغلق فى إطار الماضى عاد إلى المفهوم القرآنى لوحدة الأديان منذ أن نفخ الله فى الإنسان من روحه ، وأن يتمسك بشريعة هى المخرج الوحيد إلى كل إيمان وكل تعقل فى السلم العالمى وباختصار لو رجع المسلم إلى الأصالة القرآنية « أصول الحرية » وإلى المبادئ الأصلية فى رسالة

المسيح بعيداً عن قرون عديدة من الهيمنة ، فإن هذه الجبهة العالمية ستكون واثقة من تغلبها على عالم السوق الحر الأرعن .

تلك هى ضخامة الصراع الذى يدور على مسرح الكوكب الأرضى على جميع الأصعدة ، فى الثقافة والدين ، وكذلك فى السياسة والإقتصاد .

وقد ظهرت بالفعل فى محاولات للتجمع : ففى عام (١٩٩١م) عقد بالخرطوم المؤتمر الشعبى الإسلامى العربى بدعوة من السودان وإيران .

وهناك إشارة أخرى جديرة بالإهتمام : ففى مؤتمر سياتل فى عام (١٩٩٥م) كانت الولايات المتحدة تأمل فى الموافقة على مشروع « السوق الشاملة » لكن الزعماء الأسيويين أبدوا تحفظهم تجاه المطالب الأمريكية ، بل إن رئيس وزراء ماليزيا وهى إحدى الدول المؤسسة لمنظمة الأسيان فى عام (١٩٦٧م) ، رفض أن يشارك فى المؤتمر فى إشارة لمعارضته للتدخل الأمريكى . وكان كلينتون قد أعلن أنه أصيب بخيبة الأمل من موقف أوربا فقرر أن يتوجه نحو « دول الباسفيك » .

وفى عام (١٩٨٢م) أقامت الصين مركزاً للأبحاث النووية فى أصفهان وذلك من أجل تفادى حرب متوقعة مع إيران مثل ذلك الذى فعلته إسرائيل وقت السلم حين دمرت المفاعل النووى العراقى فى البصرة بينما كانت إسرائيل تقوم بنشاط نووى غير مشروع ، حتى كشف عن ذلك عالم الطبيعة الإسرائيلى « مورد خاى فانونوا » فى الخامس من أكتوبر (١٩٨٦م) فى صحيفة « الصنداى تايمز » حيث كشف النقاب عن أهمية الترسانة الذرية الإسرائيلية القادرة على دك القرى المصرية حتى السد العالى .

كما يشتمل البرنامج النووى الإسرائيلى أيضاً على مفاعل البلوتونيوم فى ديمونة، ومركز البرمجة النووية فى صوريك « حيث يعمل مفاعل تجريبى أمريكى، كذلك حقل تجارب الصواريخ فى بالميكى ، ومصنع تجميع فى يودفات ، ومراكز تعبئة الأسلحة النووية التكتيكية فى كيڤار وزخريا وإيلابون » .

ومنذ ذلك الوقت و « فانونوا » فى السجون الإسرائيلية ، بينما تستنكر حكومته بشدة التجارب النووية فى الصين والهند وباكستان وكازاخستان التى ورثت جزءاً من ترسانة الأسلحة النووية السوڤيتية .

كذلك فإن تحالف الليكود الفائز في انتخابات (١٩٩٦م) بالتحالف مع المتعصبين الدينين يظهر بجلاء دور إسرائيل كمفجر لحرب عالمية جديدة تخطط إسرائيل للعبها فى ظل أى حكومة .

ويمكن أن تكون الصدمة أعظم بالنسبة لحالة روسيا التى تمتلك قوة نووية كبيرة، والتى أصبحت نتيجة لتفتيت الدولة إلى دول أقلها مثل إسرائيل أصبحت ليس دوله تمتلك سلاحاً ، ولكن سلاحاً يحتاج إلى دولة تتملكه ، وقد أغرق يلتسن البلاد فى عهد سياسى من التفتيت والإنهيار بمساعدة الولايات المتحدة ، حيث لا يرى المرء نهاية لهذا الموقف إلا ديكتاتورية عسكرية قومية تزيل العسف والقهر الذى تحملته البلاد منذ « موت الرأسمالية » .

إنه لشئ مرعب أن نتخيل سلاحاً بلا دولة فى خدمة بلد لم يعد يوجد بسبب غياب مشروع شمولى ، وهذه الديكتاتورية العسكرية لا بفضل ذكاء الحركة التاريخية ، ولكن بفضل المنطق القسرى لتوحيد قوى العالم ، هذه الديكتاتورية لن تستطيع أن تتطور إلا بالاتحاد مع ألمانيا أو أسيا الوسطى لتناهض التبعية لواشنطن وإسرائيل ، أى إدخال السوق الروسية فى النظام العالمى الجديد بشكله المنهار والمافيوى ، ويجب عليها أن تختار بين العالمية ، والتشبع التاريخى من المسيحية الأرثوذكسية والقومية الروسية لن يعدما القدرة على هذا الإختيار .

إن أوربا لم تعد حليفاً دائماً وأكيداً للولايات المتحدة ، فليست معاهده ماسترخت هى فقط التى جعلت من أوربا ملحقاً وتابعاً لحلف الأطلنطى وأظهرت اليوم سوء تصرفها اقتصادياً وثقافياً ، ولكن تقسيم أوربا يبدو وشيكاً شيئاً فشيئاً ، وهناك حدثان قريبان يشهدان بذلك : فبينما وافقت انجلترا وفرنسا على أن تكون جيوشهما تابعين للسلاح الأمريكى فى العراق ، كان (٨٠٪) من الشعب الألمانى قد عارضوا التدخل العسكرى فى العراق .

وفى يوغوسلافيا بادرت ألمانيا بالتحالف مع الكروات ، بينما لم تتخذ إنجلترا وفرنسا موقفاً من الصرب إلا بضغط ألمانى أمريكى .

وفى الوقت الذى لم تعد فيه الولايات المتحدة أكبر الممولين بل أصبحت أكبر المدينين حيث انخفض معدل استثماراتها ليصبح الأمل فى الدول الصناعية ، برغم

قوتها لا بفضل جيوشها التى لا تهدف إلى أى مشروع إنسانى ، ولا تحلم إلا كما قال البنتاجون : بحرب تكون خسائرها صفر ، ولكن بفضل الأزرار الكهربية هذا البلد الذى يريد قادته أن يكونوا سادة العالم ، يبدوا شيئاً فشيئاً مثل تمثال ضخم أرجله من الخزف ، وذلك بسبب هشاشتها الإقتصادية التى تعطيها لبعض الوقت بواسطة المضاربة المالية التى تحول بنوكها إلى ملاعب القمار « حيث يتزايد إفلاسها بعد إفلاس وزارة الخزانة » ، ولذلك فإن الولايات المتحدة تشدد ولو لوقت على سياستها التسليحية لتواجه صعود عمالقة آخرين ، ليس فقط لتسليح جنديها المرتزق فى الشرق الأوسط ، « إسرائيل » بشكل فاضح ، ولكن أيضاً لتأجيل صعود الصين : بينما تحاول انجلترا التخلص من التنازل الشرعى عن هونج كونج للصين تعطى الولايات المتحدة طائرات لتايوان بحوالى (٤,٥ مليار دولار) بينما تبيعها فرنسا (٦٠) طائرة ميراج .

كل هذا من أجل إعاقة ظهور صين موحدة ذات سوق داخلى قوامه (مليار و ٢٠٠ مليون نسمة) ، وموارد طبيعية معتبرة ، وأيدى عاملة لا حدود لها ، ومن أن تصبح قوة عالمية .

إن الولايات المتحدة دخلت مرحلة فاصلة من تاريخها ، أى من التفتت الداخلى الناشىء عن البؤس المتزايد لأمريكا أخرى « غير أمريكا التى نعرفها » ذلك البؤس المتزايد الذى يهدد (٣٣ مليون) من السكان على أعتاب الفقر : وتفسخ وحدة الولايات نتيجة لعهد طويل من التفرقة العنصرية لاسيما تجاه السود، وتشهد بذلك مظاهرات لوس أنجلوس ، وكذل تجمع المليون مسلم أسود بقيادة « لويس فرقان » فى واشنطن ، وكذلك الانهيار الإجتماعى بسبب المخدرات والفساد والمضاربات المالية .

والنظام نفسه يحاول ولو لوقت قصير أن يستمر بفضل قوته التقنية الوحيدة ، والتى تتمثل فى جيوشه ، التي يفرضها على محيط دائرته بسيادة لا حدود لها على الولايات ، وكذلك حق التدخل الذى يستخدمه النظام لخدمة احتكاره ، ويموه على الناس كلما أمكن ذلك تحت مظلة التدخل الإنسانى ، وفى ظل موسسات تدور فى فلكه مثل الأمم المتحدة وصندوق النقد الدولى والبنك الدولى.

الفصل الثانى

توحيد السوق

الفصل الثانى

توحيد السوق

إن كل مظاهر هذا الانهيار تنبع من منطق « إقتصاد السوق » الذى أصبح فى أحدث مراحله دينا مسيطراً ، ولكنه دين لا يجرؤ على الإفصاح عن نفسه ، وهو توحيد السوق ، والسوق مكان للتبادل المعاصر للمتجمع كله ، ولذا فهو يستلزم تقسيماً للعمل ، ومنذ فجر التاريخ وكل الحفريات والمخازن والصخور المقطعة تشهد أنها لم تكن للإستعمال الشخصى ، ولكنها للمقايضة بوسائل أخرى للحياة حتى فى سوق القرية ، حيث يحمل الفرد البيض والدجاج والخضروات لبيعها بمنتجات أخرى من الأدوات والملابس أو ليدفعها مقابل خدمات البيطار أو الحلاق .

ومن شكل لآخر ظهر أول اختلاف ، وهو : ظهور السمسار والنقود التى كانت تستعمل فى الأصل بوسيلة ومقياس يرجع إليه كقاسم مشترك لتقييم منتجات الأعمال المختلفة كما وكيفاً . ولكن هذا السوق ظل وسيلة للاتصال والتبادل ، ولذلك فالغايات الكبرى للحياة كانت تدبر خارجه ، وكنت قائمة على التدرج الإجتماعى والأخلاقيات الصريحة أو الضمنية ، ولم تكن الأديان لتسخدمه لا فى أصلها ولا فى عمادها.

ولم يتحول السوق إلى دين إلا عندما أصبح المنظم الوحيد للعلاقات الإجتماعية الشخصية أو القومية والمصدر الوحيد للسلطة والترقى .

ليس المراد هنا أن نسرد تاريخ هذا التحول الذى أصبحت القيم الإنسانية فى نهايته قيماً تجارية بما فيها الفكر والفنون ، وكذلك المعتقدات .

إننا نكتفى باستخلاص النتائج الإقتصادية والسياسية والروحية من المرحلة الأخيرة لهذه الدائرة والبحث عن موطئ قدم للخروج من حالة التقلص هذه ومن

حالة الإنصهار البشرية ، والتى يرى فيها بعض المنظرين الأمريكين فى البنتاجون وتلامذتهم عبر العالم ، يرون نهاية التاريخ حسب عنوان كتاب « فوكوياما » ، إذاً فالمطلوب إذا صار هذا الأمر إلى نهايته فيما يتعلق بنهاية الإنسان هو : سمو المشروع فى مقابل التنازل عن الغايات الإقتصادية الخاضعة للقوانين الطبيعية التى تخضع للغرائز الفطرية الحيوانية ، التى تسود وجدها فى البحار حيث تتغذى الأسماك الكبيرة على إلتهام الأسماك الصغيرة ، وحيث البذر الحيوى على الأرض للمليارات الجراثيم والحيوانات المنوية لتكون جنين بطريق تصادفية .

فى الحقيقة إن ما يميز توحيد السوق هذا هو هذا التحرر الشمولى ، وهو السخرية من حرية الإنسان وقطعه عن بعده النوعى : وليس هذا خاضعاً لقوانين الطبيعة ولكن على العكس ، فالمقصود هو القدرة على تكوين مشروعات لا تكون امتداد بسيطاً للماضى ولا لغرائزة الحيوانية ولا لمصلحته الفردية وقد أثنى «آدم سميث » على هذا التنازل بقوله :

« إن الخطوط العريضة للعالم الإقتصادى الحالى لم ترسم وفق خطة وضعتها عقلية منظم كبير ، ولا بناءًا على مداولة أجرتها شركة ماهرة ، ولكنها رسمت نتيجة لتراكم سمات لا عدد لها رسمها جمع من الأفراد الخاضعين لقوة غريزية ومدفوعين إلى الوصول إلى هدف ما » .

بحوث حول طبيعة وأسباب ثراء الأمم :

ومن « آدم سميث » إلى « فريدش فون هيك » مروراً « بستيت فريدمان » ، فإن مفهوم هذا المشروع قد خضع لأخذ ورد كثير .

فقد كتب ملتون فريد مان : « إن تنسيق نشاط ملايين الأشخاص الذين لا يعرف أيا منهم إلا مصلحته الشخصية يجعل الموقف بهذا الشكل مقبولاً ويغطى نظام الأسعار هذه المهمة فى ظل غياب ، كل توجه مركزى ، ودون أن يكون من الضرورى أن يتحادث الناس أو يتحابون ، والنظام الإقتصادى هو إزدهار ، وهو نتيجة ليست مقصودة لعمل عدد كبير من الأشخاص تدفعهم مصالحهم الشخصية، ونظام الأسعار يقتضى وبشكل جيد ، وبكثير من الدقة أشخاصًا يكونون فى أعلب الوقت واثقين من مساره » . (حرية الاختيار ١٩٨١م) .

ويضيف فون هايك فى كتابه « الفردية والنظام الإقتصادى » :

« فى ظل مجتمع معقد ، ليس للإنسان إختيار أخر سوى أن يتأقلم مع نفسه فيما يبدو له قوى عمياء للعملية الإجتماعية » .

من الممكن لنا اليوم أن نعيد رسم مسار نموذج النمو الغربى من الخطأ القاتل للتحول بدعوى النهضة ، أى مولد حضارة الكم والعقل الآلى ، والعقل الديكارتى ، ودين الوسطاء المبتور من البعد الأول للعقل وهو انعكاس ذلك على الغايات النهائية للحياة ومعنى الحياة .

وكتب ميشيل البير فى كتابه « الرأسمالية ضد الرأسمالية » ، إن الأمر الذى لا بد منه هو أن نضع القضية الفلسفية المتعلقة بالغاية فى المقدمة .

وفى الحقيقة تلك هى الغاية النهائية لتوحيد السوق « وهى أن تجعلنا منقسمين حول أكثر أنواع حياتنا زيفاً منذ الفيلم الأمريكى الذى يبدأ بطرد الهنود من قبل الغربيين وغابة المال مع دالاس مروراً بكل أشكال العنف واللاإنسانية من «Batman» والمدمر «Terminator» حتى محاولة حصرنا فى عالم الديناصورات.

إن مؤشر استهلاك المخدرات اليوم فى أعلى معدلاته فى الولايات المتحدة ، وهى تجاره أربح من السيارات والفولاذ ، واستهلاكه يتصاعد مما يفقد الحياة معناها سواءً بالبطالة أو التشريد ، وبالنسبة للآخرين ، فإن غاية الاستهلاك الوحيدة تسمح بسعادة على طريق السوبر ماركت .

إنه لشيء ذو دلالة أن معدل الانتحار بين البالغين سواءً فى الدول الأكثر غنى مثل الولايات المتحدة أو السويد ، أو موت الناس في الجنوب لعدم وجود الإمكانيات أو غياب الغايات فى الشمال فى تزايد مستمر .

إن الاستهلاك المتصاعد للمخدرات هو أحد النتائج الطبيعية « لوحدة السوق » بداية من ناحية إنتاجه ، فبالنسبة للفلاح البوليفى تعتبر زراعة الكوكا أعظم عائداً عشر مرات من زراعة الكاكاو والقهوة ، وهى فقط التى تسمح له بحياة رغدة كما تبيع الدولة ديونها إلى صندوق النقد الدولى ، ثم بعد ذلك باستهلاكه : حيث هناك (ثلاثة ملايين يدمنون تلك السموم بالولايات المتحدة ، و٢٠ مليون يتعاطون العقاقير بشكل متقطع) ، وفى فرنسا تقول المصادر الرسمية أن فرنسيا من بين كل خمسة من عمر (٢١ إلى ٤٠) تعاطوا أو يتعاطون الحشيش .

لقد أصبحت المخدرات لب الكنيسة الجديدة لدين « وحدةالسوق » وأوضح مثال على ذلك ، هو الإتحاد السوفيتى : فمنذ عودة الرأسمالية زاد إنتاج واستهلاك المخدرات بشكل جنونى ، منذ عام (١٩٩١م إلى ١٩٩٣م) ، فقد زادت الأراضى المنزرعة بالخشخاش إلى الضعف فى أوزبكستان التى أصبحت فى عام (١٩٩٣م) المنتج الأول عالمياً ، وقد زادت صادراتها منه إلى روسيا ثلاثة أضعاف.

أما فيما يخص التسليح ، فإنه ما زال أكثر الصناعات إزدهاراً ، فقد جعل من الولايات المتحدة القوة الأولى فى العالم ، بعد الحرب العالمية الأولى ، فلقد حلت الحرب العالميةالثانية الأزمة التى نشبت فى أمريكا عام (١٩٢٩م) فقد خرجت منها ، وهى تمتلك نصف ثروة العالم ، وقد أحدثت الحرب الكورية إرتفاعاً اقتصادياً مفاجئاً ، وقد أحدثت مذبحة العراق تألقاً بفضل الدعاية ، عن تكلفة أسلحة الدمار الشامل ، بينما ارتفع إنتاجها إلى أقصى حد بعد نهاية الحرب. ونتيجة طبيعية أخرى لوحدة السوق وهى الفساد .

وقد عرف آلان كوتا منطق هذا النظام بالآتى :

« إن انتشار الفساد لا ينفصل عن ارتفاع الأنشطة المالية والإعلامية ، فعندما يسمح الإعلام بإعطاء الفرصة للعمليات المالية من كل نوع ، لا سيما أنشطة تحويل الأموال والمضاربة، ووجود فرصة لتكوين ثروات فى كل لحظة، كذلك فقد أصبح أجر العمل أكثر كثافة، وأصبحت عمليات البيع والشراء بشكل لا يقاوم».

« آلان كوتا » « الرأسمالية فى جميع الدول » ط فايارد (١٩٩١م) .

ثم يضيف الكاتب قائلاً : « إن اقتصاد السوق لا يمكن أن يكون مدفوعاً بتنمية مثل هذا السوق . . . فالفساد والرشوة يلعبان جملة نفس دور التخطيط » .

ويمكننا القول : أنه فى ظل نظام يباع فيه كل شىء ويشترى ، لم تعد الرشوة أو الدعارة مجرد انحرافات شخصية ، ولكنها أصبحت قوانين مكونة للنظام الحاكم .

ويصل العهر السياسى إلى ذروته بشكل فج : حين استدعى الملك فهد وقابل فى أرض يقال عنها أنها أرض مقدسة ومحرم دخولها على أى كافر ، استقبل فيها عشرات الألاف من الجنود الأمريكين وغيرهم على أرض عهد إليهم بحمايتها ،

وكذلك يلتسن الذى رخص من قيمة بلاده حين هرع إلى اعتاب صندوق النقد الدولى الذى بعث له بمساعده مشهورة من باب الغوث .

هذه هى الأعراض الوصفية لإنهيار نظام تلعب المضاربة فيه دوراً أكبر من الاستثمارات فى مجال الإنتاج أو الخدمات .

وكلمة « مضاربة » لها معنى محدد سجله قاموس «Robert» بهذا المعنى : «المضاربة هى عملية مالية تعتمد على الاستفادة من تقلبات السوق فى مجال القيمة والبضاعة من أجل تحقيق ربح » .

ويركز « موريس آلاس » جائزة نوبل فى الإقتصاد على معطيات « بنك المعاملات العالمية » حيث يلاحظ أن « السيولة المالية تظهر فى متوسط ١١٠٠ مليار دولار يومياً ، وهى ترتفع ٤٠ مرة فيما يخص المعاملات التجارية . وهذا النظام لا يقاوم (١) .

وهذا يعنى أن فى النظام الحالى « وحدة السوق » يكسب المرء (٤٠مرة) ضعف المال الذى يضارب به على المواد الأولية والمشتقات ، أو ما يسميه الإقتصاديون « المنتجات المشتقة » أي كل ما لا يتعلق بالمعاملات بمافى ذلك منتجات أو خدمات ، وذلك أفضل من العمل فى الإنتاج والخدمات .

* * *

---

(١) « موريس آلاس » الغرب على شفا الكارثة « فى حديث معه لصحيفة ليراسيون (٢ أغسطس ١٩٩٣م) ، وكذلك كتابه « أخطاء وعقبات النظام الأوربى » (١٩٩٢م) .

الفصل الثالث

الولايات المتحدة طليعة الانهيار

الفصل الثالث

الولايات المتحدة طليعة الإنهيار

حتى نفهم كيف أن تفكك الأخلاق والفنون كان من أسباب انتشار « موضة الحياة الأمريكية اليوم » ، فإنه من الضرورى أن نحصر المشكلة فى الإطار التاريخى الأمريكى ، لأن انهيار الثقافة وجعلها لا تلعب دور المنظم فى حياة المجتمع ينبع من تكوين تاريخ الولايات المتحدة .

ففى أوربا لعبت الثقافة والمعتقدات دائماً دوراً مهماً فى الحياة السياسية سواءً مثلاً فى أوربا المسيحية أو فى عصر التنوير والثورة الفرنسية ، أو عصر القوميات والقوميين أو حتى فى عصر الماركسية وثورة أكتوبر البلشفية .

وفى أمريكا بخلاف السكان الأصليين من الهنود الحمر الذين كانت ثقافتهم الرفيعة تنظم العلاقات الإجتماعية ، ولكنهم قتلوا فى حملات إبادة جماعية وطردوا وهمشوا ثم تحفظ عليهم بخلاف هؤلاء ، فإن سكان الولايات المتحدةاليوم يعتبرون مهاجرين .

وأيا كان أصلهم وأيا كانت ثقافتهم الأولى ،فإنهم جاؤا بالضرورة للبحث عن العمل والربح ، فسواء كانوا إيرلنديين أو إيطاليين ، أو عبيد سود ثم استقدامهم إلى أمريكا أو مكسيكين أو بروتوريكين ، فإنهم كانت لكل منهم ثقافته ودينه ، ولكن ليست لهم جميعاً ثقافة مشتركة ولا دين مشترك ، والرباط الوحيد الذى يجمعهم شبيه بذلك الذى يربط الشخص بنفس المشروع .

إن الولايات المتحدة هى منظومة من الإنتاج الذى تديره قومية واحدة تقنية وتجارية ، والذى يشارك المرء فيه كمنتج أو مستهلك ومن أجل غاية واحدة هى الإزدياد الكمى من الرفاهية ، وكل هوية شخصية وثقافية وروحية أو دينية ، إنما هى شأن خاص وفردى بشكل صارم ، ولا يمكن أن يدخل فى صلب النظام .

ومن خلال تلك التركيبات الإجتماعية ، فإن الإيمان بمعنى الحياة لا يمكن أن

يعيش إلا داخل بعض التجمعات التى حافظت على هويتها وثقافتها القديمة ، أو لدى بعض الأفراد البطوليين ، ولكن بالنسبة لغالبية هذا الشعب ،فإنهم يعتبرون أن الإله قد مات ، لأن الإنسان خلفه فى الجانب المادى ، أى أن الساحة أصبحت خالية لتعدد الملل والمعتقدات ، والهروب مع المخدرات ، أو مع الشاشة الصغيرة، وكل ذلك على نطاق رسمى يتناسب مع كل ألوان التفرقة ، ومع كل ألوان المذابح ، بل إن ذلك التزمت يعتبر تبريراً لها .

وكان من أوائل النابهين ثاقب النظر ذلك المراقب الأمريكى « توكفيل » الذى كشف النقاب منذ عام (١٨٤٠م) فى كتابه « عن الديمقراطية فى أمريكا » عن أهمية هذه الآلية فقط من أجل الدولة الناشئة حيث قال : لا أعرف شعباً دخل حب المال فى قلبه بشكل مُرضٍ مثل هذا الشعب » وهو « شعب عبارة عن تكتل من المغامرين والمضاربين » .

واليوم أيضاً يمكننا أن نرى فى تاريخها دعائم انهيار ثقافتها .

* فمن ناحية العلاقات مع الطبيعة ، فمنذ ما يزيد على قرن والحدود ليس لها المعنى الأرضى الموجود فى أوربا : فالولايات المتحدة دائماً مجال مفتوح حتى نهاية القرن التاسع عشر حيث وصلوا إلى المحيط الهادى ، فأعلنوا رسمياً إلغاء الحدود، وهذا المجال كان مفتوحاً أمام عمليات السلب والنهب والتخريب : تخريب الغابات ، واستخدام النيران ، والبحث عن مناجم الذهب والفضة .

* أما علاقتهم بالآخرين فقد كانت أيضاً ذات طبيعة خاصة : فقد طردوا الهنود أولاً ليستولوا على أرضهم ولا يتركوا لهم إختياراً إلا بين الإبادة الجماعية والحصار فى مناطق منعزلة ، ثم هناك العلاقة بين البيض أنفسهم ، فقد ساد شريعة الغاب للإستيلاء على الثروات التي سرقوها من الهنود ، وعلى أرضهم وعلى الذهب الذى تطلعوا إن يستخرجوه .

* أما فيما يخص معنى الحياة ، فإنه تقلص إلى هذا الإتساع الكمى لتملك الأرض وكنوزها ، فالغربى Western وحياة الغرب الأقصى Far west مع بعض الاستثناءات انتجت تلك الملحمة العرقية ، والتى شاع فيها قانون حرب الكل ضد الكل ، ولم يلعب التزمت المسيحى ، أى دور فيما عدا التبرير فى العلاقات الإجتماعية الحقيقية .

إن العنف الدموى وتغطيته بغطاء دينى منافق هو سمة مستمرة فى تاريخ الولايات المتحدة منذ نشأتها ، وقد حمل المتعصبون الإنجليز الذين ابحروا إلى أمريكا حملوا إليها أكثر العقائد سفكاً للدماء فى تاريخ البشرية ، وهى عقيدة «الشعب المختار » وبذلك كرسوا كل ألوان الهلاك ، وسرقة أرض المواطنين الأصلية بأمر الله ، وحسب نموذج التوراة ، « أشعيا » حيث أعطى الرب إلى شعبه مهمة تذبيح سكان كنعان الأصليين والاستيلاء على أرضهم .

وكذلك أطلق الأسبانيون اسم « التبشير » على إبادة هنود جنوب القارة ، وكانت مرجعية المترفين الإنجليز فى تبرير طرد الهنود وسرقة أرضهم سفر أشعيا و الإبادة المقدسة (هريم) فى العهد القديم ، وكتب أحدهم .. إنه من الثابت أن الله دعا المستوطنين إلى الحرب ، وكان الهنود يفتخرون بعددهم وأسلحتهم ، وفرصتهم فى إلحاق الضرر بنا كما كانت القبال القديمة من الفلسطينين الذين توحدوا مع آخرين ضد إسرائيل (١) .

فالأرض الموعودة هى : الأرض المحتلة .

وكان إعلان استقلال الولايات المتحدة فى الرابع من يوليو (١٧٧٦م) يعد تجسيداً مسبقاً لإعلان حقوق الإنسان والمواطن فى فرنسا فى عام (١٧٨٩م) وهو يعطى مثالاً حياً على نفاق « الحرية » بالمعنى الأمريكى للكلمة ، ويكشف النص منذ سطوره الأولى عن أن « كل الناس خلقوا متساوين ، وقد منحهم الخالق حقوقاً لا يجوز سلبها وهى : حق الحياة والحرية والبحث عن السعادة » .

وبرغم تلك « الحرية » استمر استعباد السود خلال قرن كامل ، ولذا لزم قيام حرب أهلية لتضع نهاية لما كان يسمى حتى وقتها « المؤسسة الخاصة » أى العبودية، ومنذ تحررهم لم يكن لهم أى دور مأمول فى المجتمع ، فلم يمكن لهم مثلاً حق فى جزء من الستين قطعة من الأرض المخصصة للبيض ، ومن هنا نشأ إرهاب الجمعيات السرية مثل Kluklux klan « قانون السود » وقد تم استبعاد السود من الحياة السياسية ، كما استبعدهم التميز من الحياة المدنية ، وقد ظل هذا التمييز قائماً برغم تضحية « مارتن لوثركنج » حتى يومنا هذا وقد ظهر النفاق فى أبهى صوره فيما يخص الهنود ، فقد ظهر لأول مرة وبقوة ما يتعلق بالمبدأ المحرك

(تورمان تيلسون : متزمت ، سوشوستس : من مصر إلى الأرض الموعودة - اليهودية مج ١٦٠ رقم ، ١٩٦٧م) .

لكل أعمال العنف المستقبلة فى الولايات المتحدة حول العالم ، فقد كان العنف والمذابح بداية رد فعل دفاعى ، وكان إعلان الاستقلال الذى دعا إلى مبادئ الحرية والمساواة « قد وصف الهنود هكذا » ، هؤلاء المتوحشون معدومو الشفقة ، والذين تتبع طريقتهم فى الحرب مبدأ « إبادة الجميع » .

وهكذا تحدثوا عن السكان الأصليين بشكل يبرر بداية المذابح المرتكبة ضدهم ، وسرقة أراضيهم مما يعتبر عندهم « دفاعاً مشروعاً » وقد قلصت هذه الإبادة عددهم من (١٠مليون إلى ٢٠٠٠٠٠) كما لو كان الهنود هم الذين احتلوا أرض المستوطنين بينما المهاجرون القادمون من أوربا هم الذين احتلوا أرض الهنود ودمروا حياتهم .

ومنذ تلك « الخطيئة الأولى » وتلك هى سياسة الولايات المتحدة تجاه الهنود والعبيد السود وهى سياسة لم تحد عنها .

وخلال القرن التاسع عشر قال « سيمون بوليفار » أحد أبطال محاولات استقلال أمريكا اللاتينية قائلاً : « إن الولايات المتحدة يبدو أنها تنوى قهر ، وإعاقة القارة باسم الحرية » [١] .

وأحد الشهود على بربرية المستوطنين ضد الهنود تلك البربرية التى استخدمت فيها الأسلحة بمعيار مشترك بين الغازين ، هذا الشاهد هو « توكفيل » وصف بسخرية لاذعة وإنسانية قاتلة انتصار « الحرية » وهذا المسلك المنتصر للحضارة عبر الصحراء « بينما كان فى زمهرير الشتاء ، وكان البرد قارصاً جداً ، طارد ثلاثة أو أربعة آلاف من الجنود أمامهم الرحل من سكان البلاد الأصليين الذين كانوا يحملون مرضاهم وجرحاهم وأطفالهم حديثى الولادة والعجزة الذين على شفا الموت . وهو منظر تقشعر له الأبدان وأغلب الظن أنه لم يمح من ذاكرته .

وهكذا بدأ التاريخ فى الشمال ، تاريخ « العالم الجديد » .

فى عام (١٧٥٤م) كان بنيامين فرانكلين المتحدث الرسمى باسم التنويرين يعرف باسم « أبو الأمة » كما كان « الرجل الذى طرد أهل البلد الأصليين ليفسح المجال لقومه » وكان « جورج واشنطن » يعلم نفس الأشياء لأناس غريبى الأطوار عندما

---

(١) مقتبس من كتاب (ناعوم تشوسكى ، « الإيديولوچية والاقتصاد طبعة آب ص ٦) .

كلف قواته بتدمير مجتمعهم وحضارتهم . وكلا النوعين من النفاق قد حدث إذا رجعنا بالذاكرة إلى عام (١٧٧٩م) ، فقد رأينا نفاقاً وجبناً أخلاقياً ولكنهما محيا لما له من التقديس لعده لقرون .

وقد وصف « توماس چيفرسون » فى عام (١٧٨٩م) اتحادنا الأمريكى باعتباره « العش الذى يجب أن تسكن فيه أمريكا الشمالية والجنوبية » لقد كان شيئاً جديداً أن تظل القارة فى أيدى العرش الأسبانى حتى أصبح سكاننا أقوياء بما فيه الكفاية ليستطيعوا أن يأخذوا بلادهم قطعة قطعة . . » .

وقد أوضح « چون كيندى أرمز » ، وهو الذى صاغ الفكر الذى يتبع مبدأ «مونرو» وصف مستعمرتنا Dominion بأنها « قارة أمريكا الشمالية » وأوضح أن ذلك هو قانون الطبيعة ، ولقانون الطبيعة تطبيق واسع النطاق ، وقد ذكره أدمز من جديد فى معرض حديثه عن جهود الصين غير المثمرة ، لحظر استيراد الأفيون عبر الهند، وهى الجهود التى اشتعلت قبل حرب الأفيون ، وقد استخدمت إنجلترا العنف لتقضى على المقاومة التى كانت تعارض المبادئ غير المبنية لحرية التجارة فى الصين ، وهى المقاومة التى كانت تعوق الإمبراطورية عن إغراق السوق الصينى ، بمعنها المنتج الأساس من التصدير إلى الصين ، وقد أوضح أدمز أن محاولات الصين لوقف استيراد الأفيون كانت ضد الطبيعة .

وقد عرف حديثاً أودور « ولسن » أن (واجبنا الخاص) نحو كل شعب محتل بأن نعلمه « النظام وحكم نفسه » وتعلم واعتياد القانون والطاعة ، وعند التطبيق يجب عليه الخضوع لقانوننا ، بأن نسرقه ونستغله ، وفى نص خاص يشرح أدمز الدور الذى تلعبه السلطة ، سلطة الدولة فى هذا المشروع بقوله :

« بما أن التجارة لا تعرف حدوداً وطنية ، وبما أن الصانع يريد أن يكون العالم سوقاً ، فإن علم بلاده يجب أن يتبعه وأبواب الأمم المنغلقة أمامه ، يجب أن تحطم ، والإمتيازات التى يحصل عليها الممولون ، يجب أن يقسمها الوزراء ، ورجال الدولة ، حتى لو اضطررنا إلى تزييف إرادة الأمم المناهضة ، ويجب أن نقيم مستوطنات حتى لا يكون أى جزء من العالم بعيداً عنا أو مهملاً » .

هذه الملاحظات الأمنية تعطى المعنى الحقيقى لنموذج ولسن للحرية والحكم الذاتى ، وهو نموذج حمله العقلاء الغربيون أحياناً إلى الحفاة العراة .

وعندما أصبح رئيساً بعد سنوات قليلة وضع ولسن مبدأه للحكم الذاتى ، موضع التنفيذ فغزا المكسيك ، وهايتى وجمهورية الدومنيكان ، حيث أعمل جنوده القتل والنهب ، وأعادوا ما يشبه العبودية هادمين النظام السياسى واضعين البلاد بكل صرامة فى أيدى الغزاة الأمريكين . وقد شرح وزير خارجيته « أرويرت لا نسيج » معنى « مبدأ موترو » فى مذكرة أعتبر ولسن نشرها ضرباً من السياسة الحمقاء ، بينما وجد أن حجته لا يمكن مهاجمتها .

حين تدافع عن مبدأ موترو فإن الولايات المتحدة تدافع عن مصالحها الشخصية، وسلامة أراضى الأمم الأمريكية الأخرى تعتبر شيئاً ثانوياً ، وهى ليست غاية فى حد ذاتها ، ولكن ذلك يمكن فقط أن يقوم على الأنانية ، ولم يجدوا واضع هذا المبدأ أى حافز أكثر سمواً ، أو كرماً لتقديمه (١) .

إن تذكر هذه الأصول القناصة للأسطورة الأمريكية كان يمكن أن لا يكون سوى وثيقة تاريخية لو لم يرتقى هذا النظام السياسى ولمدة قرنين فى سلم العالم.

فحتى الحرب العالمية الأولى مورست كل ألوان التخريب على نطاق واسع فى القارة الأمريكية ، والقضية الرئيسية هى « منع السيطرة الأوربية على الأراضى الأمريكية ومؤسساتها بالوسائل المادية والوسائل الأخرى » نقلاً عن دورت بول مستشار الامبراطورية الروسية فى تقرير إلى وزير الخارجية لا نسيج بعنوان « حول أهداف البلاشفة » .

إن تاريخ الولايات المتحدة فى القرن التاسع عشر هو أولاً تاريخ تشريد الهنود، فمنذ (١٨٠٠ إلى ١٨٥٠م) طردت كل قبائل الهنود الحمر إلى ما وراء نهر المسيسبى فى ظروف انتقال وسكن تذكرنا بحملات التشريد الهتلرية .

وبعد سنة (١٨٤٠م) وإقامة السكك الحديدية ، جرد الهنود من آخر أراضيهم، وحصروا فى ملاجئ ، وقد ذبحت ثيرانهم التى يتغدون عليها ، وأحرقت ملابسهم ودمرت الآلاف من منازلهم ، ولم تنته مقاومة الهنود المسلحة إلا بمذبحة « وندود نى » فى عام (١٨٩٠م) .

* * *

---

(١) ناعوم تشومسكى - السابق (ص١٥ ، ١٦) .

إن تاريخ الولايات المتحدة هو أيضاً تاريخ استغلال العبيد السود خاصة فى زراعة القطن . تلك هى الملامح الرئيسية للسياسة الداخلية الأمريكية .

أما فى مجال السياسة الخارجية ، فإن الملامح الرئيسية هى انتزاع أمريكا اللاتينية من أسبانيا والبرتغال لتفرض عليها تدخلها الإقتصادى وسيطرتها السياسية على القارة وطرد إنجلترا لاستخراج حقول البترول بدلاً منها .

إن المبدأ الأساسى لهذه السياسة هو استبعاد الهنود والسود والبلاد الأوربية ، وقد حدد الرئيس « مونرو » هذا المبدأ فى (٢ ديسمبر ١٨٢٣م) فى رسالة إلى الكونجرس جاء فيها « القارة القديمة للأوربيين وللأمريكين الجديدة » (مبدأ مونرو).

وقد كان انفجار مدرعة فى ميناء هافانا حجة للحرب ضد أسبانيا وقد أخذت الولايات المتحدة منها بورتوريكو والفيلبين وكوبا .

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م - ١٩١٨م) بسبب تطاحن الدول الأوربية سنحت الفرصة الذهبية للولايات المتحدة التى دخلت الحرب فى نهايتها لتأمين النصر سنة (١٩١٧م) ، ولذلك فإن الأسطورة القائلة بأن الولايات المتحدة هى التى حررت أوربا تنطوى على تضليل مزدوج .

* فخلال الحرب منذ (١٩١٤م إلى ١٩١٨م) لم يظهر التدخل الأمريكى إلا فى سنة (١٩١٧م) ، وكان بداية من أجل مصالح التجارة التى كانت مهددة بنسف البواخر الأمريكية التى كانت ما تزال تتاجر مع إنجلترا ، ولأن الوزير الألمانى «سيمرمان » وعد المكسيك فى يناير (١٩١٧م) بأن يتحالف معها ضد الولايات المتحدة حتى ترد للمكسيك الولايات المفقودة (تكساس ، أريزونا ، ونيومكسيكو) وقد أحدث تدخل « كيزر » انقلاباً فى الرأى الأمريكى لصالح غزو أوربا فى (٤إبريل ١٩١٧م) وهذه الحرب الأولى التى كلفت فرنسا حوالى مليون ونصف قتيل وألمانيا أكثر من مليون و ٠٠٠ ٧٠٠ يجب أن نقارنها بالمشاركة الرمزية للولايات المتحدة التى لم تفقد إلا القليل من الضحايا .

أما حالة الرخاء فيما بين (١٩٢٠م إلى ١٩٣٢) فقد تحولت إلى عربدة مع نمو

السطو النشط بالتواطؤ مع البوليس بفضل قانون التحريم الصادر فى (١٩١٩م) الذى ازدهرت بفضله البارات غير المرخصة وأماكن وعود العشاق والفساق spea-keasies و مدمنى الكحوليات Bootleggers .

وكانت الهجرة الأجنبية مقيدة فى الفترة من (١٩٢١م إلى ١٩٢٤م) ، وأصبح « قانون السود » Klu klux klan مزدهراً ، ونشر الرعب من جديد فى الجنوب ، وقاد التعصب والشوفانية أبرياء إلى الكراسى الكهربائية مثل « ساكو » و « ڤانزتى» وهما معارضان إيطاليان .

وأصبح الإهتمام السياسى الأساسى هو ضرب النظام الاشتراكى الذى يتعارض مع تدخلهم الإقتصادى بكل السبل ، ولذلك أصبح عدوهم الأساسى هوالإتحاد السوفيتى وخطر العدوى التى يمكن أن ينشرها ، وساد نفس النظام فى أوربا الغربية ، حيث لم يتردد الزعماء الأمريكان فى الاعتماد على الديكتاتوريين الفاسدين تحت اسم الدفاع عن الحرية أى سياسة « الباب المفتوح » أمام توسع الولايات المتحدة الإقتصادى اللامحدود .

* أما خلال الحرب العالمية الثانية التى استمرت منذ عام (١٩٣٩م إلى عام١٩٤٥م) لم تتدخل الولايات المتحدة فى أوربا إلا فى يوليو (١٩٤٤م) ، بينما كان اليابانيون قد ضربوا الأسطول الأمريكى غدراً فى السابع من ديسمبر (١٩٤١م) فى بيرهاربور وقد حاول الأمريكان أن يحموا مصالحهم فى المحيط الهادى من التوسع اليابانى المزدهر .

ولكن الولايات المتحدة لم تتدخل مباشرة ضد هتلر إلا فى يونية (١٩٤٤م) ، بعد الكارثة الكبرى التى منى بها جيش « ستا لنجراد » حيث فقد (٠٠٠ ٤٠٠ رجل منهم ٠٠٠ ١٤٠ أسير) ، وقد كبحت المقاومة فى كل أوربا جماح الغزو الألمانى .

وفى ذلك الوقت جمع هتلر قوات الصفوة عنده (١٩٨ فرقة من ٣١٥) على الجبهة الروسية و (٣٨) فرقة على الجبهة الإيطالية و (٦٨) فرقة تنطلق من جبهة النرويج إلى فرنسا مما أصاب آلة الحرب الهتلرية بالإنقسام ، ولذلك جاء تدخل

يونية (١٩٤٤م) واتبعته ألوان مرعبة من القصف المرعب للسكان نتج عنه (٥٧٠٠٠٠ قتيل و ٨٠٠٠٠٠ جريح من السكان المدنيين ، وكان أشهر مثال على هذا القصف هو قصف درسده Dresde (١٣٥٠٠٠) قتيل مدنى ، بينما تخطى التقدم السوفيتى المدينة التى لم تكن هدفاً عسكرياً ، وقد قصفت مدينة هيروشيما بالقنبلة الذرية فى السادس من أغسطس (١٩٤٥م) ونتج عن ذلك (٧٥٠٠٠) قتيل ... ولاقت ناجازاكى نفس المصير بعد ذلك بثلاثة أيام ، بينما كان الإمبراطور اليابانى قد اقترح التسليم (انظر ٣٩-٤٥) حرب غير معروفة ، تأليف بول مارى دولاجورس ، مطبعة فلامريون (١٩٩٥م) ص (٥٣٢، ٥٣٥).

* * *

لقد كان مفهوم « الشيوعية » واسعاً جداً ففى عام (١٩٥٥م) توصل كل من «منظمة ودرو ولسن » و « منظمة التخطيط الوطنية » إلى تعريف الشيوعية بكامل الدقة ، بأنها « التهديد الشيوعى » الذى تعتمد مقاومته فى التحول الإقتصادى على بلد « تقلص إرادته ، وإمكانياته ليكون تابعاً لإقتصاديات الغرب الصناعية ».

وعشية الحرب العالمية الثانية لم يتوان الأمريكان عن الكفاح ضد هذا التهديد فأوصلوا إلى السلطة جزالات النازيين الجديد وتحالفوا بقوة معهم .

وهذه السياسة التى استخدمت بعد الحرب العالمية الثانية فى كل أمريكا اللاتينية كانت قد مورست بعد الحرب العالمية الأولى .

ومنذ عام (١٩٢٢م) أشاد السفير الأمريكى فى إيطاليا ، بوصول « موسولينى» إلى روما واضعاً نهاية لكل أشكال الديمقراطية فى إيطاليا واصفاً ذلك بأنه « الثورة الطيبة الفتاة » وشرح لماذا يعتبر الفاشيون أكثر العوامل قوى فى مناهضة البلاشفة، ومنذ ذلك الوقت استفادت إيطاليا من جانب الولايات المتحدة التى شجعت على جدولة ديونها العسكرية وتدفقت بذلك الاستثمارات الأمريكية .

وفى عام (١٩٣٣م) كان « تيودور روزفلت » يتحدث عن « موسولينى » باعتباره هذا الإيطالى المحترم الرائع That admirable italian gentleman .

وفى عام (١٩٣٧م) ، اعتبر مجلس الدولة أن « الفاشية » أصبحت عقل

إيطاليا الذى أحل النظام موضع الفوضى وفرض النظام ضد الترخيص وحل المشكلة الخاصة بالإفلاس . ولم تغير إدانه غزو اثيوبيا من العلاقات مع إيطاليا ، وقد شرح السفير الأمريكى « لونج » أسباب ذلك قائلاً : « بدون هذا التوجه ... كان يمكن لمظاهرات البلاشفة العنيفة أن تتصاعد فى المراكز الصناعية ، والمناطق الزراعية حيث تسود الملكية الخاصة (١) .

وقد اعتبر مجلس الدولة فى عام (١٩٣٧م) الفاشية كملائم للمصالح الإقتصادية الأمريكية ، أى المفهوم الأمريكى للديمقراطية .

وكذلك كان الحال بالنسبة لهتلر ، ففى سنة (١٩٣٣م) كتب القائم بالأعمال الأمريكى فى برلين إلى واشنطن ، أن الأمل فى ألمانيا يعتمد على « الجناح المعتدل فى الحزب الذى يقوده هتلر والذى يضم كل المتحضرين والعقلاء » (السابق) .

ولأن المحور (بعد بيرل هاربور) لم يهاجم الولايات المتحدة ، فإن رأيها فى الفاشية لم يتغير .

وتتابعت نفس السياسة بعد الحرب فى أشكال جديدة .

فمنذ عام (١٩٤٣م) ظهرت فى جنوب إيطاليا معارضة لقوات « دوتشى » Duce وبناء على نصائح « تشرشل » الذى حذر من شبح « بلشفية زاحفة » ساندت الولايات المتحدة ملك إيطاليا ، الذى كان قد تحالف مع النظام الفاشى وفرضت ديكتاتورية المارشال « بادو جليو » Badoglio ، كما ساند « روزفلت » فى الجزائر عام (١٩٤٢م) ليس شارل ديجول ولكن الأميرال « دارلان » Dar-lan، وكان الهدف فى كل أوربا هو منع وصول المناهضين للفاشية إلى السلطة لأن الشيوعين لعبوا فى تكوينهم دوراً رئيسياً .

ومنذ تهريب التقارير فى الأحذية ، كان الجميع فى الكونجرس يعلم مدى تدخل المخابرات المركزية الأمريكية C - I - A فى الحياة السياسية الإيطالية : فقد كانت قد أنفقت فى المساعدات ما تجاوزت قيمته (٦٥ مليون دولار) منحت للأحزاب السياسية ، وحلفاءها بين عامى (١٩٤٨م) وبداية حقبة السبعينيات ،

---

(١) (شمتيز : الولايات المتحدة وإيطاليا الفاشية ، وجاديس « السلام الطويل ط . أكسفورد ١٩٨٧) .

وفى عام (١٩٧٦م) سقطت حكومة « ألدومورو » بدعما أنفقت فيه إل CIA حوالى (٦ملايين دولار) لمساندة المرشحين المناهضين للشيوعية » ديفيد مايكل « أكاذيب عصرنا » (أغسطس ١٩٩٠م) .

* * *

وقد استطاع كثير من مجرمى الحرب النازيين الهروب بمساعده المخابرات الأمريكية والقوات المناهضة للمقاومة، و لعل كلاوس باربى » أشهرهم بلاشك.

وقد أخرج المفوض السامى الأمريكى « چون ، چ مك كلوى » من السجن مجرم حرب نازى أسوأ من باربى وكان يسمى « فرانز زيكس » Franz six ، وكان يعمل لصالح « راينهار دجهلن » والذى عهد إليه بمهمة تطوير السلاح السرى تحت رعاية الأمريكان وبالتعاون مع قدامى « Waffen ss » ومتخصصين آخرين فى « ڤير مخث » Wehrmacht وقد بادروا بالتواجد مع القوات المسلحة التى نشرها هتلر فى أوربا الشرقية ، والإتحاد السوفيتى ، وساعدوها فى العمليات التى استمرت فيما بعد الخمسينات ، وقد كان جهلن نفسه مديرشبكة التجسس العسكرية النازية على الجبهة الشرقية ، وقد عهد إليه مرة أخرى بوظيفة مدير جهاز التجسس والتجسس المضاد فى الدولة الألمانية الجديدة برعاية ال C I A المطلق «دكريستوف سيجسون » : الصدمة الخلفية ، ويدنفيلد ونكولسون (١٩٨٨م) .

فى الحقيقة لقد بدأ « الخوف العظيم » للولايات المتحدة مع أزمة (١٩٢٩م) عندما أحدث مشروع كسراتش « للمنحة فى (٤ أكتوبر) ، وهو المشروع الذى زاد بفضل المضاربة وأدى إلى إفلاس عدد لا يحصى من البنوك والمشاريع وكذلك ارتفاع ملحوظ ومرعب فى معدل البطالة : من (٤ ملايين) عاطل فى عام (١٩٣٠م) إلى (٧ مليون) فى عام (١٩٣١م) إلى « مليون عام (١٩٣٢م) ، وقد قدم انتخاب فرانكلين روزفلت ومجلسه الاستشارى فى عام (١٩٣٢م) مبدأ جديداً فى الإقتصاد سمى « التداول الجديد » deal New ، ذلك النظام الذى تفادى المزيد من الضغوط ، ولكنه لم يحل الأزمة . وفى عام (١٩٣٧م) هبط الناتج القومى بمقدار (١٣٪) والعمل بمعدل (٣٠٪) .

ولم يخرج أمريكا من هذه الأزمة سوى الحرب العالمية الثانية ، وإذا كان روزفلت قد رفض أن يساعد فرنسا المهزومة من سنة (١٩٤٠م) ، فإنه حول لإنجلترا « قانون المبادلة والإعارة » الذى نشط المنتجات الأمريكية بتصنيع آلاف المركبات والطائرات والدبابات والمدافع ، وكان الهجوم اليابانى دون إعلان الحرب على القاعدة البحرية الأمريكية فى برل هاربورفي السابع من ديسمبر (١٩٤١م) حجة قوية تجعل الجميع يتبنى وجهه نظر روزفلت .

وقد سمحت القوة الإقتصادية الأمريكية فى مواجهة أوربا التى انهكتها الحرب سمحت لروزفلت حتى قبل دخوله الحرب فيما بعد ، أن يصبح سيد الموقف بالنسبة لأوروبا الغربية منذ يناير (١٩٤٣م) ، وفى الدار البيضاء ، وديسمبر (١٩٤٣م) فى طهران ، وفى يالطا عام (١٩٤٥م) حيث كان المحادث الرئيسى لستالين بغية إنشاء منظمة عالمية بعد سقوط هتلر .

وقد خرجت الولايات المتحدة من الحرب وهى فى موقف سيادى شامل موقف لا مثيل له تاريخياً ، فلقد تحطم غرمائها الصناعيون أو على الأقل أصابهم الوهن، بينما ارتفع انتاجها الصناعى أربع مرات خلال سنوات الحرب .

وكانت الولايات المتحدة تمتلك فى نهاية الحرب نصف الثروة العالمية ، بينما كانت خسائرها تافهة بالقياس إلى بقية العالم . فلقد كلفت تلك الحرب ألمانيا أكثر من سبعة ملايين ونصف قتيل (نصفهم مدنيون) وكلفت روسيا حوالى (٧ ملايين) مدنى ، أما فى الولايات المتحدة فقد قتل (٢٨٠٠٠٠) جندى ، وهو عدد لا يساوى عدد الذين ماتوا من جراء حوادث تصادم السيارات بالولايات المتحدة خلال فترة الحرب .

* * *

وقبل نشوب الحرب الكورية بقليل فى (١٩٥٠م) أقرت وثيقة تحديد الخط السياسى للولايات المتحدة ، وهى وثيقة حررها « باول نتر » الذى خلف «چورج كنن » فى رئاسة مجلس الدولة للتخطيط ، ضمن مجلس الأمن القومى .

وكان چورج كنن قد أقيل من منصبه لأن السلطات اعتبرته العين الثاقبة ، وقد كتب فى عام (١٩٤٨م) يقول :

« إننا نمتلك ما يقرب من (٥٠٪) من ثروة العالم ، ولكننا لا نملك من سكانه سوى (٦,٣٪) وفى موقف كهذا لا يمكن تفادى أن نكون غرضاً للغيرة والأحقاد ولذلك فمهمتنا فى الفترة القادمة هى أن نطور نظاماً للعلاقات التى تسمح لنا بأن نسيطر على هذا الموقف من اللامساواة دون أن نعرض أمننا القومى للخطر . وحتى نحقق ذلك ، سيتحتم علينا أن نتخلى كلية عن العواطف ، وأن لا نحلم أحلام اليقظة ، يجب أن تكون نيتنا مركزة على أهدافنا القومية الملحة ، يجب أن لا نخدع أنفسنا ، فلن نستطيع اليوم أن نسمح لأنفسنا بترف تفضيل الغير علينا ، ولا بعمل الخير على الساحة العالمية ، يجب أن ننته عن الكلام عن الأهداف العامة ، وعن الشرق الأقصى الذى يجب أن يتحقق فيه احترام حقوق الإنسان، وارتفاع مستوى المعيشة والديمقراطية ، وليس ببعيد ذلك اليوم التى سيتحتم فيه علينا أن نتحدث بصراحة وبلغة موازيين القوة . . . ولكنا سوف تعكر صفونا شعارات المثالية ، نعم سيحدث ذلك [١] .

ويوضح « باول نتر » أهداف خطته المعروفة « بخطة الصقور » ، فالولايات المتحدة تمتلك قوة عالمية ، ولذلك فمن الضرورى أن تحدد لها عدواً شاملاً (وكانت الحالة أنه الاتحاد السوفيتى) ، ولذلك فقد اعتبروه شيطاناً ، واعتبروا كل شكل من أشكال التدخل أو العدوان من جانب الولايات المتحدة سيكون مبرراً بداية ، بأنه رد فعل للدفاع ضد تهديد شامل ، ومنذ ذلك الوقت اعتبر الاتحاد السوفيتى « إمبراطورية الشيطان » ولذلك لم يكن كل من كوريا أو فيتنام هم الذين غزوا الولايات المتحدة ، ولكن الولايات المتحدة هى التى غزتهما ، وهما على بعد (١٠٠٠٠) كيلو متر من حدودهما ، واعتبرت نفسها رغم ذلك فى حالة دفاع شرعى عن النفس ، وبعد الخسارة الفادحة فى عام (١٩١٧م) بعد الحرب العالمية الأولى ، لم يكن الاتحاد السوفيتى قوة عسكرية ، ولكنها كانت محل خطر بما تحمل من عدوى مناهضة النظام الرأسمالى » ، إن أمن الولايات المتحدة كان فى خطر منذ (١٩١٧م) ، وليس فقط فى عام (١٩٥٠م) ، وتدخلها كان دفاعاً ضد تغير النظام الإجتماعى فى روسيا وإعلان نواياها الثورية [٢] .

---

(١) دراسات فى التخطيط السياسى (باب - إس ٢٣ فبراير ١٩٤٨) .

(٢) (جادس - السلام طويل المدى - أكسفورد ١٩٨٧) .

ولهذا كتب السيناتور « وارين هاردنج » الذى أصبح فيما بعد رئيساً للولايات المتحدة قائلاً : « إن البلشفية خطر يجب أن يستأصل .. ويجب أن نقضى على الوحش البلشفى » [1] . لقد كان وجود الإتحاد السوفيتى نفسه يمثل عدواناً ، وكان يتعين على الولايات المتحدة أن تناهضه فى كل بقعة من بقاع الكرة الأرضية.

لقد حددت أهداف « الحرب الباردة » بشكل واضح .

إن وثيقة مجلس الأمن القومى رقم (٦٨) تعرف الأهداف هكذا ، إن الصراع بين قوى النور وقوى الظلام « لا تهدد فقط جمهوريتنا ، ولكنها تهدد الحضارة نفسها ، إن الغارة على مؤسسات العالم الحر عالمية ، وتقتضى من أجل مصلحتنا مسؤليه ممارسة قيادة عالمية » ، وقد جعل انتشار الصحافة والسيطرة الإعلامية والكتب والجامعات والسينما والتليفزيون بفضل الطبقة الحاكمة كل ذلك جعل الرأى العام يقبل نظرة العالم هذه ، وقد تراجع « ألكسيس دى توكفيل » عن هذه المثالية فى كتابه عن « الديمقراطية الأمريكية » فى عام (١٨٤٠م) حيث قال :

« لا أعرف بلداً فيه قليل من الاستقلال والفكر والحوار مثل الولايات المتحدة» ، وفى عام (١٨٥٨م) كتب « هنرى ديفيد تورو » أحد الكتاب المنشقين القلائل ، وهو مؤلف « ولدن » أو الحياة فى الغابة » كتب يقول :

« لسنا بحاجة إلى أى قانون ينظم حرية الصحافة ، فالصحافة تصنع ذلك بنفسها وبما لا ينبغى ويصل الجميع بالقوة إلى إجماع يخص الأشياء التى يمكن الإفصاح عنها ، وبذلك ينشأ سقف من الإتفاق الضمنى الذى يحرم على أى إنسان، ولو بدرجة واحد فى الألف أن يجرأ ويقول شيئاً آخر » .

ويضيف « ناعوم تشومسكى » إنه من المؤكد أن نقول أن واحد فى الألف ليس قادراً على التفكير فى أى شيء آخر ، ولذلك فإن نظام الحجر على الفكر يمارس سلطانه بطريقة فعالة .

وفى القرن العشرين ، أصبح تحكم الصحافة أكثر يقظة . وكانت شخصيات

---

(١) (شمتز ، الولايات المتحدة وإيطاليا الفاشية ، برتستون ١٩٨١م ص ٤٠) .

مشهورة ، وباحثون فى العلوم السياسية ، وصحفيون ، ورجال صناعة ، وعلاقات سياسية متطورة ، وأشياء أخرى عرفت أنه فى أى بلد يمكن أن يسمع صوت الناس فمن الضرورى أن نتأكد أن الصوت المطلوب سيكون فى محله .

وفى دولة قائمة على العنف الداخلى ، يكفى أن نضبط أفعال الناس ، وأما ما يفكرون فيه فهو أقل أهمية ، وحين يكون عنف الدولة محدوداً يكون من الضرورى أن نضبط ما يفكر الناس فيه .

وهذا الأمر كان معترفاً به غالباً فى أوساط الصفوة ، حيث كان يركز على أهمية « التمهيد للموافقة » (وهذه استعارة ساقها واترليمبان « وهو صحفى بارز ومعلق سياسى) ، أو « صنع الموافقة » كما قال « إدوارد بردتيز » وهو شخصية بارزة على مستوى عال من الإحترام فى صناعة العلاقات السياسية ، وذلك حتى تتأكد من أن الشعب سيعتمد قرارات قادته النابهين الذين يجب أن يظلوا بعيداً عن تأثير الجماعات الوقحة .

وقد كتب أحد نقاد هذه المفاهيم ، وهو « روبرت دول » المتخصص فى العلوم السياسية يقول : « لو افترضنا أن الرأى العام كان خاضعاً للنظام بفضل قواده فى عالم الأعمال والشئون الأخرى ليستخرجوا منه ما يريدون ، فسيكون ساعتها نموذج الديمقراطية لإستفتائيه مساوياً فى مادته لنموذج التسلط الشمولى [(١)] . وعلى هذه الأرضية من التلاعب بالرأى العام استطاع الحكام الأمريكيون أن يستولوا على العالم .

وكان الشغل الشاغل لأهل السلطة هو تأمين ظهورهم فى أمريكا اللاتينية ، وكان أفظع أنواع البحث « عن موطىء قدم » ما حدث فى « جواتيمالا » بعد الحرب حين هددت حكومة الرئيس « أربتر » الشعبية امتيازات « الثمرة المتحدة united fruit » والشركات البترولية .

وحتى يتحاشوا مزيداً من التدخل العسكرى المباشر ، فإن حكام أمريكا قاموا بعمل مذكرة لتحديد المقاييس الضرورية لاستخدام القوات المسلحة الأمريكية اللاتينية فى إطار النظام الأمريكى المعروف « بالتشجيع » وهو « زيادة عدد

---

(١) ناعوم تشومسكى « الأيديولوجية والسلطة » ط EPO ص ١٢١ - ١٢٢ .

الشخصيات المؤهلة اللاتينية الأمريكية الذين سوف يتدربون فى المدارس الحربية ومراكز التدريب بالولايات المتحدة بما فيها الأكاديميات العسكرية ، وتشجيع العلاقات القوية بين الشخصيات العسكرية الأمريكية ، والأمريكية اللاتينية بشكل يشجع القادة الأمريكية اللاتينية على تفهم أهداف الولايات المتحدة ، والتأقلم معها مع الاعتراف بأن المنظمات العسكرية فى معظم دول أمريكا اللاتينية تلعب دور مهماً فى الحكومة ، محاولة إقامة توحيد نمطى بشكل كامل حسب المعايير الأمريكية فى التنظيم والتدريب ، ومذاهب تكوين القوات المسلحة الأمريكية اللاتينية بغية محاصرة أى مذاهب أخرى ، أو أى بعثات عسكرية فى أمريكا اللاتينية مع التأكيد على أن النظام الأمريكى وحده هو الذى سوف يستخدم ، ونلاحظ أن تلك المقاييس تهدف إلى إدخال القوات الأمريكية اللاتينية فى تنظيم القيادة العسكرية للولايات المتحدة ، وهى موجهه نحو عدوينا التاريخيين فى أمريكا اللاتينية « أوربا والسكان الأصليين » (مجلس الأمن القومى : ٥٤٣٢) .

وعندما يصير ابتزار القتلة وهم على رأس السلطة مستحيلاً ، نتيجة لفسادهم وإرهابهم ، يستبدلهم حكام الولايات المتحدة بحكام منتخبين كما حدث فى الأرجنتين والبرازيل وبنما (بعد أن استخدموا نوريجا) وفى نيكارجوا حتى يحاولوا بعد (٣٠٠٠٠) قتيل أن يعيدوا النظام السوموزى بدون « سوموزا » .

* * *

وقد طرحت المشكلة بشكل مزدوج فى أوربا عشية الحرب العالمية الثانية ، فقد كان الخطر مزدوجاً كما أكدت ال C I A « المخابرات المركزية الأمريكية » ، منذ (١٩٤٧) يقولها « إن أكثر الأخطار بالنسبة لأمن الولايات المتحدة هو الخوف من الإنهيار الإقتصادى فى أوربا الغربية ، وما قد يستتبعه من تصاعد قوى العناصر الشيوعية .

وحتى يتصدوا لهذا الخطر المزدوج فقد طرح المسؤلون الأمريكيون خطة مارشال التى تهدف كما قالوا إلى إعادة إعمار أوربا .

ولكن الشروط السياسية كانت صارمة ، فلقد كان أولها استبعاد الشيوعيين من الحكومات الغربية :

وكان التدخل الأجنبى واضحاً كالتالى :

- تم طرد الوزراء الشيوعيين من الحكومة الفرنسية فى (٤ مايو ١٩٤٧م) .
- وتم طرد الوزراء الشيوعيين من الحكومة الإيطالية فى (١٣ مايو ١٩٤٧م) .
- وتم طرد الوزراء الشيوعيين من الحكومة البلچيكية فى نفس الشهر .

وفور حدوث هذا الاستبعاد ، أعلن رسمياً فى الخامس من يونية (١٩٤٧م) «مشروع مارشال» .

وهذه النتيجة التى تحققت جعلت تطبيق هذه الخطة ممكناً ، وعلاوة على كونها تمثل ضغطاً سياسياً ، فإنها أيضاً برنامج واعد للصادرات الأمريكية إلى أوربا .

لقد كانت « المساعدة » أقل أهداف « مشروع مارشال » وقد أوضحت دراسة بتاريخ إبريل (١٩٤٧م) أن المساعدة الأمريكية كانت مخصصة فقط للبلاد ذات الأهمية الاستراتيجية المفيدة للولايات المتحدة . . . إلا فى حالات وجود فرصة سانحة للولايات المتحدة للحصول على رضا عالمى بفضل قيامها بعمل مظهرى إنسانى .

(تنظيم زعماء مجلس الأمن القومى « ١٧٦٩/١») .

وقد ظهر أن وزير الخارجية « دين أكيسون » وبعض أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى كانوا متفقين فى عام (١٩٥٠م) على أنه « إذا ظهرت المجاعة فى الصين، فإن الولايات المتحدة يجب أن تقدم قليلاً من المساعدة الغذائية التى لا تكفى للقضاء على المجاعة ، ولكنها تكفى لإظهار نوع من الحرب النفسية » (ستيفان ثالوم : مجلة Z أكتوبر ١٩٩٠م) .

وحتى تعطى قاعدة أكثر قوة لهذه العملية السياسية الإقتصادية ، فإن مذكرة مجلس الأمن القومى (N S C 69) لعام (١٩٥٠م) تطالب باستراتيجية ردع «Toll back » تهدف إلى الإسراع بتدهور الاتحاد السوڤيتى من الداخل و بذر بذور انهيار النظام السوڤيتى بواسطة سلسلة من الدسائس السرية والدسائس الأخرى التى تسمح بعقد اتفاقيات مع الاتحاد السوڤيتى ، أو مع دولة أو مجموعة دول لها نفس النهج ، وتشمل الوسائل السرية « إرسال الإمدادات ، والضباط ، فى فترة معنية إلى جيوش الدول التى تناهض الاتحاد السوڤيتى وأوربا الشرقية التى

كان يحتلها هتلر ؛ وكذلك وضع المخابرات الألمانية الاتحادية تحت تصرف «رنيهارد جهلن» الذى كان على رأس المخابرات العسكرية النازية فى الجبهة الشرقية ، وكذلك تجنيد المجر من النازيين للمشاركة فى المشروع الشامل بعد الحرب وهو المقاومة ضد الفاشية .

وعندما فقد هؤلاء الأعضاء حمايتهم فى أوربا أرسلوا ليواصلوا مهمتهم فى أمريكا اللاتينية .

وكان الحال هكذا بالنسبة لكلاوس باربريه الذى أرسل إلى بوليفيا حيث شارك بقوة فى الإنقلاب الذى حدث عام (١٩٨٠م) حيث وصلت جرائمه إلى حد الاغتيالات بصورة أكثر من التى مارسها فى فرنسا إبان هتلر (١) .

وكانت معاهدة السلام فى عام (١٩٤٥م) ، ثم انهيار الاتحاد السوفيتى عام (١٩٨٩م) قد طرحا أمام الولايات المتحدة مشاكل صعبة لتبرير سياسة التسليح أمام الشعب ، تلك السياسة التى كانت عنصراً لا غنى عنه لتوظيف الاقتصاد الأمريكى .

وقد أثار « شبح السلام المزعج » مشاكل شائكة ، فهو يهدد مباشرة اللجوء بشكل عقائدى إلى البرامج العسكرية الكينسية (المتعلق بمبدأ كينس فى التدخل المباشر من أجل الاقتصاد) ، والتى اعتمد عليها تنظيم اقتصاد الدولة بشكل كبير فى السنوات الأخيرة ، وقد أوضح رئيس الأركان السابق الجنرال « إدوارد ماير » أن سلاحاً عال التقنية ذو استمارات هامة بالضرورة من شأنه أن يؤمن عوائد كبيرة للصناعه الأمريكية فى الخارج ، وبفضل الدبابات التى تدور بالإنسان الآلى والطائرات الموجهه عن بعد ، والوسائل التقنية المصطنعة ، كل هذه بالطبع لها أهمية بالنسبة للأهداف الأمريكية المستقبلية ، ولكن المشكلة ليست فى ذلك ولكن القلق هى أن الأمل فى تطور التقنية بات ضعيفاً ، إذ كيف نحمس الشعب على دفع الفاتورة ، بينما لا نضع أمام عينيه خطراً يهدده بعد أن فقد الاتحاد السوفيتى مصداقيته ؟ (٢) .

كان يجب إذاً تغيير « إمبراطورية الشر » .

---

(١) « ناعوم تشومسكى الديمقراطية المدمرة » ط فتنيح (ص ٣٩٦) .

(٢) (صحيفة وول ستريت ١٣ أغسطس١٩٨٩م) .

وقد مثلت « حرب المخدرات » حجة جديدة للتدخل بدعوى « حق التدخل الإنسانى » أو « الدفاع عن الحق » .

ثم أصبحت « إمبراطورية الشر الجديدة » بعد ذلك هى العراق ، فمنذ عدة سنوات كان « صدام حسين » يمثل بالنسبة للولايات المتحدة سداً منيعاً ضد الإسلام الذى كان يجسده نظام « الخومينى » فى إيران ، ولم يكن التسلح أو السلاح مرفوضاً لهذا الرجل الذى سماه كاتب فرنسى « ديجول العراقى » ولكن عندما أراد أن يستعيد نصف بتروله الذى انتزع منه عام (١٩٦٢م) نتيجة لتهديد عسكرى من طراز استعمارى ، بالكويت (التى كانت دائماً فى ظل الإمبراطورية العثمانية، وكذلك فى ظل الإحتلال البريطانى تابعة لولاية البصرة) وقد ظهرت الولايات المتحدة وحلفاءها والمتأمرون معها بمظهر المدافعين عن « الحق » وعن «القانون الدولى » ضد هذا « العدوان » بعد أن كانت قد وافقت باستخدام «الڤيتو» على رفض أى عقوبات ضد إسرائيل فيما يعد مكافأة على اعتدائها على فلسطين والجولان بالاحتلال وضم أراضى الغير بما فيها القدس .

ولذلك تعين على الولايات المتحدة « أن تضرب المثل » لكل شعوب العالم الثالث لتوضح لها أنه ليس مسموحاً لأى شعب أن يصل إلى التكنولوچيا المتقدمة أو يستغل ثرواته القومية (وهى هنا : البترول) دون مراقبة أسعاره من قبل القوى الكبرى وخاصة الخضوع لذلك الدين الذى لا يجرؤ على ذكر اسمه ، ولكن الولايات المتحدة فرضته على العالم أجمع وهو : وحدة السوق وعبادة المال ، وإلا فسيكون العقاب هو التدمير الشامل لذلك الشعب .

وقد نتج عن قصف العراق كما تقول مصادر الصليب الأحمر (٢٠٠ ٠٠٠) قتيل من المدنيين ، ونتج عن استمرار الحصار قتل (٥٠٠ ٠٠٠) طفل نتيجة نقص الأغذية والرعاية .

وعندما أرسلت الولايات المتحدة قواتها إلى المملكة العربية السعودية فى أغسطس (١٩٩٠م) كتب محرر القسم الدبلوماسى بصحيفة « نيويورك تايمز » توماس فريدمان فى (١٢ أغسطس) قائلاً :

« إن الولايات المتحدة لم ترسل قواتها إلى الخليج فقط لمساعدة المملكة العربية السعودية فى مقاومة العدوان ، ولكن لمساعدة دول أوبك التى تعد من أهم

المصالح لواشنطن » وألمحت « الواشنطن بوست » إلى أن هذا السلوك من جانب الولايات المتحدة يعد شيئاً فات زمانه ، وأوضح « توم مان » مدير الشئون الحكومية بمعهد التخطيط أن « بوش » يتعامل مع دول الشرق الأوسط بموضة استعمارية قديمة (واشنطن بوست ١٣ أغسطس ١٩٩٠م) .

ولقد كانت هذه العملية الاستعمارية بحق استكمالاً للعدوان الانجليزى الذى أعاد إلى الظهور أيام الجنرال « عبد الكريم قاسم » فى عام (١٩٦١م) واحتكر حوالى (٩٤٪) من التراب الوطنى العراقى ، وذلك منحت حكومات تشبه عرائس « الماريونيت » إلى الشركات البترولية الغربية امتيازات عديدة .

وقد بعث وزير الخارجية البريطانى « سيلون ليود » ببرقية سرية عرض فيها خيارين فيما يتعلق بمشكلة الكويت : « إما احتلال بريطانى فورى لهذه المنطقة شبه الولاية ، وإما استغلال اسمى ، ولكنه ارتاب بشكل قوى ، فالاحتلال سوف يثير خيارات قوية حول بترول الكويت » ولكن ذلك سوف يوقظ المشاعر القومية فى الكويت ، وسيكون لذلك تأثيره على الرأى العام العالمى وبقية الدول العربية، وربما كان من الأولى إيجاد نوع من الكويت السويسرية ، حيث لا تتحكم الانجليز مباشرة فى البترول ، ولو اخترنا البديل الثانى ، فإنه من الواضح أنه إذا لم تسر الأمور على ما يرام فيتحتم علينا أن نتدخل بكل حسم مهما كان وزن القائمين بالإضطرابات ، وإنه لشىء واضح أن الولايات المتحدة تساندنا بشكل مطلق فيما يتعلق بالخليج ، وهذا يتطلب اتخاذ إجراءات صارمة لنضمن بقاء مركزنا فى الكويت ، وإجراءات مماثلة من جانب الأمريكان فيما يتعلق بحقول بترول شركة « أرامكوا » فى المملكة العربية السعودية ، و الأمريكان متفقون على أن حقول البترول فى الكويت والمملكة العربية السعودية والبحرين وقطر ، يجب أن تظل وبأى ثمن فى أيدى الغربيين وقد لخص أيضاً المصالح الرئيسية للإنجليز والغربيين فى الخليج العربى وهى :

(أ) تأمين معدل حر من بترول الدول الخليجية لإنجلترا وللبلاد الغربية .

(ب) تأمين تحويل عوائد هذا البترول حسب اتفاقيات الامتيازات إلى الجنيه الاسترلينى ، واستمرار الترتيبات لاستثمار العوائد المضاعفة لبترول الكويت .

(جـ) إيقاف الإنتشار الشيوعى أو المتبنى للشيوعية فى هذه المنطقة وما حولها مما

يتطلب معه ضبط إيقاع النزعة القومية العربية التى يستخدمها السوفيت ذريعة للتدخل فى المنطقة . (برقيه رقم ١٩٧٩م ، ١٩ يوليو ١٩٥٨م) ملف F. O ٣٧١/١٣٢٧٧٩ « السياسة المستقبلية فى الخليج العربى » وكذلك ١٥ يناير ١٩٥٨م « F. O ٣٧١/١٣٢، ٧٧٨) .

وهناك وثائق أمريكية من نفس الفترة توضح الأهداف الإنجليزية بألفاظ شبيهة بذلك « تؤكد المملكة المتحدة أن استقرارها المالى سيتهدد بقوة إذا لم يوفر بترول الكويت والخليج بشروط معقولة فى متناول يدها ، ومن ناحية أخرى ، فإن إنجلترا لا يمكن أن تترك استثمارات هذه المنطقة تخرج من يدها لأن الجنيه الاسترلينى محتاج إلى مساندة بترول الخليج الفارسى ، هذه المتطلبات البريطانية وضرورة وجود مصدر آمن للبترول يعتبر ضرورة للحياة الإقتصادية لأوربا الغربية ، كل ذلك يعطى حجة أكبر للولايات المتحدة لمساندة تواجد الإنجليز فى حالة الضرورة بالقوة من أجل الحفاظ على التحكم فى الكويت والخليج (مجلس الأمن القومى ١/١ ٥٨٠ «النتائج الظاهرة للموقف فى الشرق الأدنى » ٥٨٢٠ الرابع من نوفمبر ١٩٥٨م).

كذلك فإن « ايزنهاور » كان يعتبر بالفعل أن الشرق الأوسط هو أهم الأماكن الاستراتيجية فى العالم (مأخوذ عن ستيفان سبيجل « الصراع العربي الإسرائيلى الآخر » جامعة شيكاغو ١٩٨٥م ، ص٥١) ، وعشية الحرب العالمية الثانية أعدت الولايات المتحدة خططها الجيوسياسية .

وكانت مجموعات دراسة بمجلس العلاقات الخارجية التى كان يُمارس من خلالها تأثير عالم العلاقات السياسية الخارجية ، ومن مجلس الدولة قد قامت بصياغة مفهوم ما كان يسمى « بالمنطقة العظمى » ، وهى منطقة يجب أن تكون خاضعة للمصالح الاقتصادية الأمريكية والتى يجب أن تشمل على الأقل نصف الكرة الغربى ، أى الشرق الأقصى والامبراطورية البريطانية القديمة .

ويجب بكل ما نستطيع أن نطور تلك المنطقة جاعلين منها نظاماً شاملاً يمكن أن يشمل بأى شكل أوربا الغربية ، وأن تكون محاذير القوة فى الشرق الأوسط التى على وشك الحدوث أن تكون بأيدى الأمريكان [1] . « إن المفهوم الأمريكى

---

(١) ناعوم تشومسكي - الأيديولوچية والسلطة ط EPO ص ٢٠ .

للأمن العالمى .. بما فى ذلك ما يخص التأثير الاستراتيجى فى نصف الكرة الغربى . (وهو فلك يجب أن يستبعد منه كل ما عدا أوربا حيث يقتضى التأثير الاستراتيجى التحكم الاقتصادى) ، وأيضاً السيطرة على المحيطين الأطلنطى والهادى ، وهو نظام متسع لكل الأسس الخارجية من أجل توسيع الحد الاستراتيجى والارتقاء بالسلطة الأمريكية ، وهو نظام يشمل حق التنقل ، وذلك لتسهيل نقل المعدات التجارية والعسكرية وانفتاح المنابع والأسواق فى أكبر أجزاء أسيا وأوربا ، ورفض فتح هذه النافذة لأى عدو محتل وضمان استمرار التفوق النووى ، وهذا المفهوم الاستراتيجى يجعلنا نفهم بصورة جيدة ديناميكية الحرب الباردة بعد عام (١٩٤٨م، ميلفن لفللر [١] .

وتلعب سياسة الازدياد فى التسليح دوراً فاصلاً فى هذا البرنامج . ومن الواضح وجود إمكانية لنفقات تسليح فى تلك البلاد « مجلة وول ستريت ١٩٥١م) ، وقد نشطت النفقات العسكرية للولايات المتحدة بطريقة لا يمكن اغفالها وكذلك الإنتاج الصناعى الأوربى وشراء المواد الخام الاستراتيجية من المستعمرات الأوربية ، وقد أدى انخفاض الدولار بنسب معينة أن علقت مساعدات مشروع مارشال فى بريطانيا العظمى سنة ١٩٥٠م ، وكذلك كانت التأثيرات متناقضة بعد « هوجان » والفترة طويلة ، وفى حالة اليابان لعبت النفقات العسكرية للولايات المتحدة خاصة من أجل حرب كوريا دوراً أساسياً فى إعادة البناء الصناعى فيما بعد الحرب ، وقد استفادت كوريا الجنوبية بنفس الطريقة من حرب ڤيتنام كما استفاد فى نفس الوقت كل حلفاء الولايات المتحدة .

لقد كان دور العالم الثالث هو خدمة احتياجات الشركات الصناعية ، وفى أمريكا اللاتينية كما فى بقية العالم كان شعار « حماية مصادرنا الطبيعية » هدفاً أولياً كما شرح ذلك « چورج كان » ، وأضاف قائلاً : « منذ أن أصبح لمصالحنا أهمية تحتم علينا أن نفهم أن الرد المناسب يمكن أن يكون غير لائق » إنه يريد أن يتحدث عن القمع السياسى الذى تمارسه الحكومات المحلية ، والإجراءات القمعية للحكومة أنها يجب أن لا تهز مشاعرنا ما دامت النتائج تخدم أهدافنا ، وبصفة عامة فإنه يريد أن نضع على سدة الحكم نظاماً قوياً أقوى من أى حكومة حرة

(١) (الولايات المتحدة والأبعاد الاستراتيجية لمشروع مارشال - التاريخ الدبلوماسى صيف١٩٨٨) .

متسامحة ، أو غير ملتوية ، أو محبة للشيوعيين ، وفى الخطاب الأمريكى نجد أن كلمة شيوعى مستخدمة كمصطلح تقنى يندرج تحته زعماء النقابات ومنظمى تجمعات الفلاحين ، وجماعات المساندة التى يؤيدها القساوسة ، وكل من ليست أهدافها صحيحة سياسياً ، أى الذين يستمعون إلى الضغوط الشعبية التى تهدف إلى الاصلاح الإقتصادى السريع ، هذه المتطلبات تدخل فى صراع ليس فقط مع «ضرورة حماية مواردنا » ، ولكن أيضاً مع اهتمامنا بتشجيع وجود مناخ ملائم للاستثمار الخاص ، وتأمين أرباح معقولة لهؤلاء الذين يجلبون رؤوس الأموال الأجنبية (١) . وفى يناير ١٩٩٠م) ، وحسب رأى « ديك تشينى » وزير الدفاع الذى كان يشارك الرئيس «بوش » وجهه النظر هذه فإن : « الولايات المتحدة بحاجة إلى أسطول هام ، وإلى كل قوى التدخل بصفة عامة ، لمواجهة الصراعات الخفية وحماية المصالح الأمريكية فى آسيا وأمريكا اللاتينية مثلاً ، وسوف تكون قوتنا العسكرية فى المستقبل عاملاً أساسياً فى توازن القوى ، ولكنها ستظهر بشكل مختلف ، ومن المحتمل بقوة أن هناك أشياء كثيرة ستستدعى وجود قواتنا ، ليس الاتحاد السوفيتى، ولكن العالم الثالث ، ذلك العالم الذى سيستلزم وجود قوى جديدة على أصعدة متباينة .

* * *

وحول التطورات الأخيرة فى السياسة الاستعمارية فى فلسطين فلم يحدث فى أى لحظة أى انفراج فيما اصطلح على تسميته « عملية السلام » ، (وهو تعبير عبثى لأنه لا يمكن أن يكون هناك سلام إلا بالتطبيق الكامل لقرارات الأمم المتحدة، تلك التى تخترقها وتنتهكها إسرائيل لا سيما فيما يتعلق باحتلال الضفة الغربية وبناء المستوطنات ووضع القدس) .

ولقد واصلت الولايات المتحدة وإسرائيل مساعيهما لتغيير مسار عملية السلام الأصلية ، ففى (مايو ١٩٨٩م) اقترح تحالف الحكومة المكونة من الليكود والعمل خطة تسمى « خطة شامير » وهى فى الحقيقة « خطة شامير - رابين » وكانت مبادىء هذه الخطة كالتالى : لا توجد دولة أخرى فى فلسطين غير دولة إسرائيل

---

(١) (وثائق مجلس الأمن القومى الأميركى ٥٤٣٢ ، ٤ أغسطس ١٩٥٤م) .

بما فى ذلك قطاع غزة والمنطقة الواقعة بين الأردن وإسرائيل ، لن تتفاوض إسرائيل مع منظمة التحرير الفلسطينية ، غير مسموح بأى تغيير فى الحالة الراهنة فى يهودا والسامرة وغزة خارج الخطوط التى حددتها حكومة إسرائيل والتى تصادر حق الفلسطينين فى الحكم الذاتى .

وتعبير « ليست هناك دولة فلسطينية أخرى بعكس الرأي الأمريكى الإسرائيلى حيث عبروا أن هناك دولة فلسطينية هى الأردن ، ومنذ ذلك الوقت لم يطرح أى كلام عن الحكم الذاتى للفلسطينين ، على عكس ما يعتقده الأردنيون والفلسطينيون والأوربيون وبعض المشردين الآخرين .

هذه المبادىء الأساسية تمثل بدورها « اللاءات الأربع » لبرنامج حزب العمل: لا عودة لحدود (١٩٦٧م) ، لا تجميد للمستوطنات ، لا مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية ، وقد دعت الخطة إلى « انتخابات حرة وديمقراطية » فى ظل الاحتلال العسكرى الإسرائيلى مع استبعاد منظمة التحرير الفلسطينية .

وقد اعتمدت الولايات المتحدة هذا المشروع ، فقد أوضح جيمس بيكر ذلك قائلاً : « لقد كان هدفنا دائماً هو نفس المعنى الذى أشارت إليه مبادرة شامير ولم نطرح أى خطة أخرى وفى ديسمبر (١٩٨٩م) ، وافق مجلس الدولة على خطة بيكر ، واشترط أن تتحاور إسرائيل فى القاهرة مع مصر وبعض الفلسطينين المقبولين والمخول لهم أن يناقشوا حلولاً وسط لتحقيق خطة شامير ، لا شىء غيرها . . (١) .

من الواضح أن السياسة الأمريكية كانت تدار من بعيد بقوة « اللوبى الصهيونى» فى الولايات المتحدة ذلك اللوبى الذى اسمته « نيويورك تايمز » «اللوبى الأكثر تأثيراً . . . والقوة الرئيسية فى اتجاه السياسية فى الشرق الأوسط».

وتقدر « نيويورك تايمز » أن اللوبى يمكن أن يصل عدده على الأقل إلى (٤٠) سيناتور (عضو مجلس الشيوخ) و (٢٠٠) من (٤٣٥) ممثلاً .

ويمثل اليهود الأمريكان (٢,٦٪) من جملة السكان حسبما أوردته مجلة فوربى

---

(١) ناعوم تشومسكى « ديمقراطية الردع » ط . ڤيندج .

Forbes ، ولكن (٢٠٪) من المليونيرات مستعدون للتصويت لصالح إسرائيل حسب توجهات اللجنة الأمريكية الإسرائيلية للشئون العامة AIPAC التى رصدت فى عام (١٩٦٧م) حوالى (٦,٩٠٠٠٠٠) دولار (صحيفة وول ستريت ، ٢٤ يونية ١٩٨٧م) .

وتحت هذا التأثير فإن (٣ مليار دولار) ذهبت إلى إسرائيل فى شكل مساعدات اقتصادية وعسكرية « أى ما يساوى (٧٠٠ دولار) لكل إسرائيلى فى العام .

أما فى أفريقيا باستثناء مصر ، فإن الفرد يتلقى (٢دولار) فى العام (١) .

* * *

وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى كان الهدف الرئيسى للسياسة الأمريكية هو وضع يدها على كل الدول النامية .

وقد وضعت حداً لكل محاولات دول الجنوب لاستغلال مواردها الوطنية فى خدمة شعوبها عن طريق الانقلابات ، فى إيران مثلاً بسقوط نظام الرئيس موسى الصادق وعودة الشاه .

وقد عرف خطر القومية فى وسائل الإعلام ، فقد كان لنجاح الانقلاب الذى قامت به ال CIA (المخابرات المركزية الأمريكية) التى أسقطت النظام البرلمانى لموسى الصادق ، الرئيس الإيرانى المحافظ ، وعودة سلطة الشاه مما سمح لشركات البترول الأمريكية أن تستولى على (٤٠٪) من الامتيازات التى كانت ممنوحة للبريطانيين فى ذلك الوقت ، وقد علقت « نيويورك تايمز » على الحدث فى مقال افتتاحى قدم الحدث على أنه « خبر ممتاز » ولكنه مكلف « لكل الأطراف المعنية » الإيرانيين بالضرورة ، وأنه حدث حرى بأن نستخلص منه الدروس ، والدرس الأساسى يبدو كالتالى ، وتكمل نيويورك تايمز بكل صراحة ودون مواربة قائلة :

« إن الدول النامية التى تمتلك ثروات طبيعية هامة تحسن التصرف إذا تأملت هذا النموذج ، فلو أنهم اتبعوا من بينهم من يدعون إلى قومية جامحة ، فسوف يكلفونهم الكثير ، وهذه التجربة الإيرانية ، يمكن أن تردع أمثال موسى الصادق

---

(١) العالم الدبلوماسى « سرجى حليمى » أغسطس ١٩٨٩م) .

عن الاستيلاء على السلطة فى بلاد أخرى ، ولكنها تجربة تجعل الزعماء المستنيرين يتوجهون نحو الأشياء بعيدة المدى ويحسبون حساب أولوياتنا بتفكير مستنير » (المقال الإفتتاحى لنيويورك تايمز ، ٦ أغسطس ١٩٥٤م) .

هذا الإطار العام اعتمد فى مناطق خاصة ، وهكذا وحسب قول فريق التخطيط لسياسة مجلس الدولة ممثلاً فى « جورج كانن » فى عام (١٩٤٩م) ، فإن جنوب شرق آسيا مهمتها الأساسية هى توفير المواد الأولية وفتح سوق لليابان وأروبا الغربية ، وقد أدى هذا المنطق إلى التدخل الأمريكى المباشر فى أندونيسيا بدايةً لمساندة الاحتلال الفرنسى ، ثم بعد ذلك لإزاحته ، وكان يخشى مع استقلال ڤيتنام من انتشار عدوى الوطنية والقومية فى جميع أرجاء جنوب شرق آسيا .

وحيث لا يمكن السيطرة مباشرة على الشرطة والجيش كما حدث فى نيكارجوا بعد سوموزا أو فى بنما ، فإنه من الضرورى قلب نظام الحكم ، وإقامة نظام أكثر مرونة ، وإعادة « الجيش الملائم » على طريقة الحرس الوطنى لسوموزا الذى كان لفترة طويلة أحد الحلول المفضلة للولايات المتحدة C I A مكتب المخابرات المتبادلة ١٣مايو ١٩٦٥م OCI رقم ١٨٠٣ ، ٦٥) .

وقد غيرت دراسات الكليات العسكرية أهدافها الرئيسية ، وهكذا فقد أعلنت الكلية الحربية البحرية أن دراسة استراتيجيات الحرب سوف تؤكد على أهمية الحرب البرية ، والإرهاب و أزمات « ضعف المركزية » مثل غزو بنما ، وهناك نوعٍ آخر من الصراع هو « المركزيةالمتوسطة » مع الأعداء بالعالم الثالث ، وهى تتطلب اهتماماً خاصاً إذا ما اعتبرنا « توسيع السلطة ، فى مناطق أخرى وتوسيع الأسواق وزيادة المواد الأولية البعيدة . « السيناتور وليم كوهين » ، لجنة القوات المسلحة (مايكل كلار : القوات الأمريكية تواجه الجنوب « الأمة » أول يونية ١٩٩٠م).

ونفس القضايا طرحها رئيس أركان القوات البحرية أ . م جربى ، فقد أعلن

---

(١) (ملخص سريع PPS ١٥ أبريل ١٩٤٩م - مأخوذ عن مايكل شالر « تأمين الصليب الأحمر » صحيفة التاريخ الأمريكى سبتمبر ١٩٨٢م) .

أن نهاية الحرب الباردة سوف تغير فقط توجيه سياستنا الأمنية إلى الخارج ، ولكن دون أن نغير أساسياتها ، فصراع الشمال والجنوب هو خط مرسوم وأساسى ويجب علينا أن نواصل اختراقنا دون عقبات إلى أسواق العالم الإقتصادية كلها وإلى الموارد اللازمة لاحتياجاتنا الصناعية ، ويجب علينا إذا أن نمتلك قوة معتمدة وقدرة على التدخل المسلح « بقوات غازية » قادرة على تنفيد سريع لمهام تذهب إلى حد الحرب النفسية مروراً بكل أشكال القوة ، كما أننا يجب أيضاً أن نحافظ على روح التنمية الفنية السريعة للأسلحة التى يمكن للسلطات المحلية بالعالم الثالث أن يعتمدوا عليها ، ويجب علينا إذاً أن نطور كفاءتنا العسكرية التى تهدف إلى استغلال إمكانيات التقدم الالكترونى والوراثى وبقية أفرع البيوتكنيك . . . هذا إذا كانت أمتنا تريد أن تؤكد مصداقيتها خلال القرن القادم (جريى « جريدة القوات البحرية » مايو ١٩٩٠م) .

وقد أوضح المؤرخ « ريتشارد إيمرمان » أنه بالنسبة له فإن القوة والأمن الأمريكين يعتمدان بشكل أساسى على الهيمنة على الأسواق والمواد الأولية فى العالم الثالث على وجه الخصوص ، ذلك الذى يجب أن نتحكم فيه بشكل صارم (إيمرمان «التاريخ الدبلوماسى » صيف ١٩٩٠م) .

وقد تأكدت الإرادة السياسية للهيمنة العالمية بكثير من الوقاحة بعد تدمير العراق وهناك وثيقتان صريحتان صادرتان من البنتاجون الأولى بإشراف « باول . د ڤولفوڤيتش » والثانية بإشراف الأميرال « چيرميا » نائب رئيس لجنة أركان الحرب وننقل منهما أربعة نقاط :

* « النظام العالمى فى مبدأه نظام تضمنه الولايات المتحدة » وهى « يجب أن تكون على أهبة التصرف بشكل منفرد إذا لم يتسنى إيجاد تصرف جماعى أو فى حالة الأزمات التي تتطلب تصرفاً سريعاً » .

* يجب أن نتصرف بغية إعاقة ظهور نظام أمنى أوربى يمكن أن يهدم حلف شمال الأطلسى .

* ادخال ألمانيا واليابان فى نظام أمنى شامل تقوده الولايات المتحدة .

* اقناع الغرماء المحتملين أنهم ليسوا بحاجة إلى أن يأملوا فى لعب دور أكبر من هذا حتى يصلوا إلى ذلك كان يجب أن يظل وضع القوة الوحيدة المتميزة «مستمراً بفضل سلوك بناء وقوة عسكرية كافية لردع أى أمة أو مجموعة أمم تهدد تميز الولايات المتحدة وهى يجب أن تأخذ بعين الاعتبار مصالح الدول الصناعية المتقدمة حتى لا تثنيها عن مناهضة القيادة الأمريكية أو مناقشة الوضع الإقتصادى السياسى القائم . (نقلاً عن « بول مارى دولاجورش» (مدير مجلة الدفاع القومى) ، وفى العالم الدبلوماسى أبريل ١٩٩٢م) .

وهذه الهيمنة قد بدأت بسلسلة من حروب الإبادة ، مثل تلك التى تعرض لها الهنود الحمر فى أمريكا والتى اتبعوها بحملات الاستعباد والتفرقة العنصرية ضد السود ثم حماية الأنظمة الديكتاتورية الدامية فى أمريكا اللاتينية ثم فى العالم أجمع مثل نظام « موبوتو » فى أفريقيا ، حتى ماركوس فى الفلبين وإنتهاء بالفزع الأكبر الذى يشبه يوم القيامة فى هيروشيما ، والمذابح فى العراق ، تلك التدخلات المباشرة أو بصحبة الحلفاء كلفت الإنسانية الكثير والكثير من الأرواح أكثر مما تكلفته عبر التاريخ .

وحتى لا نذكر إلا بعض الحلقات الحديثة من هذا المسلسل نقول :

أربع (٤) ملايين قتلى فى ڤيتنام ، (٢٠٠٠٠٠) قتلى فى تيمور الشرقية بمساندة الولايات المتحدة ، (٢٠٠٠٠٠) فى أمريكا اللاتينية بمساعدة عملائها ، (٢٠٠٠٠٠) فى لبنان دون أية عقوبات ، وذلك بفضل الڤيتو الأمريكى ، مئات الآلاف فى أمريكا الوسطى ، وهذه لا تعدو أن تكون أمثلة من ضمن حوادث أخرى كثيرة . حتى أكثر الصحفيين الأمريكين جدية ، حينما يقومون بعمل إحصاء لمحصلة هذه الجرائم يخلطون فى حساباتهم بين الدولارات والموتى .

فمثلاً هذا خطاب من « هوج سدنى » من مجلة التايمز إلى « رونالد ريجان » حول قضية « نيكارجوا » إن محصلة حرب نيكارجوا تبدوا أقوى مما تبحث عنه أمريكا منذ فترة طويلة فى سعيها من أجل الدفاع عن الحرية فهناك القليل من الخسائر فى الجانب الأمريكى فقط (٣٠٠) مليون دولادر كمساعدة لمتمردى

الكونترا و (١,٣) مليون دولار من أجل الحرب الاقتصادية ويواصل « سدنى » حديثه قائلاً : « فإذا قارنا ما حدث بمشكلة ڤيتنام فسنجد أن هناك (٥٨) ألف أمريكى قتلى و(١٥٠)مليار دولار نفقات، وأمة تتجرع كأس المرارة وفشل مروع».

وحول هذه النقطة « التى اتضحت على نطاق واسع منذ غزو كوريا والعراق والصومال وأطراف أخرى » كتب وزير الدولة « دن آكون » محبذاً هذا الرأى يقول : « إذا كانت سياستنا الحالية تتشكل من آمال بالاحتفاظ « بتايوان » فإنها يجب أن تخفى بعناية رغبتها فى فصل الجزيرة عن القارة الأم ، وإذا تحتم علينا أن نتدخل عسكرياً فليكن ذلك بمساعدة الأمم المتحدة مع اظهار النية فى أننا نساند الطلب الشرعى للتيوانين للحصول على الحكم الذاتى » (نقلاً عن « بروس كامنجى » . . « العقوبات فى جنوب شرق أسيا » (صحيفة السياسة الدولية شتاء ١٩٨٧م-١٩٨٨م) .

وحتى يُسْكتوا أى صوت للمعارضة وبطريقة فعالة ، ومن أى جهة أتى فقد جعلوا من القديسين سرايا الموت . ففى نوفمبر (١٩٨٩م) . وصف الأب «إجناسيوا » الأكوريا رئيس الجامعة اليسوعية المغتال ، السلفادور بأنها واقع ممزق مثخن بالجراح التى أصابته فى مقتل ، ولأنه كان قريباً من المطران روماريو ، فإنه كان معه عندما كتب إلى الرئيس كارتر يناشده عبثاً إيقاف المساعدة عن المتمردين العسكريين . وقد أبلغ المطران الأب إلاكوريا أن خطابه كان مدفوعًا بالمفهوم الجديد للحرب الخاصة التى تهدف إلى القضاء وبطريقة حاسمة على كل محاولة للتنظيم الشعبى بحجة القضاء على الشيوعية أو الإرهاب . . » والحرب الخاصة التى تسمى إصطلاحاً البعث المضاد هى صراع مع المركزية الضعيفة أو أى نهضة من نفس النوع ، وليست هذه الحرب إلا إرهاباً عالمياً ومنذ زمن طويل والسياسة الأمريكية تعد سلاحها فى الترسانة المستعملة فى المشاريع الإجتماعية السياسية فى أقصى اتساعها [١] .

---

(١) (الأكوريا : الولايات المتحدة تفحص الدكتوراه الممنوحة لروماريو ، مارس ١٩٨٥م، وأعيد طبعه فى صحيفة اليسوعيين فى نيكارجوا المعروفة باسم أنبيو Ennvio ، يناير ١٩٩٠) .

وبالفعل وفى مارس (١٩٨٠م) اغتيل السيد روماريو مطران سان سلفادور بينما كان يقيم القداس فى كاتدرائية ، والذى كان مثالاً دائمًا للفضيلة قتل فى ظل مبادىء الديمقراطية الأمريكية التى تفرض الصمت على كل ألوان المعارضة .

وهكذا لم يندهش أى شخص من أن المطران روماريو قد اغتيل فى أعقاب التماسه من الرئيس كارتر سحب مساعدته للمتمردين العسكريين ، حيث توقع الجميع أنه استخدم هذه المساندة من أجل تقوية الظلم والإضطهاد ضد التنظيمات الشعبية التى تكافح من أجل احترام حقوق الإنسان الأساسية .

وكان المطران قد وضع يده على المشكلة التى يجب أن تثار بعيداً عن المواربات والتلميحات الغامضة التى تهدف إلى إخفاء الحقائق . وكانت مطالبة بضمان عدم تدخل الحكومة الأمريكية بشكل مباشر أو غير مباشر عن طريق الضغوط الاقتصادية أو الدبلوماسية أو أى جهود أخرى مما قد يعرض مصير الشعب السلفادورى للخطر ، هذه المطالبة استقبلت بوعد أن هذه المساعدة للمتمردين العسكرين سيعاد تقييمها إذا أثبتت الأدلة أنها يساء استخدامها وتنحرف عما وضعت له من أغراض ، واغتيل المطران ، ودمرت قوات الأمن المنظمات الشعبية مرتكبة فظائع بشعة مثل مذابح « ريوسامبول » التى مرت أمام سكوت وصمت وسائل الإعلام .

وقد اتضح استمرار السياسة الأمريكية فى سياق تقرير حول معركة «أتلاكتل» حيث درب الجنود على إطاعة أوامر ضباطهم الذين عهدوا إليهم بمهمة اغتيال اليسوعيين رابطى الجأش ، وقد كتب ذلك « أمريكاس وتسن » فى مقال بمناسبة الذكرى العاشرة لاغتيال المطران روماريو ، وتستعرض الصحيفة الأحداث العظيمة لهذه النخبة التى أوجدتها ودربتها ونظمتها الولايات المتحدة ، وقد وصفهم أحد أساتذة مدرسة أمريكا العسكرية فى ولاية چورچيا قائلاً : أن هؤلاء الجنود هم أوغاد من نوع خاص ، لقد كان تعليم هؤلاء الجنود كيف يأسرون أصعب من تعليمهم كيف يقطعون الآذان وفى ديسمبر (١٩٨١م) أخذت المعركة جانباً آخر تمت من خلاله عملية قتل وإبادة مئات المدنيين واغتصاب ممتلكاتهم ، وحسب مصادر هيئة المساعدة الكنسية فإن القتلى قاربوا الألف ، ثم بعد ذلك استلزم الأمر

قصف القرى وموت مئات المدنيين معظمهم من الأطفال والعجزة والنساء الذين قتلوا نتيجة القصف العشوائى . وهذا باختصار ما تمخضت عنه الحرب الخاصة فى السلفادور منذ أول عملية إنزال عسكرية فى مايو (١٩٨٠م) حيث قتل وجرح أكثر من ستمائة مدنى فى « ريوسامبول » فى عملية مشتركة بين الجيوش السلفادورى والهندوروسى : ومذبحة أخرى كشفت عنها الكنيسة قام بها الذين يدعون الدفاع عن حقوق الإنسان ومعهم الصحافة الغربية ، أما عن وسائل الإعلام الأمريكية فإنها لم تحرك ساكناً حيث كانت تشارك فى الحرب النفسية تنفيذاً لدور رسم لها، وقد أكدت اللجان القضائية لحقوق الإنسان فى خطاب إلى وزير الدفاع «تشينى» أن قتلة اليسوعيين دربتهم القوات الأمريكية الخاصة ، وظلت تدربهم حتى قبل اغتيال المطران بثلاثة أيام ، ويذهب الأب « چون دوكورتيا » عميد العلوم بالجامعة اليسوعية بسلفادور التى قتل فيها القساوسة أبعد من ذلك حين يؤكد أن الجنود الأمريكين مكثوا لعدة أيام بعد ذلك فى فندق بسان سلفادور فيما عدا حادثاً مثيراً للجدل ، وأن المعلمين الأمريكين العسكريين هم الذين قاموا بكل عملية الاغتيالات .

ومنذ عدة سنوات حدثت مذابح « اتلاكتل » بعد تدريبات الولايات المتحدة «تقرير اللجنة القضائية خطاب فى ٢٠ أبريل إلى وزير الدفاع « دك تشينى » «السلفادور على خط المواجهة » وانظر أيضاً « الكسندر كوكبرن » « الأمة » ١٤ مايو ١٩٩٠م ، والأب دوكدرتيا CAPE CADDR « أورليان م . أ ، مايو ١٩٩٠م) .

* * *

بعد أن استعرضنا تاريخ الولايات المتحدة من أعمال القتل والإبادة التى صاحبت ظهورها حتى السنوات الأخيرة ، فإنه من الضرورى أن نعمل حساباً ختامياً لما اصطلح على تسميته « الديمقراطية الأمريكية » وأن نميط اللثام عن تلك الأوهام والأكاذيب عن نوع تلك « الحرية » التى تعتبرها أمريكا كضمان للتدخل فى العالم أجمع .

أولاً : إن أهم ما تتصف به الولايات المتحدة من الداخل هو « عدم المساواة فى الثروات والتى تنتشر بشكل سريع ، وتبعها عدم المساواة فى السلطات .

ففى عام (١٩٠٠م) كان هناك بالفعل $\frac{١}{٨}$ العائلات الأمريكية يمتلكون $\frac{٧}{٨}$ الثروة القومية [١] . وفى بداية القرن العشرين وصف « چيمس تروسلو أدمز » تحت عنوان « عصر الديناصورات » التحكم الوحشى لعمالقة البنوك والصناعة بما يذكرنا بالوحوش التى عرضت حديثاً فى أفلام سينمائية قصد منها ترويع العالم الذى بدأ يخطو أولى خطواته على طريق التنمية .

وما فتئت هذه الألوان من التفرقة تتنامى :

حسب تقارير البنك الدولى من (١٩٨٠م إلى ١٩٨٨م) فإن معدل الثروات التى تملكها الدول الفقيرة والفقيرة جداً انخفض من (٢٣٪ إلى ٨٪) ، كما أوضح تقدير (١٩٩٠م) إن الثروات المنقولة (١٩٨٩م) من الدول النامية إلى الدول الصناعية سجلت معدلاً كبيراً فقد تخطى معدل بيع الدين (٤٢,٩ مليار دولار بينما سجلت الاستثمارات ، ونقل رؤس الأموال زيارة قدرها ٣مليار دولار مقارنة بعام (١٩٨٨م) بينما هبط معدل رووس الأموال المنقولة من الدول الغنية إلى الدول الفقيرة إلى أدنى معدل له فى خلال العشر سنوات الأخيرة . . [٢] .

وأما عن نتائج ذلك فيوضحها الصحفى « ديريك چاكسون » من مجلة «بوسطن جلوب » حيث لاحظ أن اليونسيف وضعت سويسرا فى المرتبة الأولى من حيث دخل الفرد متقدمة على الولايات المتحدة التى جاءت فى المرتبة الثانية ولكن الولايات المتحدة تأتى فى المرتبة الثانية والعشرين فيما يتعلق بمعدل وفيات الأطفال أى بعد إيرلندا وأسبانيا ، بينما كانت فى المرتبة العاشرة عام (١٩٦٠م) وأما عن الأمريكان من أصل إفريقى فقد تضاعف معدل الوفيات بالقياس إلى المتوسط القومى ، وفى مدينة « بوسطن » فى حى « روكسبارى » المزدحم بالسكان والأقليات العرقية فقد وصل إلى ثلاثة أضعاف معدل الوفيات القومى مما يجعل حى « روكسبارى » وهو حى ينتمى إلى أغنى الأمم بعد سويسرا فى المرتبة الثانية والأربعين فيما يتعلق بمعدل وفيات الأطفال .

---

(١) (أندريه يهودا – الولايات المتحدة الأمريكية ط . دولاسيك ص ١٧) .

(٢) (البنك الدولى ١٩٩٠م) .

وفى دراسة أعدها الكونجرس ونشرت فى مارس (١٩٨٩م) اتضح أن خمس السكان من الفقراء وجد أن دخولهم منخفضة بمقدار (٦٪) من عام (١٩٧٩م إلى ١٩٨٧م) بينما زادت أرباح الخمس الأكثر غنى بمعدل (١١٪) ، وهذه الاحصائيات تضع فى اعتبارها التضخم كما تدرج أيضاً الأموال التى يستقطعها الضمان الإجتماعى ، فأما بالنسبة لخمس السكان الأكثر فقراً فقد انخفضت دخولهم الشخصية حوالى (٩,٨٪) بينما ارتفعت دخول خمس السكان الأكثر غنى حوالى (١٥,٦٪) .

ويعترف نفس التقرير بهذه التفرقة العنصرية الاقتصادية بقوله : « إن الهوة بين الأمريكان الأغنياء والفقراء اتسعت خلال حقبة الثمانينات حيث أصبح (٢,٥) مليون مليونير يمتلكون فعلياً ما يمتكله (١٠٠) مليون شخص من الذين فى ذيل السلم الإجتماعى (مكتب الميزانية بالكونجرس ١٩٨٩م) .

وفى عام (١٩٩٦) أوضح رئيس برنامج الأمم المتحدة للتنمية « السيد چيمس جوستاف سميث » فى مقابله مع صحيفة « لوموند » أن الهوة بين الدول الغنية والعالم الثالث تزداد عمقاً ، وأعلن تنكره لأسطورتين وهما أن العالم الثالث يمكن أن يستفيد من ازدياد الثروات فى الدول الغنية ، والثانية أن القطاع الخاص يعتبر هو الحل المعجزة لمشاكل التنمية .

هناك أسطورة أولى يجب محاربتها ، كما أوضح سميث ، وهى أن العالم النامى سيتحسن حاله بفضل ازدياد ثروة العالم تحت إمرة خمس عشرة دولة من الديناصورات ، ويواصل حديثه قائلاً : « فى الحقيقة إن دخل الفرد فى ما يقرب من مائة من الدول اليوم أقل مما كان عليه منذ خمس عشرة عاماً ، كما أنه من الواضح أن هناك (١,٦) مليار فرد يعيشون فى ظل ظروف أسوأ مما كانوا عليه فى بداية الثمانينات » ، وفى مدة حوالى جيل ونصف اتسعت الهوة كما يقول سميث بين الدول الأكثر غنى والأكثر فقراً ، ففى بداية الستينات كانت بين ال (٢٠٪) الأكثر غنى فى العالم ، وال (٢٠٪) الأكثر فقراً نسبة(١ إلى ٣٠) ، أما اليوم فإن النسبة (١ إلى ٦٠) بينما ارتفعت الثروة العامة بشكل ملحوظ .

كما أن العالم ضحية أسطورة أخرى خطيرة جداً وهى : « الاعتقاد أن القطاع

الخاص يشكل طوق النجاة العالمى » فلا يمكن أن ننتظر من الاستثمارات الخاصة أكثر من تكدس الأموال وتبادلها وذلك يقود بطبعه إلى « عالم متوازن » حيث لا علاقة مشتركة بين حاجات الدول والاستثمارات الأجنبية المباشرة فى هذه الدول فكلمات خصخصة وتحرير وتنظيم تلك الكلمات التى تنظر للتحرر الاقتصادى فى نهاية هذا القرن تشجع الازدياد ولكنه « ازدياد مصحوب بفقر مدقع وتفرقة ملحوظة وبطالة فى أعلى معدلاتها » .

وفى الجامعات ذات المستويات الأعلى يسود قانون السوق ، فالطالب يكلف أسرته ما بين (١٠٠٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠٠) فرنك سنوياً كتكلفة للتعليم فقط أما بالنسبة للتعليم لدى طوائف الشعب « فإن نظام التعليم الأمريكى منحدر وهذا ما انتهى إليه تقرير المتخصصين بجامعة كولومبيا [1] . وهناك (٤٠٪) من الشباب الأمريكى الذى التحق بالمدارس يعترفون أنهم لا يحسنون القراءة بشكل صحيح ، كما أن هناك (٢٣) مليون من البالغين أميون .

أما فى مجال الصحة فرغم أن الولايات المتحدة تمتلك عيادات ومستشفيات ومراكز أبحاث من أفضل الموجود فى العالم ، إلا أن نظامها الصحى ينذر بكارثة ففى مجال معدل وفيات الأطفال تأتى فى المرتبة الثانية والعشرين عالمياً ، كما أن معدل النفقات العامة فى مجال الصحة أقل بكثير مما عليه فى الدول الغنية . كما أن التفرقة تؤدى إلى الغش والرشوة والفساد ، وتقدر مباحث الأموال الأمريكية أن (٢٠٪) من الضرائب الفيدرالية لا تسدد ، وهى التى بلغت عام (١٩٨٩م) حوالى (١٠٠) مليار دولار ، إن الانحلال ينخر فى قلب النظام نفسه : ففى مدة عشر سنوات من (١٩٨٠م إلى ١٩٩٠م) ارتفع معدل القضاة الذين أدينوا بالرشوة والفساد إلى عدد أكبر من الذين أدينوا فى أول (١٩٠) سنة من تاريخ الولايات المتحدة .

إن المكانة المتميزة للأغنياء تؤدى بهم إلى تقلد السلطة - ويؤكد « چون چى » رئيس الكونجرس المحلى وأول رئيس للمحكمة العليا فى الولايات المتحدة أن «الذين يملكون البلاد هم الذين يجب أن يحكموها » ولقد وجد النظام السياسى مثله فى ذلك مثل النظام الاجتماعى لنجد مصالح الطبقات التى تحتكر الملكية .

وحتى السياسة التى من المفروض أن تنظم شئون المدينة دخلت أيضاً فى دوامة

---

(١) (الاقتصاد العالمى ١٩٩٠) .

التسويق : فكل مهمة فيها لها ثمنها . ولذلك فإن الإنتخابات الأمريكية المحلية لاختيار أعضاء مجلس الشيوخ ومجلس النواب عام (١٩٨٨م) تطلبت ميزانية للدعاية قدرت بـ (٥٠٠) مليون دولار (أى عشرة أضعاف ما أنفق عام ١٩٧١م).

ومن تلك التناقضات بين الرخاء الذى يعيش فيه البعض والفقر الذى يعانيه الباقون نشأ العنف المنظم الذى لا يمكن ضبطه ، ظهر فى صورة انفجارات متفرقة فى أحياء وضواحى الولايات المتحدة وهذه الانفجارات تعد تجسيداً لهذا العنف المنظم ، ففى نيويورك وطبقا لإحصاءات الشرطة ، يحدث فى المتوسط جريمة اغتيال كل أربع ساعات ، وجريمة اغتصاب كل ثلاث ساعات . وترتكب جريمة بمعدل كل ثلاثين ثانية ، ورغم ذلك فإن نيويورك ما زالت فى المركز العاشر بين المدن الأمريكية فى معدلات الجريمة ، وفى عام (١٩٨٩م) اغتيل (٢١٠٠٠) فى الولايات المتحدة كلها ، وأودع أكثر من مليون أمريكى فى السجون ، وأكثر من ثلاثة ملايين تحت المراقبة القضائية .

وهذه هى نتيجة الاقتصاد المتوحش اقتصاد السوق حيث يسود كما كتب «هوبز» فى مطلع الرأسمالية « حرب الكل ضد الكل . . . إن منطق السوق الذى يحطم كل القيود مصحوباً بتنافس الأفراد والجماعات الذين لا يهدفون إلا إلى مصلحتهم الخاصة هو منطق الحرب .

إن الأزمة التركيبية للعالم الثالث تبدو عميقة بصورة خاصة فى أمريكا اللاتينية فقد بدأ التدخل الشديد للولايات المتحدة فى أمريكا الوسطى منذ (١٩٧٩م) وكان نتيجة لاستراتيجية التنمية القائمة على الزراعة الموجهة للتصدير : ولذلك فقد نقلت وعدلت من وضع السكان الريفين وعلاقة الفلاحين بالأرض ، وقامت بالقضاء على التجمعات التقليدية ولم تقم مكانها أى تنظيم ثابت أو قابل للمعيشة، وكان تمدين أمريكا اللاتينية (٤٩٪) يسكنون المدن إلى (٧٠٪) عام (١٩٨٩م) وبقية العالم الثالث بعكس الفقر الريفى المتصاعد الذى انتقل إلى المدن المزدحمة بالسكان حيث السكان المهمشين ، ومنذ نهاية حقبة السبعينيات التى كانت تتسم بأزمة الديون وانخفاض معدلات تبادل المنتجات غير المتعلقة بالطاقة وما فتىء عدم الاستقرار يعم العالم أجمع [١] .

---

(١) (تقرير البنك الأمريكى للتنمية - واشنطن ١٩٩٠م) .

وفى عام (١٩٨٨م) دفع دول العالم الثالث المدينة كفوائد وتسديد لبعض الديون حوالى (٥٠) مليار دولار أكثر مما حصلوا عليه .

هل بعد هذه الجرائم وأعمال القرصنة يمكن أن نتهم الذين يتنكرون لأمريكا بأنهم ذوى نزعة « مناهضة لأمريكا Antiamricanisme ؟ نعم ، ولكن بشرط أن نعتبر أن تلك النزعة تبدأ منذ رفض الخضوع لأمريكا (١) . وهذه هى السياسة المشتركة للحزبين الرسميين فى أمريكا .

فى الحقيقة إن الولايات المتحدة تضرب أوضح مثال على حكم الحزب الواحد، وهو حزب رجال الأعمال بشقيه « الجمهورى » و « الديمقراطى » وهما الحزبان اللذان بعيداً عن اللعبة الساخرة « الحمار » و « الفيل » ليس لهما مشاريع إنسانية مختلفة أو بدقة أكثر ليس لها مشروع على الإطلاق إلا ازدياد معدلات الاستهلاك والإنتاج فى بلادهم بلا نهاية ، والاستفادة من نفقات الآخرين كما أعلنوا ذلك بلا مواربة .

إن تدمير العالم من أجل احتياجات الاقتصاد الأمريكى بدأ بالطبع فى أمريكا اللاتينية ، واليوم يجب أن نعلم فى الترتيب العالمى ما إذا كانت أية أمة ستصبح «بورتوريكو » جديدة دون مشروع إنسانى آخر غير مشروع الولايات المتحدة والتنكر للخضوع لها ، وهذا يبدوا واضحاً مع التفسخ فى أوربا نفسها فى الاقتصاديات وفى السياسات وفى الثقافات . بما فى ذلك مثلاً حالة إنجلترا وفرنسا وأسبانيا وإيطاليا ودول أخرى وكلهم من الموقعين على معاهدة ماسترخت التى جعلت من أوربا « الأساس الأوربى لحلف الأطلنطى » وهذا شكّل منها جنوداً إضافية فى العراق والصومال .

وكل هؤلاء ساهموا فى اتفاقية الجات [التى تغير اسمها إلى المنظمة العالمية للتجارة] . والبنك الدولي وصندوق النقد الدولى التى تفرض مثلاً على دول العالم الثالث التبعية السياسية والبؤس لدفع ديونها ولكنها تقبل دون أدنى اعتراض سياسة الأمر المفروض dikdats من أكثر الدول ديوناً فى العالم وهى الولايات المتحدة.

إلى متى سيقبل العالم سيطرة ذلك البلد الذى تبلغ فيه معدلات الجريمة أقصى الحدود ، حيث قررت المحكمة العليا فى يونية (١٩٨٩م) أنه يمكن الحكم بالإعدام

---

(١) (كريستيان دوبرى « الأكسبريس » ٧ فبراير ١٩٩١م) .

وإعدام الأطفال أقل من (١٦) سنة ، وقد طبق هذا فى (٢٤) ولاية حيث أعدم حوالى (١٨٢) شخصاً بالصعق الكهربائى وشنقًا وبالتعرض للغاز ، ومنذ عام (١٩٧٦م) كما أن هناك (٢٥٠٠) شخصاً محكوم عليهم بالإعدام ينتظرون فى زنزاناتهم تنفيد حكم الإعدام .

ولكن الأسوأ من ذلك فى تلك الفترة التى تلعب فيها وسائل الإعلام (وخاصة التليفزيون والخطوط الالكترونية) دوراً بارزاً فى تشكيل الرأى العام ، هو الغزو من نوع « الثوب الجاهز » ثقافياً مسيطراً على العالم وهادماً للثقافات .

ومسلسلات دالاس ومادونا وشوارزنجر والديناصورات والمدمر ويوم الاستقلال وروشبنرج ورسوم كوننج والرسوم المتحركة الأمريكية ومثيلاتها اليابانية الذين لم يعدوا « بلانش بنج » ولكن « بوبى دونالد » والصخور المستديرة كل هذه اجتاحت ڤينسيا بقناطير من الأقذار والمواءات والأشرطة وقرع الطبول والصخور كل هذه الأشياء أغرقت بلا حياء الشاشات والمدارس حتى جعلتنا ننسى شباب رابليه وسرڤانتس وشكسبير ونيتشة وديستوفسكى .

وقد أصبح ماكدونالد والكوكاكولا وديزنى لاند والأندية الليلة رموزاً لا معنى لها ورموزًا للشكل الموحد فى العالم الذى أوجد الدما بيانا أو مسرح نوح والرقص الإفريقى الأصلى أو الأمريكى الهندى وملاحم جلجامش أو قصائد رامبوا. فهل تعنى المعاصرة النسيان والاحتكار والجهل والصبيانية لحساب ألوان الأمية الثقافية وإنعدام الثقافية الموجهة من خلال وسائل الإعلام ؟

هل سنقبل أن يكون كبار دعاة توحيد السوق وعبادة المال والأولاد الذهبيين golden boys الذين بهتوا سريعاً فى الولايات المتحدة ، هل نقبل أن يصبح هؤلاء طليعة الإنهيار ؟ هذه الحالة الفكرية لا تظهر اليوم فقط بسبب هذه الأرض الواسعة والغنية وحربى أوربا « الحرب العالمية الأولى والثانية » اللتين أسالتا قناطير الذهب نحو أمريكا عبر الأطلنطى وأثرتا على الطبقة الأمريكية الحاكمة ، وليس فقط بسبب الفردية التى بلا حدود . ولكنها تتضح من أنها أصبحت تطفو فوق السطح بكل الوسائل : باستغلال العالم ، لأن المذابح التى حدثت فى الماضى وطرد الهنود الحمر لم يكن كافياً ، بل إن هذه الحالة ترجمت بأن أصبحت

الولايات المتحدة أغنى بلاد العالم ، هى أكثر الدول ديوناً ، حيث يبلغ الدين العام عليها (٣٠٠) مليون دولار ومثلها ديون خاصة أى ما يقرب من ثلاثة أضعاف ديون دول العالم الثالث مجتمعة .

والأكثر دلالة من ذلك هوالسلوك العام المتعلق بطرد الهنود وامتلاك الأسلحة الخاصة بما فيها الأسلحة الأوتوماتيكية (حيث يوجد أفراد يمتلكونها فى الولايات المتحدة) .

وأيضاً فى قطاع الشباب : حيث تسود الحيوانية فى العلاقات الإنسانية ويتضح ذلك فى عدد الشباب الذين يقتل بعضهم بعضاً بالأسلحة النارية .

ويصف التقرير الأخير لمنظمة الدفاع عن الأطفال وهى المنظمة الرئيسية لحماية الطفولة فى الولايات المتحدة ، يصف تقريرها عدد القتلى بالأسلحة النارية الذى يتزايد بشكل مستمر بين الأطفال والبالغين . فما بين عام (١٩٧٩م - ١٩٩١م) . قتل ما يقرب من (٥٠) ألف أمريكى أقل من (١٩) سنة و (٩) ألاف أقل من (١٤) سنة ، و(٤٠) ألف أعمارهم من (١٥-١٩) سنة قتلوا بالرصاص وفى حوادث سيارات وفى جرائم حدثت فى ظروف غامضة . وفى نفس الفترة زاد اعتقالات المتهمين فى جرائم قتل واغتيال فيمن تقل أعمارهم عن (١٩) سنة بنسبة (٩٣٪) كما يقول التقرير وهؤلاء هم أكثر الشباب الذين يقتلون أو يجرحون شباب آخر ، ولذلك فإن الإغتيال يأتى كسبب ثالث بعد الحوادث والسرطان فى أسباب الوفيات عند البالغين .

كما أن هناك تفرقة عنصرية اقتصادية حقيقية تقسم أمريكا إلى قسمين ففى بلدٍ لا يجد فيها طفل من كل ثمانية أطفال ما يشبع جوعته ويزداد فيها معدل وفيات الأطفال فى الأحياء الأكثر فقراً متخطين بذلك ما نلاحظه فى بلاد فقيرة مثل سيرلانكا وبنما وشيلى وجميكا .

وفى ظل مقر الشرطة نجد أحياء تئن تحت كل ألوان المشاكل الأهلية مثل العنف وجنح الأحداث والمراهقين والأقارب والبؤس وإنحدار مستوى المؤسسات التعليمية والخلل العام وقسوة المخدرات . من المؤكد أن واشنطن هى أحد أضخم البلاد فيما يخص ميزانية التأمين الصحى ، ولكن النظام الصحى فيها خاصة ألوان

الولادة السابقة لأوانها التى أصبحت شائعة خاصة بعد الشهر الأول لهو نظام يشهد بإنخفاض دعم الدولة للإعانات الإجتماعية فخلال النصف الثانى للشهر الأول يتحتم على الحوامل أن يواجهوا نوع آخر من المشاكل فلم يعد هناك نقود بالتالى لم يعد هناك ما يمكن أن يتغذوا عليه ، حتى أن باطن الأرض الذى يستفيد منه الحى بصفه عامة فى المشروع الصحى للأطفال أغار عليه الملاك (١) .

ويمارس هذا العنف المستمر فى هذه البلاد جميع ألوان تدميره حتى على مستوى أوقات فراغ الشباب .

وقد أنشأ الدكتور « ريلمان » فى عام (١٩٧٢م) مع أصدقائه فى « العيادات الحرة العليا فى أشيرى) أسس « مجانين الروك » وهى منظمة طبية مهمتها معالجة جوحى حفلات الروك فى أماكنهم - وقد كتب الدكتور ريلمان إلى سان چوزيه فى كاليفورنيا واصفاً هذا الحدث بقوله : « هز شباب لارش مقاعد إستاد كرة السلة بجامعة الولاية . وفى هذه الحفلة من حفلات « هارد روك » كانت ضربات الجيتار مثل ضربات المطارق ولم تكن الأرض سوى إعصار من الشباب يتصببون عرقاً ويحتكون ببعضهم البعض . وفى حجرة الكواليس يلبس ديفيد ريلمان زوجاً من القفازات الكاوتشوك ويبدأ فى فرز الجرحى فهذا شاب فى الحادية والعشرين من عمره عارى الجزع وبه علامات على إصابات جديدة فى جمجمته ، وذراعه مسلوخ نتيجة مواجهة - ويبدو أن إحدى عظام يده اليسرى مكسورة ، وهذا أيضاً شاب يرتدى تى شيرت من « المنظمة الفيدرالية للجنح » وبه جرح قطعى ينزف دماً فوق عينه اليسرى » .

ويعتبر د / ديف كما يقدم نفسه إلى مرضاه الجدد « دكتور روك » وحينما يحل الليل يكون تخصصه هو معالجة التالفين والمشوهين فى حفلات الروك ، وأغلب الأشياء المعتادة فى لياليه هى الأنوف المكسرة والكدمات والالتواءات . كما أن الجروح الخطيرة فى الرأس والكسور ليست أشياء نادرة (٢) .

وفى أوربا لا يؤدى هذا النوع من الموسيقى عادة إلى مثل تلك التجاوزات من

---

(١) (التضامن الجديد - الأعداد من ٤ : ١٢ أكتوبر ١٩٩٤م) .

(٢) المرجع السابق .

العنف . وشيئا فشيئا ، ومنذ أول حفلة روك فى « ودستوك » وحتى آخر عرض فى « بنك فلويد » فى ميدان « سان مارك » فى ڤينسيا ، تعرض المدينة فى اليوم التالى نفس العرض لمدينة تقذف بصناديق القمامة . وعلى أى حال فإننا لا ننسى « أمريكا الأخرى » وهى بلد « الميرسون » و « ثورو » و « چون برون » و «لنيكولن » الذى ثار ضد العبودية . ولكن ليست هذه هى أمريكا الأخرى التى تفرض وجهه نظرها : فلقد انسحب «ثورو » من هذا العالم حينما كتب « ولدن أو الحياة فى الغابة » ليستمد منه فى الطبيعة « عقداً مباشراً » مع الله كما كتب صديقه « إيمرسون » ، ولا ننسى أنه عاد إلى المدينة ليؤلف كتابه عن « العصيان المدنى » ذلك الكتاب الذى قال « غاندى » أنه استلهمه ، ولكن هؤلاء كانوا «هامشيين » أو متمردين : فلقد لجأ « ثورو » إلى داخل الغابة ، ثم رفض وهو فى المدينة أن يدفع الضريبة ، فلقد كان كما كتب هو « قد فقد الوطن » .

واستلهم « إيمرسون » حكمته فى كتب « باهجفد جتا » فى « الجانج » وليس فى « البوتوماك » . أما « لينكولن » فقد اغتيل على يد « المؤسسة » ولا ننسى السلالة السوداء العظيمة من « دى بوا » إلى « مارتن لوثر كنج » : هؤلاء الذين أظهروا لنا الوجه الجميل لأمريكا متألقة من الداخل فى بداية القرن العشرين مع نهضة « هارلم » .

كما لا ننسى « الشهود العظام » الذين عملوا كسينيمائين مثل « فورد » فى عمله « عناقيد الغضب » ولا هذا الذى تجرأ بتفصيل آليات المؤامرة التى اغتالت «كينيدى » وليس بعيداً ، ذلك السينمائى الذى أعاد إلى الأذهان مذبحة « وندنى» والتى قام فيها الجيش الأمريكى بسحق طائفة « سيو » .

ولكن الذى يغطى اليوم على هذه المجموعات من المعارض البطولية هى بعد «الوسترن » المتنكرين فى العرائس مائة سنة من حروب الإبادة ، وأفلام العنف والرعب ولكن لا نستطيع أن نقول شيئاً عن فلسفة الولايات المتحدة حيث يسكت النظام صيحة البشر بواسطة الفلسفة الوضعية والبراجماتية (النفعية) مستعيداً مشكلة العقيدة والغايات .

ولا يمكننا أن ننسى أكبر إسهام خلاق للراقصين الأمريكين بدءاً من « تيد شون »

و « روث سان دمينيس » إلى « مارثا جراهام » الذين جردوا هذا الفن حتى جعلوه ينطق بما قاله شكسبير وميشيل أنج في لغاتهم .

ولكن في عهد هؤلاء العباقرة ، كانت هوليود تفضل تعميم أسلوب « فردا استير » و « جنجر روجرز » ماحية في المستقبل كل خط العظماء .

ولنتذكر أخيراً الكُتَّاب « المرجومين » بدءً من « إدجاربو » الذى اضطر أن يهرب ليخرج من عالم يستحيل فيه الحياة إلى « جنات سطحية » وقصائد تلمع في الليل مثل الأصداف السوداء ، أو هؤلاء الذين يعكسون بقوة انهيار العالم الحقيقى مفككين القصائد مع « توماس ولف » أو مزعزعين الأسس والقواعد لحياة أصبحت فريسة للضجيج ، والهيجان نتيجة لحروبها وتفرقتها العنصرية مع « فلكنر» .

إننا لا ننسى أبداً من حملوا إلى البشرية شيئاً ولكننا أيضاً لا ننسى أى شيء عن الذين نزعوا منا تلك المبادىء خلال مائتى عام من « السعى نحو الذهب » مخربين القارات والأفكار ، إن شعباً بلا ماض لا يمكن أن يوجد فناً بلا جذور .

وفيما عدا بعض المنظمات التى ماتزال حية ، وفيما عدا فن الأمريكان الهنود حيث قامت أعظم انجازاتهم على السبائك التى استولى عليها الفاتحون الذين لم يقيموا إلا وزن الذهب ، من هذا الفن كان هناك « مايا - أنكا - استيك » Maya - inca , Azteque والأقدم من ذلك ، ولحسن الحظ فلقد تركوا شواهد من الأحجار على فنونهم المعمارية وتماثيلهم - إن بنائى أمريكا الوحيدين هم الذين شكلوا ثقافتها فيما مضى .

فكان إزدهار « الزرق blues » ثم أصحاب موسيقى الجاز من السود من ولاية «ليوزيانا » ثم ازدهار نهضة « هارلم » فى بداية هذا القرن مع شعراءها مثل أحدث مجموعات الفنانين الإيطالين حول « فرلنجتى » بولاية سان فرانسيسكو .

فيما عدا هذه المحاولات البطولية والتى يمكن أن نذكر منها أمثلة أخرى ، فإن القوة الاقتصادية للولايات المتحدة التى تتوق إلى الهيمنة الثقافية التى تمنحها مجداً وتبريراً لدورها أرادت أن تتفرد فى مواجهة أوربا تبغى الماضى والانقطاع عنه .

انقطاع مع الماضى الذى مثلت فيه أوربا النموذج فى أوقات افلاس مثلها الحقيقية ، إن أعظم تجديدات الثقافة الأوربية كانت التنظير للحاضر بتجاوز الماضى. وليس التجديد انقطاعاً ينشأ عنه تجديد حقيقى دون استلهام الماضى .

وهؤلاء الذين يحاولون بالمساومة والإرهاب الفكرى أن يحصلوا على موافقة على الأقل من جانب التجار والمقلدين على ألوان الفساد والزيغ التى تنطوى عليها دعواهم « للتحديث أو المعاصرة modernité تذكرنا برفض ألوان السخرية البرجوازية فى القرن الماضى من بدع الإنطباعيين ، ناسين أن كل ألوان الانقطاع مع الماضى كان لها نفس المصير من البؤس الذى وقع فيه « رمبرانت » حين توقف عن مدح الأغنياء من طوائف الفلندريين ، أو النسيان العلمانى عند « جريكو » الذى حينما لم يجد مكانه بين الفنانين الرسامين المحظين فى رابطة « عظماء أسبانيا » قضى على روائعه منسحباً إلى مدينة « طليطلة » .

وقامت ضد « مانيه » انتقادات « المؤسسة » هؤلاء الذين دقوا ناقوس الخطر لاشباع الرسام المجدد بكل ألوان السباب والإهانات ، وهذا « چيل كلارتى » فى كتابه « الفنان » يتحدث عن ذلك النموذج غير النبيل الذى لا أعرف أين هو وتتكلم ابنة « تيوفيل جوتيه » فى كتابها « استراحة بين المشهدين » عن « هذا النوع من الغوريللا الأنثوية » وينتهى « ادمون أبو » فى كتابه « الچورنال الصغير » بقوله : « السلام على السيد مانيه لقد كان الرجل مثار السخرية عادلاً مع لوحاته! » .

لقد نسوا أيضاً نسخ « ڤينوس دوربان » و « تتيان » التى عملها « مانيه » فى عام (١٨٥٦م) لصالح « مكاتب فلورنسا » قبل أن يحول الآلهة إلى عاهرة بلغة جديدة فى عمله المشهور « أوليمبيا » عام (١٨٦٣م) الذى أشعل حفيظة الإمبراطورة « أوچينى » .

لقد نسوا ما كان « ڤان جوخ » يدين به للمعلمين الفلندريين حين رسم لوحته «آكلى البطاطس » منزلاً الرسم من السماء إلى الأرض وكاشفاً لباريس مجموعة من الألوان تظهر فيها درجات ألوان السماء .

أما أعظم المجددين التكعيبين والذى من فرط قصر حياته نسى اسمه من جانب المعاصرين الذين يعد منهم « براك » و « بيكاسو » ذلك العظيم « خوان جريس » وهو رائد حقيقى لتلك التكعيبية التى لازمت كل الفن الماضى وهو الذى كتب «أن أهمية أى فنان تتوقف على ما يحمله فى داخله من الماضى » .

وكان « ماتيس » يرسم على طريقة « انجرس » و « بيكاسو » وأعاد إلى الأذهان بشكل سلس « بوسان » .

وكان رسم لوحة « غذاء على العشب » قد درس بعناية من جانب « رينوار » قبل أن يعرضها فى لوحته « حفلة حقلية » لچورچين » وأعلن عيد ميلاد فن الرسم الجديد .

وكان « ماتيس » و « ماركيه » قبل أن يكونوا المكتشفين الحقيقين كانوا قد تعلموا مهنتهم فى ورشة « جوستاف مورو » الذى لم يكن أقل سطحية فى إيضاحاته عن « ڤيكتورهوجو » من « بونا » فى لوحاته عن الوزراء أو « بورجو » فى ألعابه عن حوريات الماء .

ويلخص الرسام « بوڤيه » تحول « سوق الفن » بأنه « إن انعدام الثقافة فى الفن شىء ذو أساس فإذا كنت غير مثقف فإنك بالتالى طليعى » .

وليس من المفيد أن تتعلم ، أو ترسم ، أو تلون ، فالمهم هو أن تبدأ بتغير جديد (حتى ولو كنت فى الثانية من عمرك ، كما كان ready made المصنوعة سلفا عند « مارسيل دى شامب) كما لو كنا فى سوق من المغاسل حيث يسود التجديد ، فالمعايير مادية لاجمالية . إن المعيار الوحيد هو المخالفة والشذوذ الذى يمكن أن يجذب الزبائن المقلدين ولو ليوم واحد ، ويسمح بإدخال استراتيجية التبديد إلى « سوق الفن » التى تظهر على يد تاجر كان يحب بكل السبل أن تعلن شيخوخة الفن على الطريقة الأمريكية ، يجب أن نُعْلِمْ المشاركين أن يضعوا اللوحات فى سلة المهملات ، مثلها مثل السيارات والثلاجات حيث تأتى أشياء جديدة تحل محلها . (فومارولى : «الحالة الاقتصادية » ١٩٩١م) . إنه فقط حين تهوى قيم الماضى كما حدث مع حرب (١٩١٤م - ١٩١٨م) وهى أكثر الفترات الدموية عبثاً ، يحدث ظهور منتصرين ومغلوبين فى ثلث قرن من التأخر وبذر بذور الفاشية عن طريق السخرية من نفاق « أثارات الموتى » (١) . وقد افتتح السرياليون « مبوله عامة » فى قلب باريس وفى الجهة المقابلة من أوربا وذلك من أجل إظهار رمزيه انتحار الحضارة والموت وأنهم انعكاس لتلك الحضارة وعرض «مالڤيتش » لوحة تسمى مربع أبيض على قاع أبيض » .

---

(١) (فورمارولى - الحالة الاقتصادية ١٩٩١م) .

ومن هنا أعلنت الحرب وانهيار العالم وإنهيار أخلاقه ودينه وفنه وقد كتب فلامنك قائلاً « عند خروجي من الخدمة العسكرية ، تمردت على التقاليد الجامدة لمجتمع يخضع لقوانينه الفردية والأنانية ، وكانت لدى حاجة ماسة للتعبير عن أشكال التمرد هذه وتلك الحاجة كانت تدفعنى إلى الكتابة أوالرسم ، وكانت أقل صدمة وأقل تصادم يكفى لانفجار تلك المشاعر .

وكان الرسم بالنسبة لى متنفساً مثل خراج الجرح ، وبدون هذا الفن ، وبدون تلك الموهبة ، كنت سأنحرف ، والذى لم يكن من الممكن أن أعمله فى الحياة عن طريق إطلاق قنبلة كان يمكن أن يقودنى إلى المقصلة ، حاولت تحقيقه فى الفن والرسم .... واكتفيت هكذا برغبتى فى تدمير المعتقدات البالية والعصيان وذلك من أجل خلق عالم جديد .

وكان هذا هو « اللون الخالص » وحركه « الشقر » . وبعد عدةسنوات ، وبحجة دفع تلك المغامرة إلى نهايتها لم يأخذ « جاكسون بولوك » إلا المنظور التقنى وإلا هذه البدعة ، وطالما يجد ما يقوله مع اللغة الجديدة أكد أنه « ترك مكاناً بارزاً للصدفة » وعلى أسطحه موضوعة بشكل أفقى على الأرض ، أسال الرسام منهم على الرسم واضعاً فوقها علبا مخرمة .

وعندما استولى على هذا المنتج ، وتكلمت المعايير بشكل صارخ عن « المدرسة الجديدة » و « الإنطباعية التجريدية » والتقنية الجديدة ، تقنية التجفيف ، وهذه التسطيحات المزبدة وصلت إلى شواطىء مادية حمقاء .

وحتى يعطى فكرة عن مشاركة الفن فى لعبة « الفقاعة المادية » التى أنشأها البنك الأعلى والتى ربحت كل قطاعات الحياة الإجتماعية ، يعطينا « دوميك » فى كتابه « الفنان بلا فن » هذا المثال :فى عام (١٩٩١م) وفى المعرض العالمى الشهير « كريستس christies بلغ ثمن إحدى لوحات « كونج » أكثر اللوحات المشاركة تغطيه إعلامية مع « بولوك » و « مازروك » حوالى (٤٤,٨٨٠ . . .) فرنك ، ولوحة « لتيان » حوالى (٥٧,٢٥٢٠٠) فرنك ولوحة « مجركو » حوالى (١٢,١٠٦٩٢٠) فرنك ولوحة « كلاتور » (٤,٩٩٠ . . .) فرنك ،

ولوحتان « ليڤرونيز » الزولى (٦,٥٠٠٠٠٠) فرنك والثانية حوالى (٥,٤٧٦٠٠٠) ورسمان لبوسان ، الأول بمبلغ (١,٥٤٠٠٠٠) والثانى بمبلغ (١,٣٢٠٠٠٠) فرنك (١) .

وقد حدثت عملية مالية أخرى مكرسة « انتصار الفن الأمريكى » وهو عنوان كتاب « ساندلر » ط . كار (١٩٩٠م) وعندما كان « روشبرج » يحمل على «السوق الأوربى » ليخضعه لسوق نيويورك بواسطة التاجر « ليوكاستيلى » نجح مع عرض هذا النوع من العملية أن يحصل على « جائزة بنيالى ڤينسيا ١٩٤٦م» .

ويمكن أن نلخص تاريخ « فن البوب » المستورد كالتالى فى عام (١٩١٧م) أرسل الرسام الفرنسى « مارسيل دى شامب » فى نيويورك إلى جمعية الفنانين المستقلين نافورة (لقد كانت مبوله فى الحقيقة) وذلك كرد فعل لعبثية العالم : حيث كل شيء لا معنى له والفن فى المقام الأول . وكان هذا هو الأصل وفى عام (١٩١٩م) أظهرت حركة « دادا » فراغ وبطلان المجتمع . وكرر « دى شامب » نفس الجريمة بعجله دراجة موضوعة على مقعد لا ظهر له وحاملة أنية ومشط صدىء . . إلخ .

وقد وصل رد الفعل هذا ضد عبث الحرب والعالم إلى أقصى حدودها مع «روشنبرج » جوَّابها التجارى « ليوكاستيلى » وتفكك المجتمع الأمريكى اقتصاديا وكذلك الميلاد المبهر للأشياء سابقة التجهيز « ready made » ، وفن البوب التى استعملت كتجديد فى فترة السبعينات ، ولكنها لم تكن سوى « خدعة » لنكران زمن أطلقوا عليه « مدرسة » أو « نظام » .

وقد لصق « روشنبرج » عصفوراً محشواً بالقش على سطح وكذلك لصق ماعزاً بحجه العودة إلى الحياة بشكل سافر .

إن هذا التوريد إلى أوربا من الفن والمجتمع الأمريكى لم يكن له كتأثير أساسى سوى تغير شكل السينما التى أصبحت فى بعض استثناءاتها قريبة من الفن القائم على الصناعة . لقد حث هذا التأثير فى التدخل فى كل ألوان الحياة ومنها «ظهور التعقب للغرب western حتى الهندى الطيب (أصل أمريكا) قد مات أو

---

(١) (مراجعة موسم ١٩٩١م معرض كريستس) .

«الكولابو» الغاز حتى فى أفلام الرعب القائمة على تقنية الرعب و «المؤثرات الخاصة» أصبحت خاصية من خصائص «هوليود» والأكثر من ذلك أفلام العنف المصحوبة بمائة طلقة نارية فى الساعة تعكس تفكك الشعب والحضارة والفن .

وكانت الحركة التخريبية إحدى نتائج هذا التلوث الثقافى القادم من الولايات المتحدة طليعة الانهيار ، وكانت هذه الحركة التخريبية على مستوى الفنون الجميلة كما كانت الحالة مع «أعمدة» بارن فى «باليه رويال» (القصر الملكى) أو الكوبرى الجديد pont - Neuf بواسطة «كرشو» .

وقد بدأ فى (٢٣ سبتمبر ١٩٨٢م) بناء الكوبرى الجديد الذى كان يحتوى على (٤٣٠٠٠) متر مربع كسطح غير مرئى و (١١٠٠٠) متر من النسيج ، ولذلك فهو مشروع ذهبى . وكان شيقاً أيضاً : كما قال الكاتب «ڤيروكويس» : «أن تذهب إلى أثينا وتعجب بالبنتيون «مدفن العظماء» وتجده مخرماً» . وهذه الصورة التنكرية لم تكلف المساهمين الباريسيين سوى (١٩٠٠٠٠٠٠) فرنك.

لقد كان كرستو فى هذه النقطة قد فقد الثقة فى «بورن» الذى نجح فى نهب (٢٢٠٠٠٠٠٠) فرنك من أجل معرض البثرات لقطع خشبة العمودية المخططة فى ساحة الشرف فى القصر الملكى .

ومن الشمال إلى اليمين ، تضاعف منطق المناهض للثقافة بشكل مرن حيث جسدت باريس تحت التأثير المشحون بعدوى المنطق التجارى الأمريكى والمصالح المتضاربة للمشاريع المكلفة للأعمال .

* * *

لقد مارس الفن دائماً وظيفة أساسية فى الحضارات . فهو مرتبط عاطفياً بالحقيقة لكنه يلعب فيها دوره المحرك ، دور الإيمان حين يكون حقيقياً .

إنه يكشف للإنسان ملامحه هو أو ملامح العالم الذى لايمكن أن تحيط به نظرته المعتادة ، وعلى صعيد آخر ، فحتى لا نذكر إلا واحد من أكثر المشاهير أى من أكثر الذين تسلط عليهم الأضواء من بين المعدومين نذكر المثال المطابق بصورة أكثر وهو «أندى ورهوك» فإنه كان يزيد من الاقتباس من تقنيات الدعاية وهى موضة الطباعة الخشبية وهو يغير لون الأحبار فى لوحات مارلين مونرو المعروفة بالروبوت .

نحن هنا أمام نقائض الفن : فلا شيء فيه يخص الحقيقة سوى الفن نفسه ، ولكنه على العكس يتعلق بآليات الدعاية المتكررة حيث يغيب الإنسان ، وهو نفس الشئ بالنسبة للكوكاكولا أو محلات « ماكدونالد » .

بينما تجرأ بعض النقاد وقالوا : « إن الملك عارى » .

وعندما كرس له « مركز بوبور » (مركز چورچ بومبيدو فى باريس) معرضاً استعارياً يقال أنه سجل نسبة زائرين (٨٠٠٠٠٠) زائر مقتربًا من معدل محلات « الربيع » فى زمن عيد الميلاد .

وكل يسير بالعكس ، فكل ما غير هذا الفن الفارغ « الفن الحيوانى » كما تقول المجلات المتخصصة هو أن النقد يتكلم عن العمل أقل مما يتكلم عما يقصد صانعه ويعرف كيف يحشد له العناوين الصارخة مثل الدوَّامية Vorticisme أو البركية Orphisme ، أو جماعة « Corba » أو الفن الأنطولوچى .. إلخ ، بينما تعرض أمامنا عينة من مؤخرات الزجاجات أو مصانع السجاد أو شلات الخيط المعقدة بالصوف والحبال .

ولا يبحث أبداً عن النهضة ولكن عن التخدير، كما حدث فى صورة حفلة (١٣٠) ديسيميل (بينما كانت الأذن معتدى عليها طبيعياً بطول ٩٠ ديسيمل) . ودون الدخول فى نقاش حول المميزات الموسيقية ، فهناك لحن لشوبان عرض بكثافة معينة ينتج عنها نفس فتور الضمير والروح النقدية خاصة إذا أضفنا إليها الاستدارة الإيقاعية لوسائل العرض على صالة العرض وذلك من أجل تكثيف تأثير التنويم المغناطيسى .

وبدلاً من أن يكون الفن الزخرفى محفوفاً بأسرار حياة المجتمع ، فى عالم يركز فيه شباب « البنك pinks على « اللامستقبل » وعلى تى - شيرت ويحملون فى طيات أنفسهم نزعة اللاإنسانية ، حتى فى الشارع أيضاً (شارع بوبور) حيث يثير الأفق البعيد الذى يظهر كنيسة « نوتردام » ألوانا متعددة من الضجيج تجعلهم يفكرون فى وضع من انسحاب الحثالات .

وهذا الولع بالتجديد من أجل التجديد أدى فى كل المجالات إلى استبعاد ثقافة الإنسان وكل قضاياه .

وكذلك ألوان التجديد « فى فن البوب » و « الموجة الجديدة » و « الرواية الجديدة » و « الفلاسفة الجدد » الأسرع زوالاً من الدعاية التى تتكلم عنهم فى لحظة ما أو يكون لهم شيء مشترك من الاقتصاد السائد. وقد عرف أحد المراقبين هذا الأمر بقوله : « إن الضرورة الحتمية هى المبادرة بالسؤال الفلسفى عن الغاية » (١).

وهكذا ولد ما كان يسميه « چيل ليوفتسكى » (عصر الفراغ) .

ولكن هذه ليست جريمة شعب ، إنها جريمة مؤسسات وقواد .

فليس هناك شعب سيء ، ولكن هناك شعوب مخدرة ، والشعب الألمانى الذى تمخض عن كثير من العبقريات الخلاقة للثقافة والإيمان الذين غذوا حياتنا ، استمروا (١٥) عاماً فى غيبوبات الموت .

وغوغائية « الشعب المختار » يمكن أن تحرم الأمريكان من الذاكرة ومن ماضيهم لتستمر فى أسرهم بـ Valium الشمولية للتليفزيون والسنيما والصحافة والنزوع نحو المغامرات الجديدة من « العقدة الصناعية العسكرية » حيث تولد القوة والثروة من البؤس والتسلط العسكرى والاقتصادى للعالم .

ونفاق سادة القارة يمثل مأساة متواصلة منذ أن كتب كريستوفر كولمبس إلى ملك أسبانيا . . أن الذهب أغلى من كل الثروات ، إن من تملكه يمكن أن يحصل على كل ما تحتاجه فى العالم ، وكذلك على وسائل حماية الأنفس من « بورجاتوار » حتى رونالد ريجان (٢) . ولقد أعلن « رونالد ريجان » أن ازدهار وقوة الولايات المتحدة هى دليل على أنها « أمة مباركة من الرب » ولقد تجرأ راهب أسبانى على نكران ذلك معتبراً أن ذلك سبًا للدين ، لأن ثروة وقوة الولايات المتحدة لم تتكون من مباركة الرب ، ولكن من استغلال العالم وخاصة العالم الثالث ، وذلك بتبادلات غير متكافئة ، وألوان الاستيراد العشرية للمنتجات الأمريكية ، وغزو رؤوس الأموال فى البلاد الأقل دخلاً بمعدلات ربويه « للدفع » .

وتلك هى محصلة خمسة قرون من الاحتلال وخمسمائة عام من نظام « برتون

---

(١) (ميشيل آبير ، الرأسمالية ضد الرأسمالية ط . سوى ١٩٩٣م) (ص ٢٣٠) .

(٢) (ماك اليتر : أسبانيا والبرتغال ، فيا بوليس ١٩٨٤م) .

وودنى » و « البنك الدولى » و « صندوق النقد الدولى » ثم « المنظمة العالمية للتجارة » ولكن علامة الصليب ما فتئت خطرة على مقابض السيوف مثل عباده الذهب والموت ، هذا هو المطلوب ، وهو فقط .

* * *

الفصل الرابع

احتلال أوربا والعالم الثالث

الفصل الرابع
احتلال أوربا والعالم الثالث

العراق ولبنان والصومال ، وبالأمس بنما وغرناطة ونيكارجوا وغداً إيران وليبيا وكوبا ، وكل ذلك بعد انهيار الاتحاد السوفيتي الذى غير موازين القوى التى تكونت بعد القضاء على هتلر وخلقت عالماً « ثنائى القطبية » .

هل هناك قاسم مشترك يمكن من خلاله فهم عصرنا ، أى خيط داخلى وعميق يربط بين المشاكل العالمية التى تتطلب تدخلات عسكرية ودور صندوق النقد الدولى والبنك الدولى وأوربا الموحدة وعودة الرأسمالية إلى شرق أوربا وظهور حركات التطرف الإسلامية واليهودية والمسيحية ؟ .

على عكس « وسائل الإعلام » وخاصة التليفزيون الذى يخدر الرأى العام حيث يقدم له سيلاً من المصائب وتدفقاً من الأحداث « سابقة الفبركة » ومسلطة عليها الأضواء من « تيحوزارا إلى مقديشو ومن سراييفو إلى بغداد ، ويستلزم حتى نكتشف المغزى منها أن نضعها فى السياق التاريخى للخمسة قرون الماضية من السيطرة الغربية المتزايدة على العالم أجمع .

فبعد أقل من ثلاثة قرون على غزو أمريكا وسلب ذهبها الذى أعطى التصنيع الأوربى دفعة غير مسبوقة بدأت مغامرة من أصبحت اليوم أكبر قوة فى العالم وهى الولايات المتحدة ، إن تاريخها كما رأينا له سمتان أساسيتان، مذابح الهنود الحمر للاستيلاء على أرضهم واستعباد السود لاستخدامهم فى أعمال الزراعة والمناجم.

وبنفس الطرق المتشابهة اقتسمت الدول الأوربية بقية العالم ، فاحتلت انجلترا الهند وشرق إفريقيا والشرق الأوسط واحتلت فرنسا غرب إفريقيا والهند الصينية والمغرب والأقيانوس واحتل الروس ليبريا واحتلت بلچيكا الكونغو ، واحتلت هولندا أندونيسا .

وبعد حربين عالميتين من أجل إعادة تقسيم العالم بين الذين كانت لهم بالفعل امبراطورية وبين الذين يطمعون في ذلك أعيد تقسيم خرائط العالم . وقد فقدت أوربا المستنزفة سواءاً المنتصرون أو المنهزمون هيمنتها لصالح الولايات المتحدة والتى كانت الحرب الأولى والثانية بالنسبة لها مصدر للثراء فأصبحت بذلك سيدة العالم على الصعيد الإقتصادى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وعلى الصعيد السياسى والعسكرى منذ انهيار النظام السوفيتى عام (١٩٩٠م) ، وأما النظام العالمى الجديد « وهو حلم القادة الأمريكين فهو اسم آخر لسيطرة الولايات المتحدة على العالم.

وأما « حق التدخل » فهو الاسم الجديد للاستعمار .

وعندما تخلصت الأمم المتحدة من مناهضة الاتحاد السوفيتى (الذى أضاع زعمائه هيبته ، وشرذمته النزعات القومية) أصبحت الأمم المتحدة مكونة من الولايات المتحدة وحلفاءها وعملائها ولذلك أصبحت مجلس لتسجيل الرغبات الأمريكية لخدمتها وتغطيتها بالموافقة وقد أصبحت الترسانة العسكرية التى تكونت بعد انهيار الشرق والغرب ضرورية لمهام أخرى .

فأوربا لا يمكن أن تكون منافساً ولكن تابع ، وتقول معاهدة ماسترخت صراحة وثلاث مرات أنه يجب أن نكون « الأساس الأوربى لحلف الأطلنطى » .

وعلى الصعيد العسكرى تلعب أوربا دور الجندى الإضافى فى العراق والصومال، وعلى الصعيد السياسى تساند أوربا نفس الوضع المتميز لأمريكا «فالسياسة الزراعية المشتركة » تخضع للمتطلبات الأمريكية والمنظمة العالمية للتجارة حين تقبل كما فعلت فرنسا بتبوير (١٥٪) من أرضها لتفتح السوق العالمى أمام تجارة الحبوب الأمريكية (١)

وعلى الصعيد الصناعى تصف صحيفة « لوموند » عدد (٢٢ ديسمبر ١٩٩٢م) تحت عنوان « احتضار الفحم الأوربى » أنه فى عام (١٩٩٥م) وفور التوقيع على معاهدة روما « التى تنظم أوربا ، حدث انخفاض مقداره ٢مليون طن على مستوى منظمة منتجى الفحم ، وفى عام معاهدة ما سترخت (٢٥٠٠٠٠) ومنذ (٣٠) سنة كانت الدول الاثنى عشرة تنتج (٤٠٠) مليون طن وفى عام (١٩٩٢م)

---

(١) هذا مقابل أن تطلق الولايات المتحدة يد فرنسا فى الدول الفرانكوفونية وتغض الطرف عن استغلالها (المترجم) .

(١٨٠) وفرنسا الضحية الرئيسية انخفض انتاجها من (٢٨) مليون طن عام (١٩٧٣م) إلى (١٢) مليون عام (١٩٩١م) ، وانخفض الإنتاج الإنجليزى بنسبة (٥٠٪) والألمانى بنسبة (٤٠٪) وكل هذا فى صالح المصدرين الأمريكين وتابعيهم مثل كولومبيا وڤنزويلا وكذلك أندونيسيا .

وفى مجال الأجهزة الإلكترونية والمعلوماتية تم رفض أجهزة الكمبيوتر من طراز « بول » لتوجيه الطيران العسكرى فى الولايات المتحدة ، وكان العقد قد فسخ من جانب الإدارة الأمريكية . وحتى تواجه شركة IBM الشركة الأولى فى العالم فى مجال المعلوماتية السوق الذى يحتكره الجانب اليابانى تبحث فى أوربا عن دور آخر لتحل محل المجموعة الألمانية SIEMENS التى رفضتها .

وفى مجال الفضاء توصل « لوكهيد » بفضل تآمر وزراء « يلستين » وبمساندة من صندوق النقد الدولى أن يستولوا على المعلومات التقنية للاتحاد السوڤيتى السابق فى إطلاق أقمار صناعية « بروتون » وتتكفل بالتسويق من أجل محاربة إطلاق القمر الأوربى « أريان » .

وفى مجال صناعة الصلب ، قررت الولايات المتحدة فى (٢٧ يناير ١٩٩٣م) زيادة الضرائب على واردات (١٩) دولة منها (٧) أوربية ، وهذه الرسوم الجمركية الإضافية منعت صُناع الصلب الأوربيين من أى مبيعات فى السوق الأمريكى . وهذا المنفذ الذى يصل إلى (٢) مليون طن يعادل انتاج منطقة « اللورين » التى يهددها هذا القرار بالشلل التام .

وقد أعلنت كل من « چنرال موتورز فورد » و « كريزلر » هجوماً مشابهاً فى مجال « السيارات » وهذه الحماية الأمريكية بداية أوضحت إلى أى مدى تمارس منظمة التجارة العالمية بمعناها الأوحد وهو : حماية السوق الأمريكى وفتح أسواق العالم كله أمامه .

وعلى الصعيد الثقافى ، ترزح أوربا تحت نير غزو الفيلم والتليفزيون الأمريكى فمن جملة (٢٥٠) ألف ساعة برامج فى أوربا هى مجموع ساعات دول المجموعة الأوربية الاثنى عشر ، حيث تنتج دول المجموعة كلها (٢٥) ألف ساعة والباقى

أمريكي وأما نصيب السينما الفرنسية فى السوق الأمريكى (٠,٥٪) بينما نصيب السينما الأمريكية فى فرنسا (٦٠٪) وهو ما يعادل (١ : ١٢٠) وهو ما يعد بمثابة غسيل مخ للشعب بواسطة قذائف أفلام المدمر Terminator وجيمس بوند وبقية أفلام هوليود وهوس الدولار فى أفلام دلس .

وهذه التبعية السياسية والصناعية والأخلاقية لأوربا أدخلت العالم فى مرحلة جديدة من مراحل الاستعمار ، حيث أصبحت قوة الشرق وأوربا خارج اللعبة ولذلك أصبحت الساحة خالية لاستعمار من نوع جديد ، وهو ليس استعمار الإمبرياليات الأوربية المتنافسة الذى انتهى ولكنه استعمار مركزى وشمولى من أجل اخضاع العالم للسيطرة الأمريكية ، إن محصلة الخمسة قرون الماضية للاستعمار مأساوية ، ففى عام (١٩٩٣م) كان أربعة أخماس الموارد الطبيعية لكوكب الأرض يتحكم فيها ويستهلكها خمس سكان العالم .

وما تزال التفرقة تزداد خطورة : فقد أوضح برنامج الأمم المتحدة للتنمية أنه خلال الثلاثين سنة الأخيرة تضاعفت الهوة بين البلاد الأكثر غنى فى الشمال والبلاد المطحونة فى الجنوب ، وقد تغير نصيب أفريقيا من المنتجات الوطنية الخام فى خلال عشرين من (١,٩٪ : ١,٢٪) .

أما ما اسماه « بوش » بالنظام العالمى الجديد فإنه تكريس وتدعيم للعلاقات الاستعمارية فى العالم أجمع بين عاصمته التى أصبحت وحيدة وبقية العالم وهذه العلاقات تعنى التبعية العسكرية والسياسية التى تسمح للمستعمرين أن يجعلوا من استعمارهم ذيل للاقتصاد ومن المركزية تبعية لهم وأن يفرضوا قواعد التبادل والتعريفات الجمركية فى صالح المسيطر ، هذا هو الهدف الذى أعلنه المسئولون الأمريكيون مئات المرات خاصة فى خلال الثلاث سنوات الأخيرة (منذ انهيار الاتحاد السوفيتى وهذا الهدف هو تأكيد الهيمنة العالمية للولايات المتحدة ولكن ما هى وسائل هذا العمل ؟) .

إنها وسائل متعددة : فهناك بدايةً الوسائل السابقة المجربة فى أمريكا اللاتينية منذ زمن طويل بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ومنذ (التحالف من أجل التقدم

الذى أعلنه الرئيس كينيدى . وحتى مبادرة بوش بإقامة سوق موحد من الاسكا إلى أرض النار) .

والآلية سهلة جداً وهى قبول الإستثمارات والقروض وحتى المنح إلى بلاد أمريكا اللاتينية تحت مبدأ مساعدتها فى النهضة الصناعية ولكن الحقيقة هى أن الغاية هى السماح لشركات الشمال متعددة الجنسيات أن تزيد من أرباحها بإقامة فروع لها فى بلاد ذات أيدى عاملة رخيصة وبنى تحتية تدفع تكاليفها الحكومات التابعة وفى نفس الوقت فإن أسعار المواد الأولية القادمة من هذه البلاد منخفضة مما يجعل التبادل شيئاً فشيئاً غير متساوى .

فى عام (١٩٥٤م) كان يكفى البرازيلى (١٤) كيس من البن ليشترى جونلة من الولايات المتحدة ، أما فى عام (١٩٦٢م) كان الأمر يستلزم (٢٩) كيس بن وفى عام (١٩٦٤م) كان الجاميكى يشترى الجرار الأمريكى بـ(٦٣٠) طن سكر وفى عام (١٩٦٨م) بـ (٣٥٠٠) طن سكر ومازالت الدول الفقيرة تدعم الدول الأكثر غنى .

ويمثل دفع فوائد الديون مقدار مرات من المبلغ المفترض أصلاً فكل دولار دين يدفع مقابله اثنان أو ثلاثة ، ودفع فوائد الديون الذى يستغرق فى أحيان كثيرة جميع الصادرات يجعل أى تنمية مستحيلة فليس الأمر هنا متعلق بدول أو بلاد على طريق التنيمة كما يسمونها بشكل زائف ولكنها بلاد حكم عليها بالبؤس المتواصل نتيجة التبعية المتزايدة .

وأما الإدعاء بمساعدة دول العالم الثالث فلا تعدو تلك المساعدات أن تكون عوامل مؤثرة فى تدعيم تبعيتها وإضطهادها ، وأما المساعدة العامة متعددة الأطراف فقد ثبتت عند أقل من (١٪) (٠,٧٪) من الناتج القومى للدول المانحة وفى الواقع فإن نصف هذه المساعدات قد جمد .

إن نقل التصنيع والتكنولوجيا إلى دول العالم الثالث هو أيضاً وسيلة أخرى من وسائل السيطرة وزيادة الأرباح للدول الغنية ، وأكثر الأمثلة إنطباقاً على هذه الحالة هو المعجزة البرازيلية فى التنمية الصناعية والتدخل السيىء من جانب البلاد الغنية فى غابات الأمازون .

وكانت المحصلة كالتالى : إن هذا البلد الذى يعد من أكثر دول العالم ثراء فى الموارد الطبيعية يمتلىء بالفقراء ، فقد استمر تجميع الثروة فى يد أقلية حتى أصبحت الحالة أن هناك (١٣٠) مليون من مجمل (١٥٠) مليون يعيشون تحت خط الفقر ،ونصفهم يعيشون فى بؤس مطلق وليس أدل على أن التدخل البيئى وهو الاسم الجديد للاستيلاء والنهب الإستعمارى مما حدث فى غابات الأمازون فقد دمرت الشركات السبعة متعددة الجنسيات وهى التى تتبع الدول السبع الصناعية التى تتحكم فى العالم وخاصة شركة جودبير ونايين آستيل فولكس فاجن وشركات أخرى دمرت آلاف الهكتارات من الغابات وأزالت مئات الآلاف الأخرى ، وذلك من أجل صناعة كبارى وخطوط كهربية بدلاً من أن يستغلوا الطبيعة بشكل متعقل يحافظون فيه على الغابات ،وكذلك فإنهم ينتجون ما يوازى (٥) مليار برميل بترول فى العام (أى أكثر من إنتاج المملكة العربية السعودية) .

إن للشركات متعددة الجنسيات أهداف أخرى من وراء استثماراتها ونقلها للتكنولوچيا غير « التوازن البيئى » أحد أهم رئات العالم ، فبحجة « المغامرات المتصلة Joint ventures أى المشاركة مع المشاريع الوطنية ، تفرض تلك الشركات تكنولوچياتها ، فقد أقامت مثلاً فى طوكروى « كوبرى عملاق استلزم إزالة مئات الآلاف من هكتارات الغابات . من أجل الحصول على الطاقة الضرورية لمصانع معامله البوكسيت وهى من التلوث بحيث لم يسمح بإنشاءها فى الولايات المتحدة) وكذلك أخذ برميل البترول من البرازيل مقابل (١٦١) دولار بينما يباع بـ (٢٨١) دولار فى السوق الأمريكى الشمالى .

هذا هو منطق اللصوص فى جميع المجالات : ففى البرازيل تسيطر الشركات متعددة الجنسيات على (٨٥٪) من إنتاج الكاكاو و (٩٠٪) من إنتاج البن و(٦٠٪) من إنتاج السكر و(٩٠٪) من إنتاج القطن و (٩٠٪) من إنتاج الخشب .

وتتحكم الشركات الأجنبية فى (٨٠٪) من البوكسيت و (٨٠٪) من الأحجار الكريمة و(١٠٠٪) من حجر الكوارتز (المرو) ذى الجودة الممتازة (وهو ضرورى للصناعات الألكترونية) . وفى كل مجالات الاقتصاد (السيارات ، الالكترونات والإتصال والبتروكيماويات . . . إلخ) وبمساهمة أقطاب الصناعة المحليين تم خلق

نموذج من التنمية تكون مراكز القرار فيه خارج البلاد مما يستلزم تبعية اقتصادية كاملة .

هذه التبعية الاقتصادية وهذا الشكل المنحرف من التنمية المفروض على شعب بكامله تستلزم بدورها تبعية سياسية مباشرة أو غير مباشرة .

أولاً : من أجل ضمان دفع الديون (فالبرازيل تخصص ٤٠٪ من حصيلة صادراتها لدفع فوائد الدين ، والأرجنتين تخصص ٥٤٪ لنفس الغرض) .

والقضية الأكثر تأكيداً هي : إقامة ديكتاتوريات عسكرية ، فالسلطة الإمبريالية للولايات المتحدة تمارس من خلال الشركات متعددة الجنسيات ، فعندما تأكد خطر وجود سلطة شيوعية فى شيلى اقترحت مذكرة حكومية تطبيق ضغوط اقتصادية من أجل انهيار النظام .

وهذه الطريقة لا تستبعد التدخل العسكرى المباشر للجيش الأمريكى كما حدث فى « جواتيمالا » عام (١٩٥٤م) من أجل حماية حقوق « الثمرة المتحدة » فيها United fruit من كوبا التى نظم لها « كيندى » حملة « خليج الخنازير » (١٩٦١م) بمساعدة أنصار النظام الديكتاتورى « نظام ياتستا » المهاجرين ، وفى عام (١٩٦٤م) فى جوانا البريطانية وفى عام (١٩٦٥م) وليس بعيداً عنا ما حدث فى « جرانا دار » و « بنما » .

ولكن من المفيد والفعال أيضاً تسهيل الوصول إلى السلطة فى كل البلاد لديكتاتورية عسكرية تحت اسم المذهب الأمريكى فى الأمن القومى ضد الشيوعية فى زمن قوة الاتحاد السوفيتى ، فيمكن للمرء أن يقنع الشعب حين يربطه بالولايات المتحدة ويقول أنها تدافع عن الديمقراطية والاستقلال الوطنى ، وهكذا استطاع الجنرالات أن يحكموا البرازيل منذ« كاستلوبرانكوا » عام (١٩٦٤م) وحتى «جينرل» .

وفى ظل حكمهم وبلعبة مقترنة بتصنيع فرعونى تحقق على يد الشركات الأمريكية متعددة الجنسيات والتسليح الذى يسمح بحماية الاضطهاد والارهاب ضد الشعب ، لم يتوقف الدين عن الزيادة : مثلاً من عام (١٩٧٢م) إلى (١٩٨٢م) زاد الدين من (١٢ إلى ٦٠) مليون دولار ، تضاعف خمس مرات فى عشر سنين « فليس هناك أحسن من الديكتاتورية العسكرية لاستنزاف بلد حتى النهاية » .

وأما عن دين الأرجنتين فمن جملة (٥٤) مليار دولار خصص مبلغ (١٠) مليار للتسليح إبان حكم الجنرالات .

ويمثل الإنفاق من الديون على شراء الأسلحة قبل رئاسة « آلان جاريتا » (٥٠٪) من ميزانية بيرو ، وقد وصل المعدل إلى أقصاه فى شيلى تحت حكم «بنيوشت » حيث بلغ نصيب الفرد من الديون (١٥٠٠) دولار .

ولكن « بنشوت » قد أحرز رقماً قياسياً آخر وهو :ما يتعلق بالتحرر ففيما يتعلق بتطبيق الديمقراطية الأمريكية حقق أعلى نسبة تحرير لاقتصاد السوق (بما فى ذلك سوق المال) وذلك بفضل نظام « الخصخصة » الشاملة تلك التى أوجدت الظروف المثالية بفضل القمع الوحشى ضد شعبه ومن التحرر إلى الشركات متعددة الجنسيات ذات الهيمنة الأمريكية إلى وضع اقتصاد البلد كله تحت الوصاية.

وبفضل تلك الديكتاتوريات العسكرية أصبحت تبعية اقتصاد أمريكا اللاتينية للولايات المتحدة لا مناص منها ، وتبعتها التبعية السياسية بسبب قوة الضغط الاقتصادى على السلطات برفض القروض أو الاستثمارات .

وشيئاً فشيئاً استطاعت الولايات المتحدة أن تصل إلى غايتها « تحرير السوق » عن طريق وسائل أخرى غير الديكتاتورية العسكرية .

فمن الممكن قبول الحكام المنتخبين على أن تستعمل معهم سلاح الفساد بدلاً من سلاح القمع ، وعلى هذا الأساس تم القبول بحكام منتخبين على رأس السلطة مثل « كونور » فى البرازيل « ومنعم » فى الأرجنتين . والأساس فى ذلك إمهال وتدليل الجنرالات بأن يطلب منهم فقط دفع ديونهم ونسيان جرائمهم .

إن حكم صندوق النقد الدولى يمكن أن يستمر دون خطورة فى البلاد المكبلة بالديون بشرط أن يكون اقتصادها فى أيدى شركات أجنبية .

إن صندوق النقد الدولى يمكن إذن بلا عقاب أن يفرض ليس فقط على العالم الثالث ، ولكن على العالم النامى كله كل ما يتفق من إجراءات مع مصالح القوة العالمية الكبرى وهى : تنمية الثقافة الوحدوية والإنتاج الوحدوى وتراجع الثقافات الحية والصناعات الوطنية والتبعية والاستغلال المتزايد للأيدى العاملة وتزايد الديون بمعدل خطير عبر طريق الاستيراد المتزايد .

والنتيجة النهائية حتمية وهى : انخفاض معدل دخل الفرد فى أمريكا اللاتينية و أفريقيا منذ عام (١٩٨٠م) فى أمريكا اللاتينية بنسبة (١٥٪) وفى أفريقيا بنسبة (٢٠٪) .

إن هذا النظام التسلطى يحمل اسماً محتشماً وهو « خطة التسوية البنيوية » وهو يعتمد على عدم الموافقة على أية مساعدات أو قروض إلا فى ظروف سياسية مواتية .

وعندما تطبق برامج صندوق النقد الدولى هذه حرفياً على بلد ما فإن حكومته تحظى بمكانة متميزة من جانب الولايات المتحدة وحلفاءها الأوربيين .

إن برنامج « التسوية » غالباً يتكون من العناصر التالية : خفض قيمة العملة (من أجل تعطيل الصادرات وتشجيع الواردات) التخفيض التعسفى للنفقات العامة وخاصة على الصعيد الإجتماعى ، مثل تخفيض الإعتمادات المخصصة للتعليم والصحة والإسكان وإلغاء المساعدات للمستهلكين بما فيها المواد الغذائية وخصخصة المشاريع العامة أو زيادة تعريفتها (الكهرباء والماء والمواصلات .. إلخ) وإلغاء التحكم فى الأسعار « تنظيم الطلب » وكذلك تحقيق الإستهلاك الذى يأتى من بلوغ الحد الأقصى لتخفيض المرتبات ؟ وخطر الديون ، وزيادة الضرائب، ومعدل الفائدة ، وكل ما يمكن أن يؤدى إلى خفض معدل التضخم .

وتقود سياسية « التسوية » هذه إلى مظاهرات الجوع ضد زيادة أسعار الخبز كما حدث فى المغرب عام (١٩٨١م و ١٩٨٤م) وفى «كاركاس » عام (١٩٨٥م ومارس ١٩٨٩م) وفى الجزائر العاصمة أكتوبر (١٩٨٨م و ١٩٩٦م) وفى الأردن.

ومن ذلك الاستهزاء باقتصاديات المعاش وخاصة الزراعات التى تقوم عليها الحياة بشكل أساسى فى مجال الصادرات وهى أيضاً المصدر الوحيد لتدبير العملة الصعبة لتسديد الديون بالدولار ، إن البلاد التى ماتزال تتلقى المعونات تنتج كثيراً مما لا تستهلكه وتستهلك كثيراً مما لا تنتجه .

وهكذا فمنذ عشرين عاماً دمر كل من صندوق النقد الدولى والبنك الدولى نصف الكرة الأرضية الجنوبى من الأرجنتين إلى تنزانيا ومن باكستان إلى الفلبين وبدأوا الآن فى تطبيق نفس المنهج فى بلاد الشرق .

وحتى يصلا إلى هذه الغايات ، غايات صندوق النقد الدولى والمنظمة العالمية للتجارة (الجات) أقامت سيطرة السوق العالمى « توحيد حقيقى للسوق » قائماً على عبادة المال ، وقد وضع المسؤلون الأمريكيون موضع التنفيذ مناهج متعددة حسب القارات والأنظمة السياسية .

ففى أفريقيا مثلاً يمكن أن نحصى ثلاثة مبادىء أساسية : فور زيارة رئيس السنغال السيد عبده ضيوف إلى الولايات المتحدة فى (١٠ سبتمبر ١٩٩٦م) أعلن نائب وزير الخارجية للشئون الأفريقية السيد « هرمان كوهين » أن تأخر المنظمة الأفريقية ثلاثين عاماً فى تحرير الاقتصاد الإفريقى طويل جداً ، وقد قال فى ذلك «نعتقد أن إلغاء الحدود التجارية الأفريقية يجب أن يتم بأقصى سرعة ، ويبدو أن السيد عبده ضيوف متفهم لهذا الأمر ، ولذلك فإن الرئيس بوش قد أعلن إسقاط (٤) مليون من ديون السنغال .

أما فى الجزائر فإن المشكلة قد أثيرت بشكل آخر فقد أعلن رد الفعل لرفض سياسة صندوق النقد الدولى فى شكل مظاهرات بالجزائر العاصمة فى أكتوبر (١٩٨٨م) وجدت التعبير عنها بشكل شامل وعلى أوسع نطاق من جانب الإسلاميين « الذى يعارضون صراحة مبدأ توحيد السوق » وقد طرح حزب «الجبهة الإسلامية للإنقاذ » قضية جيدة وهى القضية الأساسية فى عصرنا وهى : رفض توحيد السوق ، وذلك التحرر الذى يكرس الحرمان الذى يستلزم تبعية أربعة أخماس العالم ، وفقد كل معنى للحياة ، وزيادة فى أرباح الأقلية التى تقود اللعبة وبؤس وحرمان للأكثرية .

ولكن الحلول التى دعت إليها جبهة الإنقاذ لم تمثل مشروعاً حقيقياً يكون بديلاً عن إنهيار الغرب ، فقد كان رفضها لمبدأ النظام الذى يدعى السيطرة على العالم مجسداً الشر ليس فقط لأسباب إقتصادية (فالجزائر مدينة بما قيمته ٢١ مليار دولار وتدفع سنوياً ٥,٥ مليار دولار فوائد) ولكن أيضاً لأسباب سياسية ودينية حيث ساد التساؤل عن غايات هذا المجتمع القائم على اقتصاد السوق ، فالبنسبة لمخربى الكرة الأرضية الذين يمارسون العبادة السرية « لوحدة السوق » يجب قيام حرب دينية حقيقية تنسف كل من يعارضهم ، ومهما كانت الأهليات أو الأخطاء أو الجرائم فإن كل من يعارضهم يصبح هتلر جديد ، ولابد أن يكون « متطرفاً »

عراقياً أو صربياً أو معارض بيروفى . وبمباركة الديمقراطيين « الخالصين » فى واشنطن ، وباريس يقبل الإنسان بكثير من العزاء بما حدث فى الجزائر جرياً على مبدأ « برتولد برخت » القائل « لقد صوت الشعب ضد الحكومة ، إذن فالحل هو إبادة الشعب » .

وفى الصومال حدثت طريقة ثالثة وهى تحت اسم جميل هو « حق التدخل الإنسانى » وهو حق قاصر على الغربيين (فلنتخيل أن هناك شعباً أفريقياً طلب «حق التدخل الإنسانى » ليتدخل ضد التفرقة العنصرية تجاه السود والهنود الحمر فى الولايات المتحدة بعد الانفجارات الشعبية فى لوس أنجلوس وهو حق قابل للتطبيق (حسب معايير الإستدعاء بالنسبة للصومال الموجودة فى وسط أفريقيا .

ولكن التدخل تدخل منتخب ، فقد أعلن الرئيس بوش صراحة هذه النقطة فى خطابه الأخير أمام الأكاديمية العسكرية بوست بونيت قائلاً : « إننا يجب أن لا نهب فى كل حالة من حالات العنف الإجرامى . . . إن مبادىء أى أمة يجب أن لا تتعارض مع مصالحها » .

إن هذه التفرقة الأساسية بين « المبدأ » و « المصالح » توضح لماذا استدعى الأمر فى الصومال « حق التدخل الإنسانى » وذلك لأسباب ثلاثة :

* أهمية القرن الإفريقى لمراقبة الخليج عن كثب .

* التنقيب عن البترول الذى بدأ فى الصومال من جانب أربع شركات أمريكية وإستمراره يستلزم سلطة سياسية ثابتة وطيعة .

* أخيراً وهو الأهم ، أن يوصلوا إلى السلطة أناساً أشبه بعرائس الماريونت يمكن أن يقبلوا بلا تردد أوضاع الولايات المتحدة المتميزة التى يفرضها صندوق النقد الدولى (حتى المحاولة على استحياء من جانب السياسة الفرنسية لرئاسة المفاوضات بين المرشحين المحتملين هؤلاء السياسين الذين يعتقدون أن أفريقيا ما تزال مجالها المحجوز ، هذه المحاولة رفضت بضغط أمريكى) .

وهكذا حدث تدخل إنسانى مدفوعاً بالمصالح الأمريكية .

وقد ظهرت هذه الإنتقائية على نطاق واسع فى أمثلة كثيرة ، فقد استلزم الأمر اسطولاً جوياً لحماية الأكراد فى العراق ، ولكن أكراد تركيا الذين يمثلون ربع

السكان ليس لهم أى حق فى هذا « التدخل الإنسانى » بل والأكثر منهم الفلسطينيون والهايتيون الذين يرزحون تحت نير الرعب والعسف أو حتى السلفادوريون الذين يواجهون « مخاطر الموت » ، إن الدفاع عن « القانون الدولى » و « الديمقراطية » هى أسماء أخرى لإخفاء تدخلات هذا الاستعمار الجديد .

إن مذابح الخليج هى أوضح مثال على ذلك فالدفاع عن الكويت هو الدفاع عن الحق والديمقراطية إن الحق هو حق الأقوى

وهكذا أعيدت « الديمقراطية » إلى الكويت ، الديمقراطية التى تشبه بقوة ديمقراطية ديكتاتوريات أمريكا اللاتينية ، لقد مثل رجوع الأمير الصباح بعد ألوان الاضطهاد والابعاد والقمع الذى يتعرض له الفلسطينيون ميلاد نوع من الديمقراطية الكاريكاتورية ، فهناك فى الكويت (١١٪) فقط من السكان لهم حق التصويت بينما غالبية أعضاء هذا البرلمان الساخر تتبع المعارضة ، وحتى حقائب الوزراء مقسمة على أعضاء عائلة الصباح التى يمكن هكذا أن تخلط بين ميزانية الدولة وثرواتها الشخصية ، ونتائج ذلك تجسيد حقيقى لفساد النظام ، وقد ظهرت سلسلة من الفضائح حيث تقع مسؤليتها كما يقول رئيس البرلمان « على عاتق الوزراء الذين تتابعوا على رئاسة وزارة المالية منذ عام (١٩٨٦م) وكان آخرهم عام (١٩٩١م) وهو « على خليفة الصباح .

وقد اختفت مليارات الدولارات من خزينة الكويت خلال حرب الخليج ، وقد أحدثت شركة بترول تانكر بالكويت Kuwait oil Tanker company والتى اختلس فيها المسؤلون حسب اعترافات وزير البترول ما بين (٧٠) مليون إلى (٩٠٠) مليون دولار ، وكذلك فضيحة Tirras S . A المتعلق بإفلاس مكتب الاستثمار الكويتى ، وقد تبين أن هذه الاختلاسات العظيمة والمهربة إلى أسبانيا عجزاً قدره (٤٥)مليار دولار ، وأما فى فرنسا فقد أفلس البنك الفرنسى الكويتى.

كمكافأة على ذلك فقد أهدى بوش إلى الكويت هديته الأخيرة وهى : دبابات من طراز « إيرامزم ١ أ » بما قيمته (٢) مليار دولار فى الوقت الذى يموت فيه فى العراق طفل كل أربع ساعات نتيجة للحصار .

وهكذا أطلق على العراق خلال حرب الخليج ما يعادل (٨) مرات قنبلة هيروشيما ، وقد قتل حسب أقل تقديرات للصليب الأحمر الدولى (٢١٠٠٠٠) شخص .

وتلك هى محصلة الدفاع عن حقوق الإنسان التى مورست بمعناها الأوحد : فقد طبقت بلا رحمة بصدد احتلال « الكويت » ولم تطبق « بصدد احتلال القدس» حقاً إن القدس مدينة مقدسة ولكن مدينة الكويت مدينة مقدسة ألف مرة مادامت محاطة بآبار البترول !

إن المنهج الذى طبق على العراق هو التدمير الشامل حتى « يكون عبرة » للعالم الثالث خاصة إيران وليبيا الذين يمكن أن يمثلا التحدى القادم ماداموا يمتلكون ثروات بترولية بعيدة عن السيطرة الأمريكية .

* * *

وهناك طريقة أخرى أقل تكلفة وهى تطبق عندما يكفى إذكاء القوميات والصراعات العرقية والدينية .

والقومية هى اختراع أوربى ، ودون أن نتذكر تاريخ تكوينها فى أوربا ، خاصة منذ معاهدات « وستفالى »(١٦٤٨م) التى قرعت بقوة أجراس أحزان « المسيحية » التى وحدت أوربا ، فإن الوحدات الأوربية قائمة على أساس اقتصاد السوق وهو سوق تحميه الدولة ويحميه الجيش ، وتلك هى البداية ، فيما يتعلق بوحدات قديمة مثل فرنسا حيث نشر الملك (شارل الخامس) فى نهاية القرن الرابع عشر عهداً جاء فيه « تنبع سلطة الملك من نفسه . . . وهو الذى ينظم المعارض وكل الأسواق ، ويتحكم فى ذهاب البضائع وبقائها وعودتها » فكان هذا القرار يهدف إلى التحكم فى الإقطاع بكل خصوصياته ، وقد كان اتمام هذه الوحدة هو عمل الثورة الفرنسية فيما بعد وظهر جلياً فى العهد الأساسى للافاييت ، فى حفل الفيدرالية (١٤ يوليو ١٧٩٠م)حين أقسم أن يقر الدستور الذى هو الضمان الوحيد لوحدة فرنسا السياسية ولكنه أقسم أيضاً « أن يحمى سلامة الأشخاص والممتلكات وحرية مرور البضائع .

ومن بين الوحدات الأخيرة على نهج قومى فى بداية القرن التاسع عشر ،

بدأت ألمانيا وحدتها « بوحدة جمركية » (زلفرين عام ١٨٣٣م) كما فعلت إيطاليا زمن « كافور » .

وفى القرن التاسع عشر وهو العصر الذهبى للبرجوازية التجارية والصناعية تأكدت هذه الوحدة التى انهت صراعها ضد الخصوصيات المختلفة تأكدت أيضاً ضد المنافسين الخارجيين ، ولذلك فقد بحثت عن تبرير أيديولوچى .

وكل أمة تدعى لنفسها حق ميراث المسيحية ففى فرنسا شعار « إن الرب يكمل عمله بفضل الفرنسين Gesta dei per francos والألمانيون ينشدون « الله معنا » Gott mit ons ولكن مع أفول نجم السلطة الدينية لزم وجود أسس أخرى للقومية مثل : الجغرافيا والحدود الطبيعية عند « باريس » ثم العرقية واستغلال نظريات «چوبينو » و « شامبرلان » وأخيراً وبالأخص الأساطير التاريخية التي تهدف إلى ترسيخ مفهوم أن « الأمة » مصطلح وجد منذ ملايين السنين ، وقد أسهم الألمان في الملفات الأسطورية للشعوب بكتاب « برست (١٨٢٤م) تاريخ الآثار الألمانية» وفى فرنسا بكتاب « چيزو » (١٨٣٣م) (وثائق غير مطبوعة عن تاريخ فرنسا) وفى إنجلترا بكتاب « سلسلة الأدوار » وهو عن أصول وجذور إنجلترا (١٨٣٨م) .

ومع الفتوح الإستعمارية حدد كل مستعمر فى المناطق التى يحتلها محميات أصبحت فيما بعد « أمم » على سبيل المثال فالحدود الحالية لدول أمريكا اللاتينية ترجع فى معظمها إلى الممالك القديمة لجنرالات أسبانيا والبرتغال ، والحدود الحالية للبلاد الإفريقية محددة سلفاً من قبل المستعمرين الأوربيين ، عن طريق التقسيم الذى حددته معاهدة « برلين » (١٨٨٥م) حسب موازين القوى عند المستعمرين ، حسب مبدأ يقول بأن الذى يمتلك الساحل يمتلك بقية البلد راسماً حدوداً عمودية على السواحل ، وكان أفول نجم الإمبراطورية العثمانية والقضاء عليها من جانب المنتصرين فى الحرب العالمية الأولى قد حدد ترسيم الحدود للبلاد العربية فى الشرق الأوسط حسب الرغبات المتنافسة لإنجلترا وفرنسا وبالوصول إلى حل وسط فى إتفاقيات « سايكس - بيكو ١٩١٧م) .

ومن الممكن للمرء أن يتزيد من هذه الأمثلة على تصدير القومية وأيديولوچيتها فى العالم أجمع عبر أوربا الاستعمارية .

ومنذ خروج الإستعمار كانت المصادمات بين المستعمرين هى الانتصار المتأخر للإستعمار الذى استخدم القوميين بعضهم ضد بعض ، وقد كانت « جامعة الدول العربية » حلماً انجليزياً قديماً فى زمن كان يستلزم اقتطاع أجزاء من الإمبراطورية التركية بفصل الدول العربية عن الأمة الإسلامية بينما كانت ايديولوچية القومية التركية عملاً أوربياً خالصاً ، وكان « حزب ڤامرى » كما كان حزب البعث » القومى العربى يتبع منظراً ومؤسساً مسيحياً هو « ميشيل عفلق » .

وعلى الصعيد السياسى ، هناك ألف مثال على أشياء أذكت فيما بعد الصراع بين العرب والإيرانيين وعبثت العراق عسكرياً ضد إيران لتضعف الأولى انتظاراً لتدمير الثانية . واليوم ومع إنهيار الإتحاد السوڤيتى ، انقسمت البلاد بشكل أطمع فيها أعداءها وزاد الطين بلة الحروب الداخلية للدول المحيطة بروسيا ، بين المسلمين والقوميين فى « طاچيكستان والأرمينين والآذريين ، وفى مذابح أبخازيا وفى حرب الشيشان ضد روسيا » .

وهنا يكفى فقط أن يغض الطرف أو تترك الجيوش تتقاتل من أجل أن يستمر الإنهيار الذاتى .

إن أكثر الأمثلة انطباقاً على هذه الحالة هو « يوغوسلافيا السابقة » فمنذ ما يقرب من نصف قرن لم تعرف شعوبها أى اضطهاداً أو مصادمات برغم اختلافها فى اللغة والدين والتاريخ والبناء الإقتصادى .

وقد عادت القوميات تتصاعد مع رجوع اقتصاد السوق بكل عنفه ، حيث استولى على أعظم الأجزاء ثراءً فى البلاء وهى « سلوفينيا » تمهيداً لفصل أعضاءها الاخرين البعيدين عن مركز الإتحاد اليوغوسلافى فى بلجراد ، وقد أعطى الضوء الآخر الأخضر للقوات الأجنبية ، فألمانيا حسب سياستها التقليدية فى إيجاد منفذ على بحر الأدرياتيك اعترفت من جانب واحد باستقلال سلوڤينا والبوسنة وكروايتا ، وهى منافذ عبر البحر المتوسط ، وتعتبر ألمانيا الحلف الرئيسى لتركيا فى أوربا التى تريد أن تضع من جديد موطىء قدم لها فى منطقة البلقان التى كانت تابعة قبل ذلك للإمبراطورية العثمانية ، وتبعيتها لحلف الأطلسى تسمح

لها دون مجابهة لسادة الأطلنطى أن تهب للدفاع عن مسلمى البوسنة ، وكوسوفو ويضاف إلى ذلك أن الفاتيكان أعلن مساندته لكرواتيا الكاثولوكية .

وكان الأوربيون وخاصة فرنسا الذين استشعروا خطر انفجار الوضع فى يوغوسلافيا أول الأمر وهم الذين كانوا يميلون نحو استمرار الوحدة بدأوا يتحالفون مع المواقف الأمريكية والألمانية ويتهمون الصرب الذين يحاولون الإبقاء على الوحدة بأنهم معتدون انفصاليون ، وكان على عاتق وسائل الإعلام أن تهاجمهم وحدهم فى هذه الصراعات وكأن الهمجية حكر على معسكر واحد .

وعندما بدأت المذابح ، ولأن الأمريكين لم يأخذوا فى اعتبارهم تعقد الوحدات، وباسم حق تقرير المصير (وهو حق لا يأخذ فى الاعتبار الأقليات الموجودة داخل الدول الجديدة التى تم الاعتراف بإستقلالها) لا يملك أى من الأطراف إلا اللجوء إلى دفاعه الشخصى عن نفسه ، لقد كانت مسئولية الغربيين فى هذه الفوضى الدموية ساحقة حين جعلت المشكلة غير قابلة للحل بالقانون ومميتة باسم القوة .

ولنأخذ مثالاً واحداً ، فالبوسنة بها (٤٤٪) مسلمون و (٣٠٪) صرب و(١٨٪) كروات .

وكان البعض يخافون من قيام « جمهورية إسلامية » وهى التى أعلنها قائدها (على عزت بيجوڤيتش) وأما الآخرون والذين كانت تساندهم بلجراد قاموا بمواجهات دامية ومذابح من أجل الهيمنة الصربية على الكروات والمسلمين ومن هنا قامت المواجهات بين الصرب والكروات وبين المسلمين والصرب فى وسط مناطق مزدحمة بالسكان ومختلفة ومتشابكة الأعراق من جميع الطوائف .

وفى مثل هذه الظروف يصبح من الصعب بل والفوضى التدخلات العسكرية أوحتى مفاوضات السلام ، فمثلاً عندما أراد الطيران أن يضرب من الإدرياتيك لحماية قوات الأمم المتحدة فكان كل صاروخ يضرب على البوسنة يقتل صرباً ومسلمين وكروات .

وأما مفاوضات چينيف فقد كانت مهزلة لأن الدول الغربية التى اعترفت بالدول

الجديدة لم تضمن حقوق الأقليات ، والتى يبحث عنها الآن كل طرف لحسابه الخاص ، فعزت بيجوفيتش يريد دولة بوسنية واحدة لأن مجموعته الإسلامية ستكون أقلية فى حالة إتحاد فيدرالى مع الصرب والكروات .

وأما الصرب والكروات فى البوسنة فإنهم يريدون الحل الكونفدرالى الذى يعطيهم ضماناً بتحالف الأولين مع بلجراد والآخرين مع زغرب ضد أى محاولة لقيام جمهورية إسلامية ، ويضاف إلى ذلك الاختلاف حول ترسيم الحدود ، لأن تشابك المجموعات المختلفة ينتهى بتشابك « عرقى » وتعود المشكلة إذن إلى تقسيم « كمى » تقرره موازين القوى كما حدث فى ترسيم الحدود عبر التاريخ بشكل دائم .

وهكذا عادت إلينا مشاكل القرن الماضى نتيجة للمقررات الغربية الغاشمة والتى كنا نسميها « المسألة الشرقية وإذا كانت هذه المشكلة اليوم خطيرة فذلك بسبب عدم الاستقرار الذى يسود أوربا والشرق الأوسط .

* * *

لقد حاولنا أن نستخلص القاسم المشترك الدائم الذى يربط بين المشاكل الدولية الرئيسية فى نهاية القرن العشرين مرجعين ذلك إلى سببها العميق والوحيد برغم تعدد ظواهره وهو : السيطرة العالمية للولايات المتحدة ، ووحدة السوق التى تريد أن تفرضها على العالم كله ، ومازالوا يسمون الأمور هكذا :

يطلقون اسم الحرية على اقتصاد السوق اللامحدود حتى ولا بالعلاقات الإجتماعية .

* يطلقون اسم التقدم على ازدياد القوى التقنية والعلمية للسيطرة على الطبيعة وعلى البشر .

* ويطلقون اسم التنمية على الزيادة العمياء فى الإنتاج والإستهلاك .

ازدياد خطورة التفرقة والحرمان والعنف الناتج عنهما .

* ليست هناك حرية أو ديمقراطية إلا حينما يشارك كل فرد فى القرارات المتعلقة بمصيره .

ليس هناك تقدم إلا حينما يكون كل المتنافسين والراغبين فى القوة والازدياد والتمتع أفراداً وجماعات وأمم وحدة واحدة أى وحدة مناهضة للفردية والأنانية بحيث يؤمن كل فرد فيها أنه مسئول بصفة شخصية على مصير الآخرين .

* ليست هناك تنمية إلا للإنسان ، فعلى العكس من نظام يتمخض عن تمركز الثروة فى أحد جوانب المجتمع بينما يعانى الآخرون من الفقر المادى والثقافى فإن المجتمع يعد متطوراً حين يخلق الظروف الاقتصادية والسياسية والثقافية والروحية حتى يمكن لكل عضو فيه أن يحصل على فرص متكافئة لينمى الطاقات الخلاقة الى يحملها فى داخله .

* * *

الفصل الخامس

المحاولات الفاشلة للإشتراكية

الفصل الخامس
المحاولات الفاشلة للإشتراكية

كان لا بد من قرنين من الزمان بعد الثورة الفرنسية حتى نصل إلى ما أسماه (ماركس) منذ منتصف القرن الماضى « عربدة الرأسمالية » حتى نؤمن بعودة شريعة الغاب التى شكلتها الإيديولوجية وممارسات « حرية السوق » التى أدت اليوم إلى شطر العالم إلى نصفين : شمال وجنوب ، وما استتبع ذلك من نموذج الثراء الغربى : وهو ما كلف العالم الثالث الكثير من الضحايا أكثر مما كلفه فى هيروشيما كل يومين .... وما زالت الهوة تتسع .

وحتى فى داخل البلاد الغنية ما يزال هناك انشطار مماثل بين من يملكون ومن لا يملكون : ومن ذلك الإرتفاع الحاد فى معدل البطالة والحرمان واللامساواة ... وما زالت الهوة تتسع ، ويعتبر ثلث قوة العمال البالغ عددهم ٢٨٠٠ مليون عاطلين ، ومن بين عامى ١٩٩٠ و ١٩٩٣ انخفض معدل إنتاج دول العالم الثالث بنسبة ١٠٪ .

وكذلك الحال حينما عادت الرأسمالية إلى الدول الشرقية : ففى عام ١٩٩٢ ، انخفض دخل ٧٣٪ من السكان البلغار إلى أقل مستوى رسمى ، بينما كانت نسبتهم ٤٢٪ عام ١٩٩٠ ، وفى عام ١٩٩٢ وصل حوالى ٥٠٪ من السكان البولنديين إلى مستوى الفقر المدقع مقابل ٤٠٪ عام ١٩٩١ . ونفس الوضع فى الاتحاد السوفيتى حيث يوجد ١٠٠ مليون فرد تقل دخولهم عن مستوى خط الفقر طبقا لإحصاء عام ١٩٩١ .

وفى البلاد القريبة من الصحراء وصل معدل البطالة إلى ٥١٪ أى ضعف ما كان عليه عام ١٩٥٠م وفى أمريكا اللاتينية ! واصل معدل البطالة فى القطاعات المدنية ارتفاعه من ١٣,٤٪ إلى ٧١,٦٪ بينما هناك ٣٢٥ شخص يمتكلون من الثروة ما يساوى ما يمتلكه ٢,٥ مليار من سكان العالم .

وقد استبدلت الثورة الفرنسية امتيازات الدم بامتيازات المال ، فقد حرصت بالقانون المعروف « بقانون صانع القبعات Le Chapelier (١٧ يونية ١٧٩١) على منع المنظمات العمالية ، ولذلك فقد جردت الطبقات الاجتماعية الغير مرغوب فيها والمشكوك فيها من سلاحها بحيث لم تستطع أن تنافس الامتيازات الجديدة . وقد استمر هذا المنع قرناً من الزمان حتى ظهور النقابات عام ١٨٨٧ ، وقد أوضح (بابوف) (١٧٦٠ - ١٧٩٧) حدود هذه الثورة التى أوجدت علاقات جديدة قائمة على الدفاع عن الملكية والحرية » ومنعها من أن تسود على مستوى غير المالكين . وقد كتب (بابوف) فى العدد ٣٤ من مجلته « منبر الشعب » (ما هى الثورة الفرنسية : هى حرب معلنة بين النبلاء والعامة ، وقد هاجم الفوضى الاقتصادية للنظام الحاكم عام ١٧٩٥ فى مقال « مظاهرة العامة فى العدد ٣٥ من مجلته « خطب الشعب » وأنكر « القانون البربرى الذى أملاه رأس المال »

وقد انتحر (بابوف) قبل أن يحكم عليه فى « فندوم » فى ٢٨ مايو ١٧٩٧ .

وقد وطد (نابليون) أركان النظام المسمى « الحرية » عن طريق الديكتاتورية . وقد كتب أحد وزراءه وهو « شامبنى Champign وهو أكبر الممثلين لأرستقراطية المال الجديدة ، كتب إلى (كونت دانتريج) وهو « مشرع » ظل على ولائه للنظام القديم قائلا « يلزمنا ملك يكون ملكاً لأننى صاحب أملاك » (خطاب فى ٢١ أغسطس ١٨٠١) .

وقد قنن نابليون بطريقة واضحة وأكثر منهجية فى « قانون نابليون » ١٨٠٤ مبادئ الملكية ومبدأ « دعهم يفعلوا » Laissez - Faire الذى تأسس فى عام ١٧٨٩ - وقد أوضح « لويس بلان » (١٨١٢-١٨٨٢) هذه الفكرة فى كتابه « تاريخ عشر سنوات » بقوله : « لقد واصل نابليون عمل الجمعية الدستورية . ولقد جند الطغيان المختفى تحت مبدأ « دعهم يفعلوا » باختصار ، لقد دعم كل ما يخدم بالأساس اليوم ما يعرف بالتسلط البرجوازى » .

وفى الواقع لقد ضرب نابليون المثل لهذه الحقيقة التى ظلت منذ « لويس فيليب

حتى نابليون الثالث وحتى « بينوشيه Pinochet وهى « التحرر الإقتصادى » دون الخلط بينه وبين حرية الإنسان التى تتفق مع نظام سياسى ديكتاتورى أكثر مما تتفق مع ديمقراطية » تغلفها ديكتاتورية المال .

ويمكن للنظام أيضا أن يجد مبرراته فى الدين كما وجدها فى الإلحاد ، وقد كان نابليون رائداً فى ذلك . وقد نقل « روديريه Roederer فى مذكراته هذا الاعتراف لنابليون وهو « إن أى مجتمع لا يمكن أن يقوم إلا على تفاوت الثروات، وتفاوت الثروات لا يمكن أن يوجد بدون الدين ، فعندما يموت إنسان من الجوع وإلى جانبه إنسان آخر طافح بالثروة فإنه لا يمكن أن يقبل بهذا التفاوت إذا لم تكن هناك سلطة تقول له : « إن الله هو الذى يريد ذلك ، لا بد أن يكون هناك فقراء وأغنياء ، ولكن بعد ذلك وعلى المدى الطويل سيكون لهذا التقسيم شأن آخر » . ولهذا فقد حظى هذا الملحد بمباركة البابا .

وهذه هى اللغة التى استخدمها « شاتوبريان » خلال عودة الملكيين حين قال : « إن حاله سياسية يكون فيها بعض الأفراد يملكون آلاف الملكيات والبعض الآخر يتضورون جوعاً ، حالة كهذه ، هل يمكن أن تستمر إذا لم يوجد الدين مع الآمال التى يحملها للناس فى عالم غير هذا العالم حتى يشرح لهم هذه التضحية؟ (١) .

وفى منتصف القرن التاسع عشر أعلن (لويس فويو ١٨١٣ - ١٨٨٣) أنه «عندما لا يؤمن المرء بالله ، يجب أن يكون مالكاً حتى يؤمن بالملكية » (وفى هذا السياق يجب أن نضع صيغة ماركس التى قالها ١٨٤٥ « الدين أفيون الشعوب») .

لقد نشأت الاشتراكية أولاً من التمرد على لا إنسانية نظام « الحرية الاقتصادية » حيث آمن بها كثير من المسيحيين الذين رفضوا أن يكونوا شركاء فى هذا النظام فمثلاً صاغ الأب « لاكوردير » مبدأ لا إنسانية الإنسان « بين القوى والضعيف تضطهد الحرية ويحرر القانون » .

لقد ولدت الإشتراكية من البحث عن هذا القانون الذى لا يمكن أن يسمح للإنسان بأن يصبح إنساناً ، وقد أخفقت الاشتراكية ثلاث مرات حتى الآن ! ففى

---

(١) (شاتو بريان - مذكرات قبر إضافى - مج ٦ ص ٤٥١ ط برمى) .

سنة ١٨٤٨م لم تكن سوى تمرد أمكن القضاء عليه فى ثلاثة أيام . وفى عام ١٨٧١ لم تستمر ثورة ضاحية باريس سوى ثلاثة أشهر سحقتها قوات « بسمارك» المتضامنة مع « تير » وقد حاصر الجيش البروسى باريس ثم أعاد بسمارك إلى «تير» الجنود المأسورين فى « سدان » نتيجة لخيانة « بازين » الذى طلب من قائد الجيوش البروسية أن يترك جيشه المحاصر يخرج من « سدان » ليتوصل إلى كفاح آخر محتمل فى باريس .

وقد تجدد الأمل فى الاتحاد السوفيتى مع ثورة أكتوبر ١٩١٧ لتستمر ٧٠ عاماً بعد ذلك : وظلت الثورة محاصرة منذ قيامها بناءً على رغبة « كليمنصو » و «تشرشل » اللذين أنشأ أول أعمال « سياسة الخط الحديدى الشائك » الذى سبق « حائط برلين » الذى حاول أن يجعله رداً على الشيوعية .

وقد استمر الحصار الرأسمالى منذ حماية الثوريين المضادين ١٩١٨ قبل «دينكين » و « رانجل » من جانب كل الحكومات الرأسمالية فى أوروبا حتى زمن الحرب الباردة ضد « امبراطورية الشر » وحتى « حرب النجوم » التى أعلنها « رونالد ريجان » ولم ينقطع سوى أربع سنوات عندما رأى الغرب فى « هتلر » أحسن سد فى وجه الثورة البلشفية وساعدوا فى وصوله إلى سدة الحكم حيث كانوا يمدونه حتى سنة ١٩٣٦ بالحديد والفضة والإمتيازات الضرورية (كما حدث فى ميونخ ١٩٣٨) وذلك حتى يساعدوه على القيام بمهمته فى ردع البلشفية . ولأن « هتلر » مثله فى ذلك مثل أسلافه لم يشأ أن يقع بين مطرقة الشرق وسندان الغرب فقد غزا فرنسا وقصف إنجلترا ولم يكن لهما ملاذ سوى الاتحاد السوفيتى الذى استمروا حلفاء له ، ولذلك فقد تحمل الإتحاد السوفيتى الغزو والاحتلال الشامل من جانب ثلث الجيش الألمانى ثم فى النهاية حررت أوروبا انطلاقاً من ستالنجراد وحتى برلين محطماً الجيش الألمانى ، وبينما دفع الاتحاد السوفيتى فى هذه الحرب أبهظ التكاليف من الضحايا (١٧ مليون قتيل) أغلقت الدائرة عليه منذ خطاب فولكون (لتشرشل) ١٩٤٦ الذى بدأ به الحرب الصليبية الجديدة .

ولقد خسر الاتحاد السوفيتى المعركة ، ليس بسبب الإفلاس العسكرى ولكن بسبب التدهور الاقتصادى والسياسى : ليس بسبب أنه اتبع تعاليم ماركس ولكن

لأنه خان هذه التعاليم ، لقد اعترف ماركس فى مؤتمر باريس أنه وجد « الشكل الذى عثر عليه أخيراً » للنظام الاشتراكى ، إن أهم ما امتازت به خلية باريس هى أنها على المستوى الاقتصادى ، إدارة يقودها العمال أنفسهم على مشاريعهم التى سيتركها ملاكها الرأسماليون الذين كانوا متحالفين مع ثورة « تير » المضادة للشيوعية .

وهذا هو النظام الذى أسماه « لينين » فى مقاله الأخير بصحيفة « برافدا » النظام التعاونى » والذى كان يعتبر بالنسبة له وقود الاشتراكية والذى سمى فى عام ١٩٦٨ « الإدارة الذاتية » وعلى الصعيد السياسى لم يكن ماركس منذ أن أنشأ « العالمية الأولى ١٨٦٨ » عن رفضه لمبدأ « الحزب الواحد » بل كان يريد أن يجمع فى تلك العالمية كل الأفكار والأيديولوجيات من أجل القضاء على الرأسمالية . وعندما أشاد « بالشكل الذى عثر عليه أخيراً » للنظام الاشتراكى من « البروديين » وأقلية من « البلنكستين » و « ماركسى واحد » .

أما على الصعيد القومى فإن الشيوعية قائمة على مبدأ « الفيدرالية » اللامركزية التى لا يمكن أن تتحقق إلا لأن باريس كانت منعزلة عن بقية فرنسا بواسطة الجيش البروسى (الألمانى) وجيش « فرساى » .

وكان المؤتمر الشيوعى العابر فى مرسيليا الذى عقده « كريميو » Cremieux قد وجد دون أدنى تدخل من مؤتمر باريس .

أما النظام السوفيتى فقد تكون على عكس تلك المبادئ : فقد اعتمد على مركزية صارمة لم تصادر فقط « الإدارة الذاتية .. والنظام التعاونى ولكنها فرضت قسراً ، نوعاً من العنف الدموى من خلال التوجه المركزى .

لقد صادر الحزب الواحد كل مبادرة من البداية وفرضت عقائدية مغلقة وقاتلة على كل المجالات من الاقتصاد إلى الدين إلى الفنون .

لقد صارت الفيدرالية شكلية ولا معنى لها بفضل مؤسستين : المركزية الصارمة والحزب الواحد .

ولكن ما هو أصل هذا الانحراف ؟

ودون أن ننسى الأسباب الخارجية وهى تشابك وتداخل مشاكل تنظيم الشيوعية منذ البداية ومشاكل التنمية فى بلد كانت الرأسمالية فيه متأخرة إذا ما قيست بأوروبا الغربية وكذلك تطويق الدول الرأسمالية ومقاطعتها وتدخلاتها التى أجبرت الاتحاد السوفيتى على أن يخطو خطوات واسعة فى التنمية الصناعية منذ وقت طويل متخطية شرق أوروبا وكذلك الخسارة البشرية والمادية فى حربها ضد هتلر . حيث تكبدت خسائر فادحة . كذلك فإن هذه الدولة (الاتحاد السوفيتى) فرضت عليها المنافسة فى سباق محموم من أجل التسليح وهذا النظام فرضته الولايات المتحدة وحلفائها إبان الحرب الباردة . كما أننا لا يمكن أن نغض الطرف عن الأسباب الداخلية .

بداية فإن القراءة الحرفية والمتطرفة لفكر ماركس والتى تدعى فرض نموذج من التطور على البلاد النامية ، هذه القراءة قد اختزلت القوانين المركسية لتطبقها فى موقف تاريخى مختلف تماماً .

١ - لقد صاغ ماركس قوانين التنمية الأفضل للرأسمالية المتقدمة فى عهده وهى الرأسمالية الإنجليزية ، حيث أقام علاقة حسابية بين الإستثمارات الموجهة لإنتاج أدوات الإنتاج تلك المخصصة لإنتاج المواد الإستهلاكية وهى نظرية النمو الوحيدة التى عاشت أكثر من قرن من الزمان .

وهناك أنظمة عقائدية جعلت من هذا القانون الوصفى للتنمية فى الرأسمالية الإنجليزية فى القرن التاسع عشر قانوناً معيارياً للتنمية الإشتراكية الروسية فى القرن العشرين وهو خطأ فادح عاق فيما بعد التفكير فى الإشتراكية من خلال غايتها وجعلت عقيدة الصناعات الثقيلة فى المقام الأول مما تمخض عنه لا إنسانية التصنيع المتوحش فى بداية القرن التاسع عشر فى إنجلترا وفرنسا .

وفى ظل ظروف التخلف الإقتصادى فى روسيا فى عام ١٩١٧ ثم إعادة البناء بعدما دمرته الحرب العالمية الثانية أصبح النمو الصناعى أولوية بل ضرورة تاريخية، حتى لا تسحق القوى الرأسمالية الإتحاد السوفيتى .

وأصبح الخراب الإنسانى واضحاً بعد الإنفصال الصناعى ١٩٣٧ ولكنه كان

مستتراً تحت ستار ضرورة المواجهة إبان الحرب ولم تشتعل ألوان التمرد الأولى فى ألمانيا والمجر ثم فى تشيكو سلوفاكيا إلا بعد إعادة المعمار .

٢ – ويعتمد الإنحراف الثانى عن مبادئ ماركس على الخلط بين الإشتراكية والقومية فقد كان ماركس يسخر من أولئك الذين كانوا يعرفون الإشتراكية بأنها التأميم قائلاً : « لو صح ذلك فإن بسمارك يعتبر أكبر أقطاب الإشتراكية فى أوربا لأنه أمم الوظائف ! » .

وقد عرف « لينين » فى مقاله الأخير فى صحيفة « برافدا » بعنوان « الحركة التعاونية » عرف الإشتراكية بأنها خلق شبكة من أوجه التعاون التى تدار ذاتياً . وفى الريف يجب أن تستغرق هذه الحركة من عشرة إلى عشرين سنة ويجب أن تتحقق على أساس التجارب الناجحة دون أن تقنع الفلاحين بقيمة النظام ، وبينما زعم لينين أنه سيفرض الشمولية على الزراعة فى بضع أشهر وبالطرق الجبرية فإنه وجه إلى الزراعة ضربة ما تزال إلى اليوم تئن تحت وطأتها .

إن امتلاك المجتمع لأدوات الإنتاج فى بلد ذى رأسمالية متأخرة قد قاد إلى تحقيق ثورة تصنيعية ليس من خلال القطاعات التعاونية ولكن من القمة أى بفضل التأميم والمركزية وبدل من أن يصبح هذا المشروع أداة لأنسنة الاقتصاد وتوجيه الإنتاج إلى إشباع الحاجات الإنسانية وليس إلى الربح أصبح على الخلاف من ذلك تنظيماً هرمياً ذا صبغة عسكرية دون أى مشاركة من جانب القاعدة الشعبية حيث امتلك التكنوقراطيون والبيروقراطيون وأعضاء جهاز الحزب ، كل السلطات وأصدروا القرارات باسم العمال الذين لم يستشرهم أحد وبطريقة صورية دون أى تأثير على التوجهات المركزية .

لقد كان هذا المفهوم لدور الدولة متناقضاً جذرياً مع مفهوم ماركس .

٣ – لقد اعتمد الانحراف الثالث الرئيسى على خلط التخطيط الذى لم يكن له إلا دور التوجيه بمنهج الإدارة من القمة محددين بذلك الإستثمارات والأسعار وحجم المنتجات والتوزيع التجارى وتداول السلطة من خلال بيروقراطية مركزية وأجهزة محلية تابعة لها .

لقد قاد هذا الإنحراف الثلاثى إلى فوضى إقتصادية وأحال الحرية إلى فوضى لقد كان أسوء ما فى نظام التنمية الإشتراكية هو الاقتباس من أسس الرأسمالية حسب الاعتقاد الغربى الذى يؤمن بنموذج أوحد للتنمية يخلط بين النمو الكمى الذى تسانده العلوم وتقنيات الغرب .

إن الذى مات مع الاتحاد السوفيتى ليس الماركسية ولكن شكلها الكاريكاتورى المأسوى .

على العكس من ذلك فإن مذهب ماركس لم يتحقق بشكل لائق .

وكذلك لم يتحقق من مذهب آدم سميث إلا التحريف للمبدأ القائل بالحرية الإقتصادية ، لقد كانت القضية الأساسية لآدم سميث هى « إذا ما بحث كل فرد عن مصلحته الشخصية سوف تتحقق السعادة العامة » هذا المبدأ تم نقده عبر قرنين من تجمع الثروة فى أيدى أقلية وسيادة البؤس والبطالة والحرمان على جزء كبير متزايد من البشرية ليس فقط فى البلاد التى كانت مستعمرة ولكن أيضاً فى البلاد المستعمرة قديماً وحديثاً .

إن القضية الأساسية عند ماركس هى أن الرأسمالية تخلق الثروات « ومن هنا لم يحبذها » ولكنها فى نفس الوقت تخلق البؤس عن طريق اللامساواة التى تتمخض عنها بالضرورة .

إن المحصلة المأسوية للنجاح المؤقت على الصعيد العالمى لنظرية التحرر الاقتصادى يمكن أن نصفه بصيغتين :

١ – عالم محطم حيث يتكلف النمو المادى فى الغرب ما يساوى خسائر هيروشيما كل يومين فى أربعة أخماس العالم .

٢ – عالم محطم حيث لا تزال فى الدول الغربية ترتفع معدلات العاطلين والمحرومين والبائسين .

فمن كان على حق ؟ آدم سميث أم كارل ماركس .

لقد حكم التاريخ : إن ما تميز به القرن العشرون هو إفلاس التحرر الإقتصادى وليس إفلاس الإشتراكية .

إن القرن الواحد والعشرين لن ينهض إلا إذا تخلى جذرياً عن المبادئ الأولى وإلا إذا عرف كيف يخلق صيغة جديدة من الإشتراكية (بصرف النظر عن الاسم الذى يمكن أن تحمله) حتى يخرج من الهمجية الحيوانية ، حيث صار الإنسان ذئباً يفترس أخاه الإنسان ، حتى ندخل فى تاريخ ذى توحد إنسانى وإلهى .

إن مثل هذه الإشتراكية مدعوة لخلق وحدة متناغمة للعالم من خلال التلقيح المتبادل لكل الثقافات ولا يمكن أن تولد من حضانة غربية وحيدة .

لقد كان لينين على حق حين ذكر أن فكر ماركس مستمد من ثلاثة مصادر :

* الفلسفة الألمانية .
* الاقتصاد السياسى الإنجليزى .
* الإشتراكية الفرنسية .

لقد اعتقد ماركس نفسه أن المسار التاريخى الذى يرسمه (الشيوعية البدائيه والعبودية والإقطاع والرأسمالية ثم الإشتراكية والشيوعية) لا يمكن أن يطبق إلا على حضارات دول حوض البحر الأبيض المتوسط مع الأخذ فى الاعتبار إحترام الخصوصيات الجرمانية .

وما فتئ ينتقد القراءات العقائدية أو بمعنى أصح المتطرفة لأعماله فقد ثار مثلاً ضد تفسير كهذا لكتاباته قام به صحفى روسى هو ميخائيل فسكى حيث كتب فى عام ١٨٧٧ إلى مدير المجلة قائلاً : « إن ناقدى شعر أنه مضطر لتغيير نظرتى التاريخية لأصل الرأسمالية فى أوربا الغربية بجعلها نظرية تاريخية فلسفية للمسار العام المحكوم بالقدر أو المحتوم قدراً على كل شعب مهما كانت الظروف التاريخية التى يعيشها هذا الشعب بطريقة يمكن معها الوصول إلى شكل إقتصاد يؤدى عن طريق ظهور القوى المنتجة للعمل الإجتماعى إلى التنمية الأكثر تكاملاً للإنسان ولكننى أستميحه عذراً ، فلقد شرفنى ما قال وأشعرنى فى نفس الوقت بالحرج » .

وفى خطاب إلى « ڤيرا زاسولتش » فى الثامن من مارس ١٨٨١ قال : أنه لا يعرف المزاعم الماركسية الروسية التى لا تأخذ فى الاعتبار التنمية التاريخية الخاصة لبلادها لاسيما وجود منظمات شعبية يمكن من خلالها إيجاد إشتراكية لا تنشأ من التناقض مع الرأسمالية المتطورة كما فى إنجلترا وقد أوضح أن خطه البيانى كان «بصراحة منحصراً فى بلاد أوربا الغربية » .

وقد ذكر عدة مرات خاصة فى مقدمة كتابه « مساهمة فى نقد الإقتصاد السياسى» تنوعيه « لنمط الإنتاج الأسيوى » الذى درسه من خلال دراسة حول المجتمع الهندى ، وقد استبعد المنظرون السوفيت هذه الملاحظات باعتبارها « مضادة للماركسية » من خلال مناقشات « تفليسى ولينجراد » فى عامى ١٩٣٠ ، ١٩٣١ بينما أثار ماركس (من خلال المعارف الفقيرة التى كان يمكن تحصيلها عن الحضارات غير الغربية) دراسة « أشكال الإنتاج قبل الرأسمالية وأنماط الملكية » فى كتابه « مبادئ نقد الاقتصاد السياسى » من ١٨٥٧ إلى ١٨٥٨ [١] .

ومهما يكن الرأى الذى يمكن أن نراه حول « المد الخارجى لنظرياته عن طريق ماو - تسى - تونج الذى اعتمده صراحة موضحاً « المصادر الغربية الثلاثة لماركس، وجدلية « تاو » بجانب جدليات الفلسفة الألمانية والأخلاق الكونفوشية معارضاً بذلك « حرية السوق » لآدم سميث ، ولا يمكن للمرء أن يعتبر مظاهرات التمرد التى قام بها الفلاحون الصينيون ضد الاشتراكية الفرنسية نوعاً من « مناهضة الماركسية ، بل على العكس يمكن اعتبارها مساندة للاشتراكية وذلك لعدم اعتبار الماركسية فلسفة للتاريخ مثل فلسفة « هيجل » الذى لم يتناول فى فلسفته للتاريخ أى شىء عن الفكر غير الغربى وبدأ مباشرة بالفلسفة اليونانية .

وتبدو اليوم ضرورة مناقشة الثقافة والحضارة الغربية ونظرياتها ودورها الهدام للحضارات الأخرى من خلال الفكرة الملعونة المعروفة « بالشعب المختار » (التى تقتضى رفض الآخر وحتى استئصاله) . وقد تمسك الغرب بتلك الفكرة لينكر ويدمر الأشكال البشرية الأخرى . وكان لإنهياره الأخير أثره الخطير على مستقبل البشرية جمعاء.

---

(١) (انظر - ماركس - الأعمال الكاملة - الاقتصاد - مج ٢ ص ٣١٢ إلى ٣٣٥٥ ط. البلياد)

لقد ساد العصر أحادية ثقافية فى انشقاقه وكذلك سيادته . وقد حان الوقت لحوار الحضارات إذا أرادت الإنسانية أن تكمل الحلقة التاريخية من تاريخها دون أن تموت . لقد كانت الحلقة الأولى هى ميلاد الإنسان وظهور الآلة . وكانت الحلقة الثانية هى ظهور الحضارة بفضل ظهور الزراعة .

والحلقة الثالثة هى استعمال الذرة فى داخل المادة واستعمال الجينات فى قلب الحياة ، لقد امتلك الإنسان شيئاً فشيئاً القدرة على تدمير كل إنجازاته السابقة فعنده القوة التقنية باستغلال الجينات على أن يعيد الإنسان إلى حالته الحيوانية قبل ظهور الآلة ، وعنده أيضاً القوة التقنية عن طريق استغلال الذرة أن يمحو كل أشكال الحياة على وجه الأرض ، إن أحلام « ديكارت » و « نيتشة » فى السيطرة على الطبيعة تؤدى إلى تدنيس العالم من أجل زيادة الموارد الطبيعية .

لقد أدت عقائد « آدم سميث » إلى تحويل الإنسان إلى إنسان آلى (ريموت) يطمع فى استغلال العقول والقلوب .

لقد أقامت حضارات أخرى فى أسيا وأمريكا الهندية وإفريقيا والإسلام علاقات مع الطبيعة والإنسان والله .

إن القضية المثارة على صعيد كوكبى لا بد أن تحل بشكل كوكبى .

إننا لن نستطيع أن نحل هذه المشاكل إلا إذا توصلنا إلى إعادة خلق النسيج البشرى الذى مزقته أربع قرون من الاستعمار والسيطرة الغربية ، إننا لن نحل تلك المشاكل إلا إذا استطعنا أن ننمى حوار حضارات حقيقى بين كل ثقافات العالم .

والهدف الرئيسى من حوار الحضارات هو أن نساهم فى اشعار الناس ، ليس فقط المتخصصين والفلاسفة ولكن أيضاً على مستوى الكتل البشرية العميقة بما يطرح اليوم من مشكلات عالمية والتى نتج أكثرها من طول فترة السيطرة الغربية ، أن نقول لهم إن هذه المشكلات لا يمكن حلها إلا بالتحاور مع الحضارات غير

الغربية حتى نعيد إقامة علاقات بين الإنسان والطبيعة ، بين الإنسان والإنسان ، بين الإنسان والمقدس .

وهكذا فقط يمكن أن نخلق مفهوماً للثقافة الكوكبية ، التي تقيم وحدة إنسانية حقيقية ليس على أساس الترابط الإلكتروني ولكن على أساس مفهوم غير تسلطي بل متناغم ثقافياً .

* * *

الفصل السادس

أوهام وأكاذيب الغرب

الفصل السادس
أوهام وأكاذيب الغرب

هذا هو أسهل الطرق بالنسبة لشعوب رزحت لفترة طويلة تحت نير الاستعمار الغربى حتى تهرب أخيراً من قوانين التنمية الغربية التى تهدد ثقافتها الذاتية وهو تهديد فرضه الاستعمار ليس المراد أبداً هو قطع العلاقات مع الغرب ولكن المطلوب هو إعطاء هذه العلاقات المكانة اللائقة بها ، أقول المكانة اللازمة ولا شىء غيرها وخاصة بتوجيه قوى العلم والتكنولوجيا إلى غايات إنسانية خالصة .

وهكذا فقط يمكن أن نواصل الملحمة البشرية التى بدأت منذ ثلاثة ملايين سنة.

وقد كتب رائد فضاء وطأت قدمه أرض القمر عند عودته قائلاً « لقد رأيت الأرض من هنا جميلة ومضيئة . لقد رأيتها أرضا واحدة هادئة » . وقد كانت هذه هى المرة الأولى التى ترى فيها عين بشرية الأرض فى شموليتها ، بلا حدود وفى مجال فسيح دون أفق ضيق .

هل يمكننا أن نتوصل إلى إدراك ذلك عبر الزمن ؟ أى فى وحدة تاريخها ؟ أى منذ فجر الحضارات الأولى ، ومنذ أول توهج للفكر والحب وحتى أملنا فى مشروعنا للوحدة الإنسانية .

إن ذلك ممكن من الآن حتى نغير العلاقات الإجتماعية بشكل جذرى .

* حتى نخلق تنمية جديدة لا تكون تلك التنمية التى تطحن الناس وحرياتهم، تنمية جديدة لا تقود إلى مزيد من الخسائر من « توازن الضعف » الذى يهدد سلام وأمن الشعوب . أن نأمل فى تطور تحلم به الأم لإبنها ويحلم به كل منا لمن يحبه . تطور وتنمية مثل تلك التى كان يقصدها « سان جرجوار دى نيس » حين كتب يقول : « إن الله هو الاكتشاف الأزلى للتطور الأزلى » .

* بفتح أوربا أمام العالم وخاصة « العالم الثالث مصغين إلى الثقافات الأخرى ،

لأن المشاكل التى تثار على أساس النموذج الغربى للتطور والتنمية تثار على صعيد كوكبى ولا يمكن أن تحل إلا بتشاور كوكبى مع شعوب وثقافات وحكم العوالم الثلاثة ، وهذا أهم شروط السلام الحقيقى أى السلام بلا ظلم ولا هيمنة .

* أن نغير التعليم جذرياً بأن يكون هدفه ليس تعليم الإنسان بأن يكون هدفه حاجات النظام القائم ولكن أن يعلمه كيف يخلق المستقبل : ومن أجل ذلك يجب أن نعلم الطفل أن العالم ليس حقيقة ثابتة لا تقبل التعديل

إن أولى مهام العقلاء والمثقفين هى كشف اللغة الكاذبة الموجودة فى الكتب المدرسية وفى وسائل الإعلام تلك التى تخدم الغرب فى فرض سيطرته بالأيديولوجيات الخادعة لحداثته .

وليست هناك أى نظرية من نظريات إدعاء الحداثة إلا وهى كذبة كبيرة .

فلنبدأ بالديمقراطية والدفاع عن حقوق الإنسان والحرية

فلقد كانت الديمقراطية دائماً غطاءً لأملاك أباطرة الثروة الأقلية للعقارات والعبيد وما يسمى الديمقراطية الأثينية زمن « بركليس » والتى تعلن على أنها مثل يحتذى (باعتبارها أم الديمقراطيات) كانت حكم ... مواطن حر على ١٠٠٠٠٠ مواطن عبيد مجردين من جميع الحقوق . ولذلك فقد كانت استعباداً وتحكماً تحت اسم « الديمقراطية » .

فهى ديمقراطية للسادة وليست للجميع .

أما إعلان استقلال الولايات المتحدة والذى أعلن مساواة الناس فى جميع الحقوق . فقد مارست الولايات المتحدة بعد هذا الإعلان العبودية لأكثر من قرن من الزمان وما زالت تمارس التفرقة العنصرية ضد السود حتى يومنا هذا .

فهى ديمقراطية للبيض وليست للسود .

وحتى إعلان الثورة الفرنسية العالمى لحقوق الإنسان والمواطن يؤكد صراحة على « أن كل البشر ولدوا أحراراً ومتساوين فى الحقوق » ولكن دستور دافعى

الضرائب والذى يعد مدخلاً لهذا الإعلان يحرم ثلاثة أرباع الفرنسين من حق الانتخاب لأن فقرهم جعل منهم « مواطنين سلبيين » .

فهى ديمقراطية للأغنياء لا للفقراء .

ونفس الأمر بالنسبة لحقوق الإنسان .

فلقد كتبت تلك الحقوق ضمن الإعلان العالمى لحقوق الإنسان « الصادر عن الأمم المتحدة فى عام ١٩٤٨ .

وكل هذا الكلام مجرد من الحقيقة حين نربطه بالواقع ولنأخذ مثالين فقط على ذلك :

- ماذا يعنى « الإعلان عن حق العمل » إذا كان النظام العالمى يتمخض عن ملايين العاطلين وما زال العدد فى ازدياد ؟

- ماذا يعنى إعلان « حق الانتخاب » ما دامت ورقة النقد قد حلت محل بطاقة الاقتراع منذ وقت طويل ؟

ليس فقط لأنه فى الولايات المتحدة يلزم مبلغ ٥٠٠ مليون دولار لتسير حملة انتخابية « لسيناتور » أو « نائب » . ولكن لأن الترف فى العالم كله يسمح بشراء الوسيلتين الأساسيتين للسلطة : وسائل الإعلام للتأثير على الرأى العام ، وصناعات التسليح لإقناع الناس حين لا يكون هناك حل آخر .

ومن العجب أن هذا الإعلان عالمى !

إن كل الناس يمكنهم أن يعلنوا حقوقاً للإنسان مثل : المساواة التامة أمام القانون أو أن العاطل والمليونير كلاهما له الحق فى أن ينشأ جريدة أو قناة تليفزيون وهذه المساواة أمام القانون هى التى تمنع المليونير والعاطل من سرقة رغيف خبز فلسوف يلقون نفس الجزاء .

إنه لمن الملفت للنظر أن الذين ينصبون من أنفسهم « مدافعين عن حقوق الإنسان على مستوى العالم مثل (مجموعة السبع) (وهى السبع دول الأغنى فى العالم) التى اجتمعت فى ليون ١٩٩٦ وكان زعماؤها الذين اجتمعوا لمحاربة الإرهاب

وقد اجتمعوا تحت قيادة زعماء الولايات المتحدة هم أخطر الإرهابيين فى العالم وأكثر المنتهكين لحقوق الإنسان ، ليس فقط بسبب ماضيهم البعيد (مذابح الهنود الحمر فى أمريكا ومعاملة العبيد السود والاستعمار بصفة عامة) ولكن بسبب جرائمهم القريبة مثل حرق فيتنام بالنابالم فيما يشبه يوم القيامة ، وإمداد سفاحى رواندا بالمال والسلاح والمعلومات ، هؤلاء السفاحون المسؤلون عن قتل ٤٠٠٠٠٠ وكذلك فهم مسؤلون عن موت ٢٥٠٠٠٠ طفل فى المستشفيات فى أقل من خمس سنوات (وهذا رقم أعلنته منظمة الصحة العالمية) وعن عدد مماثل من القتلى نتيجة استمرار الحصار على العراق ولن نكرر مرة ثانية نموذج النمو «الليبرالى » الذى تفرضه على بقية العالم هو مساو فى خسائره للبشرية كما حدث فى هيروشيما كل يومين .

إن جهابذة الأخلاق هؤلاء يعطون العالم أكثر نماذج التطرف أصالة .

إن التطرف هو إدعاء امتلاك الحقيقة المطلقة وبالتالى الاستئثار بحق (وحتى واجب) فرضها على الآخرين ، وأعظم أمثلة التطرف خطراً هو الاستعمار حيث الحُجة الأيديولوچية المزدوجة وهى « التبشير » وذلك حتى يفرض على العالم مفهومه الدينى بينما يتكفل العسكريون والتجار بالباقى أى بالمذابح والاستغلال . ومع نفس المنفذين حين ينسحب الدين ويتقهقر يحملون إلى العالم « نظرية الحداثة» .

وحينما توحد الاستعمار تحت قيادة الولايات المتحدة فى ظل « النظام العالمى الجديد » لم يكن ذلك سوى استمرار للفوضى الاستعمارية باسم « التحرر الإقتصادى الشامل حيث أصبحت السيطرة على العالم وإبادته أكثر فاعلية ولكن بالطرق الإقتصادية (دون استبعاد التدمير العسكرى) . فبعد زوال نظام التفرقة العنصرية فى جنوب إفريقيا أصبحت الصهيونية الإسرائيلية وهى أعظم حلفاء هذا النظام آخر ممثلى الاستعمار القديم أى الاستعمار العنصرى .

وكل مظاهر التطرف التى ظهرت بعد ذلك كانت تمرداً على هذا التطرف

الأصولى من جانب الغرب وحلفاءه (من إسرائيل حتى المملكة العربية السعودية ومن إيران الشاه إلى زائير موبوتو) .

لقد كانت الثورة الثقافية فى الصين هى المثال الأول على القطيعة مع الغرب ومبادئه من القمع الشامل حتى بتهوفن الموسيقى البرجوازى) .

وقد مثل نظام الخومينى فى إيران ظاهرة مشابهة من الرفض لنمط الحياة (وكذلك التعذيب والموت) الغريب على ثقافته الممتدة عبر آلاف السنين .

إن كل أشكال التطرف الأخرى (بكل مظاهرها وجذورها) تعتبر رد فعل على التطرف الأصولى للغرب من أجل الدفاع عن هويتها ، ورد الفعل هذا غالباً ما يكون سلفياً لأنه يحلم فى مواجهة الغزو الثقافى بعصر ذهبى غابر ليواجه به هذا العدوان ، ونادراً ما يتطلع نحو مشروع حقيقى للمستقبل .

* * *

الفصل السابع

الحضارة والإيمان بالعوالم الأخرى

عقائد التحرر

الفصل السابع
الحضارة والإيمان بالعوالم الأخرى
عقائد التحرر

إن أحد أصعب المشاكل على الحل والاكتشاف فى البلاد غير الغربية هى المبادئ المؤسسة للتنمية ، تنمية الإنسان وليس تنمية الموارد ، وهى أن نجد فى الثقافات والحضارات التى توقفت عن التطور بسبب خمسة قرون من الاستعمار ، الأشياء التى صنعت عظمتها الأولى والتى يمكن أن نتعلمها اليوم لنبنى حضارة قائمة على علاقات أخرى مع الطبيعة ومع البشر ومع الله .

أولاً فيما يخص علاقتنا مع الطبيعة : فبدلاً من أن نعتبرها فقط مخزوناً ومستودعاً ، مخزوناً يمكننا أن نستخلص منه طاقات متحجرة ومواد أولية ، ومستودعاً لحثالاتنا ، يجب أن نستعيد الشعور بأن الطبيعة لا تنتمى إلينا بل نحن الذين ننتمى إليها .

ولقد قال لى أحد الأصدقاء الأفارقة السود يوماً ما : « إن الطبيعة تخص مجموعة كبيرة مات كثير من أعضاءها ، ويعيش الآن آخرون كثيرون ، وآخرون لم يولدوا بعد ، إننا مسؤلون عن كل شىء وعن كل الناس » .

وماذا عنا ؟ هل فكرنا فى ذرياتنا الذين سيتحتم عليهم أن يواجهوا إشعاعات نفاياتنا النووية ؟

وقد قال زعيم من زعماء الهند الأمريكين من منطقة نهر اللبن River Milk للمثلين الأمريكين الذين أجبروه على توقيع عقد التنازل عن الأرض الواقعة قرب حدود مونتانا فأجابهم قائلاً : « لوقت طويل سوف تظل الشمس تشرق ويظل الماء يجرى ، وستظل الأرض هنا لتمنح الحياة للبشر والحيوانات ، قد تظنون أن الخالق جل وعلا أرسلكم لتسيطروا علينا حسب إرادتكم . . . ولكن أفهموا جيداً

سبب حبى للأرض . فأنا لم أقل أن الأرض أرضى بمعنى أننى استغلها كما أريد . فإن الأرض هنا من وضع الروح القدس ولذلك فإننا لا نستطيع بيعها لأنها ليست ملكنا » .

كيف أصبح داخلنا احترام الطبيعة والله ، فى ظل نظام يباع فيه كل شىء ويشترى؟ وفى إحدى لوحات الرسم الصينى من عهد أسرة سونج (القرن الثالث عشر) تحضرنا صورة « تاو » (الكائن الواحد مع كل شىء) وتعطينا تشابكات الأنهار والجبال والسحب والأشجار وهذه الشخصية البشرية الخاملة الذكر بين تدفق الأشكال الأخرى ، كل ذلك يعطينا الإحساس أنه ليس فقط العين الهندسية الغربية هى التى تحدد إطار اللوحة « فالمناظر الطبيعية رمز مرئى للعالم أجمع مع قوى تعيش خارج اللوحة وتفرقنا فى نوع من التوحد الكونى قريب الشبه من الصلاة لدى خطاطى اللانهائى .

ماذا بقى فى حياتنا (وفى فنوننا المعاصرة) من هذا الشعور المحيطى ؟

وفى علاقتنا بالآخرين فإننا محتاجون بعيداً عن « الأنا » الصغيرة والتى هى مركز ومقياس كل شىء إلى معنى الوحدة أى إلى تكاملية إنسانية يشعر فيها كل فرد أنه مسئول عن مصير الآخرين كلهم .

ولقد أقنعتنى بذلك تلك التجربة التى استمرت لأربعة أشهر فى ضيعة «باسارى» الصغيرة على حدود غينيا والسنغال وعلى بعد ١٠٠ كيلو متر من الساحل حيث لا يعيش أحد لا مسيحى ولا مسلم ولكن يعيش الذين نسميهم « إحيائيين » وذلك لعدم معرفتنا بالكلمة المناسبة وكذلك فى باريس ، فإن مقابلة جماعات المهاجرين المغاربة أو السنغالين أوضحت لنا أنه يتحتم علينا أن نتعلم منهم ، بينما المساعدة البشرية والوحدة الإنسانية النابعين من « ألوان الكرم » الدستورية التابعة لصندوق النقد الدولى » والمنظمات الأخرى لا تقول ذلك .

وفى علاقتنا بالله فإننا محتاجون إلى الإيمان بالآخرين وبشكوكهم وبما يكذبونه وذلك حتى ننزع فكرة آلهة القوة ، وهؤلاء الملوك الذين ينشرون الصاعقة مثل «زيوس » و « چوبتر » أو إله الحروب مثل « يافا وكذلك كل الأصنام التجسيمية،

والآلهة الفعلية المعرفية مثل « أثينا » أو الآلهة الجزئيين الذين يمنحون النصر ويأمرون بالمذابح من أجل حماية « الشعب المختار » فى حربه ضد الآخرين وهو إله قضى ووعد بالنار من عصى قوانينه وبالجنة من خضع لها .

لقد قام المسيحى الأسيوى ليؤمن بالله بعجز وإملاق وفى انقطاع تام مع كل الآلهة القديمة ومتأثراً بصدى كل حكم الشرق المتمثلة فى « الفيدا » التى كتبت منذ القرن الثانى قبل الميلاد والتى استطاع حكيم هندى أن يلخصها بقوله : « إن ديننا الفيدى الأزلى هو مصدر كل الأديان وكل الثقافات وكل الحضارات » .

وقد قال الأب اليسوعى : « مونشا نان » عن تعاليم « الفيدا » أنها « النشيد الشعائرى المطلق » (١) . معلناً بذلك أن الوحدة الإلهية مع العالم والوحدة البشرية مع الله « هذه الأسماء متعددة ولكن الله واحد » وذلك حسب نشيد « رج فيدا » (١٠-١٤٥) وهو تسبيح بالوحدة الإلهية والوحدة مع الكل لأكثر من قرن مع روحانية أخرى تماماً (٢) .

إن أناشيد « الفيدا » وتعليقاتها فى « الأبانشيد » بعد عدة قرون توضح نفس النظرة التى تحكم على الإنسان الذى يسكنه الله بالضعف أمام قدرة الله « أنت هكذا » أى أن « البراهاما » (وحده الكل والتى نسميها الله) تشمل كل شىء فى الإنسان فإن (الأنا العميقة فى كل منا تتوحد مع الله .

إن البراهما » (الإله) خارج الموجود واللا موجود . . . إنه داخل كل شىء وخارج كل شىء مثل المملكة التى أعلنها المسيح ، تلك المملكة التى لا يدخلها أحد بالغزو ولكن بالتنسك وهذه أيضا تعاليم « القديسين » من متزهدى الهند التى تتطلب التخلى عن كل ما يخص الإنسان وعن كل ما يملكه ، وعن غرائزنا الجزئية والمشاريع التى نعتقد أنها ستكفينا ، حتى نكون واحداً مع الحقيقة الأزلية للعالم ، هذه الوحدة المطلقة غير القابلة للتجزئة (الكائن ، والضمير ، والسعادة السامية ، أى وحدة : الأب ، التى لا تقبل التجزئة : كلام الله ، « والابن » الذى أصبح مرئياً بحياته وكلامه وفعله وكل ما يمكن أن نعرفه عن إله غير مرئى

---

(١) الأب چيل مونشانان (صوفية الهند والغموض المسيحى « ط فايار ١٩٧٤م) .

(٢) أناشيد (١ ، ١٦٤ ، ١٧٠ ، ٥ ، ٥ ، ٣) .

ونحتفى ، أى حضور الله ، « والروح القدس » الذى جعل من كل إنسان وعداً لهذا الرب الذى تجسد فى إنسان من أجل أن يستطيع الإنسان أن يصبح إلها ، كما كان يقول آباء الشرق .

الحالة التى يستطيع المرء فيها تحقيق قرب من الله والولوج إلى كل شىء بالوحدة مع الله هى الهدف السامى وتحقيق الإنسانية فى أبهى صورها « ربندرانت طاغور (١٨٦٧-١٩٤١) .

وهذه أيضاً كانت رسالة التاؤية الصينية التى تستبعد كل ازدواجية « كل الكائنات وأنا من أصل واحد » كما كتب « تشوبانج تسو » فى القرن الرابع قبل الميلاد فكل المخلوقات واحد وينصهرون فى الكل العظيم « كائن واحد مع الجميع ».

هذه الصوفية هى المفهوم الداخلى لكل حدث إنسانى أى لا تتطلب إلا وظيفة الجميع ومفرغاً Knenose أصول الدين من كل رغبة جزئية ، سواءاً أكانت لصالح شخص أو لصالح جماعة صغيرة من عرق أو أمة أو كنيسة أو حزب . وهذا المفهوم يخالف المفهوم القبلى للشعب المختار » فى العهد القديم والذى عارضه المسيح بشدة .

هذه هى النهضة التى كان « بوذا » أعظم شهودها .

لقد قصدت عن عمد أن أسوق هذا الاقتباس من حكم السابقين مع رسالة حياة وموت المسيح لأنه كان الرسول الأكثر قرباً منا ومن الإيمان الوحيد للبشر حيث جسد هذه الحكمة فى شخص واحد فى شخص ينقل إلينا حبه ويعطى لحياتنا معنى وكذلك كان موته بعثاً لنا ، لقد أوجدنا . وكما قال روجانى بيزنطى فى القرن الرابع عشر « أنا أحب إذاً أنا موجود » .

لقد كان عيسى بداية يعنى الخروج من سجن النفس وكذلك الخروج من مظاهرنا الخارجية ، والانقطاع التام مع العهد القديم الذى انتهك كل القوانين ومن ناحية أخرى فإن كل الذى وصل إلينا منذ القديس بولس من تعاليم لا يتفق مع حياته عليه السلام ولا مع كلامه ولا مع تصرفاته ، ولم يتعلق من هذه التعاليم شىء بحياته إلا منذ موته حين جعلوا من موته « علامة على النصر »

وعلى قيامته حيث كان معجزة تدل على قدرة الله حتى يلقى تعاليمه السابقة على الأناجيل الأربعة المتوافقة الشاهدة على إعادة هذه الحياة من خلال بعض فقرات العهد القديم من أنه لم يأت بأى جديد حيث يقول (إن الأنبياء وموسى قد قالوا عن كل ما سيحدث وأنا لم أت بجديد » (الفصول ٢٦ ، ٢٢) وذلك كما لو كان المسيح قد اكتفى بأن يمثل سيناريو كتبه له الأنبياء سلفاً .

فالمسيح الذى يتحدث عنه بولس ليس هو يسوع .

فالمسيح هو الترجمة اليونانية لكلمة « المسيح » اليهودى الذى لا بد أنه سيعيد بناء مملكة داوود يجب إذن أن يكون من سلالة داود ومتمماً لعمله ، وأن يكون قائداً لجماعة المرتزقة التى حكت عنهم أسفار « صموئيل » و « الملوك » وعما ارتكبوه من مذابح وأعمال دنيئة .

لم يكن المسيح إذاً داوود جديداً ، ولم يكن إبناً لإله الحرب . ولم يكن الحب الذى حمله إلينا تخليصاً لثأر العهد القديم ولا هو التضامن القبلى المذكور فى سفر اللاويين (٩ ، ١٨) حيث يجب أن يحب كل منا الآخر فيما يخص تحديداً البناء القبلية الواحدة كما أثبت التلمود .

« فعندما علق على كلمة « المستقبل » فى إطار التشريع التوراتى ، أوضح التلمود أنها أحياناً تتنوع لتشمل الإسرائيلين وذلك باستبعاد أصحاب الحضارات الأخرى ولكن لأن النص المكتوب يتطلب ذلك التأويل .

ويقول يسوع فى (انجيل يوحنا ١٣ ، ٣٤) إن هذا سيصير قيادة جديدة وذلك لأنه لم يقتفى أثر تعاليم موسى .

هذا التحول من « الحضيض الأسفل » إلى « أعلى عليين » ومن قائد حرب على طريقة داوود وجوزويه (بولس وحده هو الذى تجرأ وأعطى المثال والقدوة لقتل الكنعانيين كوعد سابق بانتصارات أخرى (فصول ١٣ ، ١٦ ، ١٩) كل هذا جعل من المسيحية يهودية معدلة ومن عيسى تنفيذ وعد الرب « بالشعب المختار » .

لقد محيت النزعة التجديدية لرسالة يسوع بسبب تحول حياته الفقيرة والمسكينة إلى المهمة المجيدة للمسيح وذلك حتى يضع نهاية منتصرة للتاريخ اليهودى .

وقد كتب أحد المفسرين الكبار للإنجيل « رود » فى العقلية الشعبية (مؤسس المسيحية ط . سو« ١٩٧٢ ، ص ١٠٨ إن المسيحية كانت قد اتخذت شكلاً من أشكال التعاون مع الدور السياسى والعسكرى « لابن داوود » ، وكان لعب هذا الدور هو آخر شيء يريده يسوع المسيح .

ويضيف فى كتابه « أمثال مملكة الرب » .

« إن كلام يسوع لم يكن له أى وجه شبه مع التعاليم اليهودية . . . فوظيفة الواعظ التى كان يسوع يقوم بها لا يمكن أن تعتبر محاولة لإصلاح اليهودية . لقد جاء بشيء جديد تماماً لا يمكن أن يتفق مع النظام التقليدى (ص ٤٢ ، ٤٩) .

وقال مفسر آخر كان أكثر تطرفا وهو « إثلرت شنوفر » من كلية اللاهوت » لقد أعلن يسوع عن رسالة جديدة للرب ، أعلن عن دين جديد وأخلاق جديدة لا علاقة لها بالتوراة « الترجمة الإنجليزية لندن ١٩٦٠ « يسوع المسيح وتاريخه ».

وقد كتب عالم لاهوت آخر هو « جونزالس فوس » قائلا : « إن الله الذى حدثنا عنه يسوع المسيح ليس هو إله العهد القديم « صعود المسيح » ط سيجيم سلمنكا ١٩٩١ (ص١٩١) ويعتبر بولس حين جدد المسيحية بأن جعلها يهودية جديدة يعتبر بذلك مؤسس كل أصول السيطرة المتمثلة فى « القسطنطينية » حيث ربط الكنيسة بالسلطة منذ القرن الرابع ومروراً بالحروب الصليبية ومحاكم التفتيش والاستعمار المتنكر فى ثوب « الاستشراق » وكذلك التحالف مع فرانكو وكذلك مع تبيان وعودة الملكية التى تتعارض مع الاستهلالات النبوية للفاتيكان الثانى وكذلك إدانة أصول الدين الخاصة بالتحرر والتى كانت أحد الآمال العظيمة لعصرنا لأنها احتفظت بالسمو الإلهى دون أن تفكر فيه بشكل خارجى ينزع من الإنسان مسؤلياته تجاه إله ينظم من الخارج ومن الأعلى مصير البشر .

إن التجارب التاريخية لتكوين اشتراكية تحت المسمى المغتصب للماركسية قد فشلت . وبصرف النظر عن أخطاء البشر فإن الخطأ التاريخى الرئيسى هى ما كان يعرف « بالاشتراكية التاريخية » والتى كانت تزعم أنه من الممكن تحرير الإنسان بتجريد بعده السموى .

إن أصول الدين التحررية لم تشارك فى ذلك المفهوم المجتزء للإنسان وإن تلك

الأصول تنطلق من التأكيد على أن كل معركة للتحرر تحتاج إلى كثير من السمو أكثر مما تحتاج إلى الجبرية . ولذلك فقد فتحت طريقاً غير مكتوب أمام اتحاد لا ينفصم بين الإيمان والتاريخ .

وبحركة أخرى فقد ذكرت هذه الأصول البعض بالبعد السموى للتاريخ وذكرت الآخرين بالبعد التاريخى للسمو .

وبذلك فقد تخطت ثنائيتين مقلوبتين ومتناظرتين أغلقتا الطريق نحو التحرر الكوكبى للإنسان : وهى الإيمان بالسمو كمظهر خارجى أخروى وبخس قيمة الصراعات التاريخية للبشر والالتزام بالتاريخ دون مرجعية مطلقة .

هذه التجزئة المزدوجة قادت إلى ضعف مزدوج فى الغرب . وهو ضعف المسيحية ، إذا غضضنا الطرف تاريخياً عن الحركات الحقيقية لتحرر البشر ، وكذلك تمخضت عن إفلاس الذين كانوا يحاربون فى تاريخ مغلق .

إن مبادئ حركة التحرر هذه مثلت أكبر الجهود المعاصرة لوضع نهاية لهذا الطلاق بين المادة والروح .

ولم يكن من قبيل المصادفة التاريخية أن مبادئ حركة التحرر هذه قد نشأت فى البلاد التى كانت مستعمرة قديماً فى أمريكا اللاتينية ، وعلى تربة بشرية التقت فيها جماعات مؤسسة ، حيث أصبح فى موضع اليقين بين المعدمين أنه أن تكون فقيراً فإنك لا تساوى شىء ومفهوم الحب الذى يعد تجريداً لمأساة سحق الملايين من البشر كشرط أساسى للثراء الفاحش للبعض قد كرس الوضع الراهن .

ومنذ هذا الموقف التاريخى الحقيقى الذى ظهر فى أكثر صوره حدة فى أمريكا اللاتينية وفى أفريقيا فإن منظرى حركات التحرر فى كنيسة اصطلحت مع الفاتيكان الثانى والبابا يوحنا الثالث والعشرين قد انفتحوا على العالم من أجل أن يخدموه لا أن يسيطروا عليه وهؤلاء قد أخذوا على عاتقهم أن يفكوا رموز هذا العالم فى ضوء تعاليم المسيح وذلك من أجل الذين يريدون أتباعه وهى . أن يتنكروا لكل ما يملكونه ليس فقط لمساعدة الفقراء ولكن ليجعلوا من أنفسهم فقراء بين الفقراء، وفقراء بالمعنى العميق للكلمة ومضطهدين عضوياً من قبل القوى المسيطرة ومقهورين معنوياً بالأيديولوجيات السائدة .

هذا الاختيار التفضيلى بالنسبة للفقراء بفضل الداعين إلى التحرر تأكد فى عام ١٩٦٨ فى مدينة « مدلين » بكولمبيا . عشية الاجتماع غير العادى لبابوات القارة كلها الذى عقده المجلس الأسقفى لأمريكا اللاتينية ، وقد أدانوا فيه الوهم القاتل الذى تسبب باسم الحياد السياسى للدين وباسم المحبة فى مذابح الهنود واستعباد السود ويساهم اليوم فى تقسيم العالم إلى أقلية من الأغنياء المتخمين وأكثرية من المحرومين .

هذا الإيمان بالموقف التاريخى فى ضوء تعاليم المسيح واتخاذ هذا الموقف لمحاربة تهميش العالم . حيث زيفت صورة الإله عند أغلبية البشر لا سيما فى العالم الثالث وإن لم تكن الصورة مقتصرة على العالم الثالث كل ذلك سوف يقود لقراءة جديدة للأناجيل وإلى تغير جذرى فى المسيرة التقليدية للعقيدة فى الغرب بدلاً من الإدعاء بإستخراج مذهب إجتماعى أو سياسى من النصوص الإنجيلية دون أن تضع فى الإعتبار الحقائق التاريخية لكل زمن فإنها تنطلق من هذا الموقف التاريخى للسلطات الدينية والسياسية فى عصره مما قاده إلى الموت .

الثغرة الوحيدة التى فتحها المسيح فى تاريخ البشر كانت هى النموذج الخالد للسمو التاريخى « عقيدة التحرر للأب جيتزيز فى بيرو » ، « المسيح المتحرر للأب ليناردو بوف فى البرازيل » ، « تاريخ وعقيدة التحرر لإنديكو دوسل فى الأرجنتين » ، « تحرر العقيدة للأب سيجندو » كل هؤلاء كانوا متنافسين فى البحث عن هذا التحول الجذرى فى المسيحية .

إن نقدهم للماركسيين كان هو الأكثر عمقاً لأن أى قضية لا يمكن أن تفند بصورة جدية إلا إذا استخرجنا منها حتى أخر جزىء من أجزاء الحقيقة أصل هذه الأخطاء.

فالماركسية مثلها فى ذلك مثل اليوتوبيات الإشتراكية التى سبقتها قد ولدت فى القرن التاسع عشر فى ظروف تاريخية تعرف بالثورة الصناعية حيث كانت الإنجازات التقنية تمجد الرأسمالية حسب أسطورة « فوست » أو بروميثيوس وذلك بإعتقاد لايشوبه شك فى التقدم وهكذا استاء ملايين المطحونين فى المدن التى تحول فيها الإنسان إلى قطعة غيار لآلة أو اعتبر من سقط المتاع من وطأة الرأسمالية .

ولذلك فقد طرح دعاة التحرر القضية الأساسية وهى : التغير الجذرى الذى يحتاجه العالم للقضاء على كل ألوان التفرقة أو العنف الناتج عنها ، هذا التغير لا يمكن أن يقوم على عقيدة جبرية لا سيما إذا كانت عقيدة تقدم التحررين وتنوعها « الجدلى » لدى متطرفى الإشتراكية المسماة بالعلمية ، وهى في الحقيقة إشتراكية وضعية لأن العلوم يمكن أن ترسم لنا وسائل رائعة ولكنها لا يمكن أن تحدد لنا غايات نهائية) .

الأمل فى التغير الذى يقلب كل توجهاتنا يتطلب مصادرة متعارضة مع الجبرية وهى : السمو أى قدرة الإنسان على الانقطاع عن غايات النظام الحالى أو بمعنى أصح عن غياب غاياته عن الإيمان بالسمو باعتباره قضية مثلها فى ذلك مثل الاعتقاد فى جبرية عالمية فى ظل تشابك حتى لا يعد تصرف الإنسان بمثابة حالة خاصة فى حركة الأشياء .

هذا الاختيار هو الوحيد الذى يسمح بأن يكون لحياتنا معنى وذلك بأن نتحمل جميعاً مسئولية محاربة التوجهات القاتلة لعصرنا .

هذا السمو كشرط لكل تصرف تحررى لا تعده مبادىء التحرر أمر خارجى ولكن تعده إمكانية دائمة لتجاوز الماضى ولقد ضرب يسوع المثل المطلق حين كرس حياته وموته لمحاربة جميع ألوان الهيمنة ولكن القراءة التقليدية للرسالة الإلهية قد أمليت من القصر أى من قبل السلطات » .

أما قراءة دعاة التحرر فإنها قراءة من القاع أى قراءة من قبل المحرومين أى الذين يعلمون ويعانون ويعيشون ويموتون دون أن يعرفوا ما هى فائدة عملهم أو معاناتهم أو حياتهم أو موتهم وبالنسبة لهؤلاء فإن المستقبل هو الأمل الوحيد فى البعث أى فى المرور من الموت إلى الحياة الحقيقية أى إلى حياة ذات معنى .

فليس عن طريق الانفتاح عليهم ولكن بأن يصبح واحد منهم يقتسم معهم وجودهم ومعاناتهم وآمالهم يمكن للداعى ساعتئذ فقط أن يحيى عقيدته ليس كإطار تحررى ولكن كشهادة كفاحية لرسالة واجه يسوع الموت من أجلها .

يجب علينا أن نستعيد لب هذه الرسالة التى لا تقبل التبديل وأن نتصرف

حسب ندائها ولكن أما زال هناك جديد فى جعبة دعاة التحرر ؟ « إن الأب جوستابو جيتريز فى كتابه عقيدة التحرر يرى فى مثل المحاكمة الأخيرة عند ماثيوس « ملخص الرسالة الإنجيلية » إننا لن نحاكم على حبنا للآخرين لا بقانون ولا بحكمة ولا حتى بإيمان لا يتطور إلى فعل كما عرفه يسوع المسيح حين قال : أطعم الجائعين أكس العريانين وأقرى الغرباء وفى كل مرة تفعل هذا مع أحقر الناس فأعلم أنك إنما تفعله لى . (متى ٢٥ ، ٤٠) .

ويقول الأب جيتريز إن إعلان الإنجيل هذا إنما يتحقق إذا اختار الفقراء « أن يحاربوا كل ألوان الظلم والعسف والاستغلال والتمسك بإيجاد مجتمع أكثر أخوة وإنسانية وأن يعيشوا حب الأب وأن يكونوا شهوداً عليه .

ثم يضيف قائلاً : « إن ما نراه فقط إنما هو ابتسار سياسى يضع الإنجيل فى خدمة الأقوياء » إن دعاة التحرر قد وضعوا إعلان الأب موضع الجدية معتبرين أن الموقف الحالى للعالم هو » موقف الخطيئة إن مفتاح عقدة كل انعكاس سياسى أو دينى وكل سلوك هو موقف الخطيئة هذا الذى جعل من الإنسان صورة للإله على كثير من الأصعدة ، فأن يكون الإنسان هو الكل فى الكل فإن ذلك يتطلب أن نضع نهاية لهذه التجزئة المميتة إن تحرر الإنسان وتحرر الخطيئة ليس إلا شيئاً واحداً فالتاريخ المقدس والتاريخ القصير هما التاريخ الوحيد لهذا التحرر العميق والمقدس والذى لا يمكن تجزئته .

إن التفرقة الخادعة بين الصعيدين . صعيد الأمور الأخروية وصعيد التاريخ تضع الإنجيل بالفعل فى خدمة الأقوياء .

وفى أمريكا اللاتينية يتضح هذا التناقض بطريقة جلية من خلال الصورتين اللتين رسمتا ونحتتا ليسوع المسيح فى الكنائس وهما « المسيح المنتصر » ومريم فى ثياب الملك والملكة والثانية « المسيح المقتول » الذى صلب عارياً أو بمعنى أصح صورة المنتصرين الأغنياء الأقوياء وصورة الفقراء والمضطهدين والمعذبين .

وقد كتب الأب ليناردوابوف قائلاً : « لقد وصلت إلينا صورة المسيح متغيرة ومحاطة بألقاب وإعلانات عقائدية تهدف إلى حجب حقيقته وإخفاء وجهه

البشرى وإدخاله فى حركة التاريخ بإعتباره نصف إله وبإعتباره خارج عن عالمنا . إن الإيمان يجب أن يحرر وجه يسوع من العوائق التى أحاطت به وغيرت شخصيته. فلنعلن أن يسوع هو السيد المسيح بن داوود بن الإله ولكن ذلك لا يعنى أن يعتقد الإنسان إذا لم يهتم بمعرفة ماذا تعنيه هذه الأسماء بالنسبة لحياتنا . إن الإيمان بالمسيح لا يمكن أن يتستر فى الصيغ القديمة حتى وإن كانت جذابة ولا فى الآثار التوارتية ، فالإيمان بيسوع بمعنى أنه لا بد من سلوك يضمن وجودى ويتطلب طريقة للحياة هو أن أواجه حياتى بتمامها على الصعيد الشخصى والاجتماعى والكنسى والثقافى والشمولى وأحاول مطابقتها بحقيقة المسيح » .

وبهذا فقط لا يعد الدين أفيوناً للشعوب ولا هلوسة وبهذا فقط يصبح الإيمان هو أساس مستقبل ذى توحد إنسانى ، أى إلهى عن طريق المشاركة فى قيام مملكة الرب .

إن أحد المظاهر الأكثر حداثة فى دعوى التحرر هو وضع نهاية لذلك الاستعمار الدينى لعقيدة تعتبر نفسها تكملة للتاريخ اليهودى الذى أصبح أوربى من خلال الفلسفة الاغريقية وأخذت نظامها حسب النموذج الأمبريالى الرومانى وعلى ذلك فبقية العالم كله لم يكن من الممكن أن تتلقى رسالة المسيح إلا وهى أسيرة هذه الثقافة الوحيدة فليس هناك تاريخ مقدس إلا تاريخ الشعب اليهودى وليس هناك لغات دينية إلا العبرية واليونانية واللاتينية .

وكما كتب إنديكو دوسل . فإن الكنيسة المسيحية فى أمريكا اللاتينية » وكذلك الحال فى أفريقيا وأسيا » كانت جزء من تاريخ الإرساليات « المرجع السابق ص٣٧) .

ثم أضاف فى صفحة ٣٨ قائلاً : « كان الأوربيون هم الذين اكتشفوا بقية الكنسيين وهم أيضاً الذين سيطروا عليهم بقوة السلاح والبارود والخيول ومقاتلات الكارافيل الفرنسية وفى هذا المستقبل القريب ما هو الشىء الحقيقى عالمياً ؟ ما هو المشروع الإنسانى القادم الذى يجب أن ينفتح عليه الأوربيون أنفسهم ؟ إن أمنا هى أمريكا الهندية وأبانا أسبانيا ، ولكن الطفل الجديد ليس أمريكياً هندياً ولا تابعاً

لأسبانيا ولا لأوربا ولا لقبائل الأنكاس ولا لقبائل الأستيك ولكنه شيء جديد إنه ثقافة جديدة ومولدة ومهجنة وثقافة خليط » .

وهكذا نشأ فى أمريكا اللاتينية أخيراً مفهوم حقيقى للإنسان العالمى محطماً بذلك المفهوم أو المضمون المقصود بكلمة « الشعب المختار » التى كانت حجة يتدرع بها الاستعمار الذى كان يرتدى ثوب التبشير .

ولقد امتد هذا التحرر إلى القارتين الأخريين المستعمرتين بالتجارة والسلاح وما تزالان مستعمرتين روحياً عن طريق الكنائس .

فخلال خمسة قرون من السيطرة الإستعمارية التى كانت تعتمد على فرض المسيحية على القارات الثلاث بالأشكال الثقافية التى فصلت فى الغرب ، قدم هذا الدين كما لو أن الله لم يكن للبشر جميعاً ولكن كان إلهاً غربياً .

إن العلاقة مع الله يمكن أن تساعدنا بإنسيابية أكثر فى أن نجرب ونحن نتعلق بثقافة يهودية إغريقية أن نقترب من الوحدة التثليثية للأب والابن بعد أن عشنا حسب نموذج الأب « بنيكار » ومبدأ الأدفائيتا للهو والأنا المذكورة فى الأبانيشيد وتأملات الأنكارا ، وكذلك ما قاله الصوفيون مثل ابن عربى الذين يرون فى يسوع « خاتم المقدسين » ذلك الذى كشفت لنا الحياة عن شخصه بخضوعه الغير مشروط لله عز وجل وكل ما يمكن أن يكون مرئياً من الله وغير مرئى وسامياً وهو ذلك الإله الذى قال عنه ابن الفارض الشيرازى (قبل أن توجد العوالم وقبل أن تصبح عوالم فإن الله القيوم كان وحده الحب والمحب والمحبوب) .

* * *

من بين أقدم المدارس الروحانية كانت بالهند عقيدة فى طريقها إلى الخروج من الظل ومنذ عدة سنوات طرح المنظرون الهنود أسس عقيدة تعتمد على التصور والتجربة الإيمانية التى تحيا تبعاً لظروف البلاد .

وفى ١٢ مارس ١٩٩٢ افتتح فى هونج كونج منتدى شارك فيه علماء اللاهوت الذين قدموا من بلاد أسيوية عديدة . وفى ختام هذا اللقاء خرجت وثيقة حول موضوع « مستقبل الفكر الاجتماعى المسيحى » وقد وقعها كل المشاركين . وفى

هذه الوثيقة استنكر علماء اللاهوت المركزية الأوربية للتعاليم المسيحية للكنيسة التى لا تعترف بإسهامات المؤتمرات الكنسية المحلية ولا بخصوصيات الكنائس المحلية .

وقد حاول بعض القساوسة الآسيويين أن يضعوا التعاليم الكاثوليكية فى خدمة القضايا المتعلقة بالساحة الآسيوية ولكن ويا للأسف تحاول بعثه إصلاح قادمة من روما اليوم أن تنفذ إلى آسيا ، وهى تحكم على الموقف بشكل تبسيطى وعن بعد وتتخيل بشكل خاطئ أن القساوسة لم يتكلموا إلا عن الحوار والتحرر والجهل - وهكذا بينما يتجاهلون مبادئ المسيح . هذه البعثة الإصلاحية تسببت فى انقطاع مؤسف عن النمو والتحول الإنسيابى لفكر اتحاد المؤتمرات الأسقفية الآسيوى . ويعلن عالم اللاهوت الهندى « فيلكس ولفرد » فى هذا الصدد « أنه يجب أن نأمل أن يكون تصدير هذه البعثة من قبل الفاتيكان إلى آسيا ما هو إلا ظاهرة عابرة وأن اتحاد المؤتمرات الأسقفية سوف يواصل فى المستقبل اتباع الخط الذى رسمته له وثائق كثيرة وأنه سيساهم بنفسه فى ازدهار الصورة الجديدة للمسيح والمطابقة للعبقرية الآسيوية » وقد كتب أحد القساوسة وهى رجل يملؤه الحماس وعلو الهمة على حائط كنيسته الخوارنية (الخاصة) لافتة تقول : « يسوع هو الإجابة » ولكنه عندما استيقظ فى صباح اليوم التالى اكتشف أن الأولاد الخبثاء قد كتبوا تحت اللافتة « ولكن ما هو السؤال ؟ » . ففى كل العصور يحاول المسيحيون أن يكتشفوا شخصية وحياة ورسالة يسوع المسيح من خلال أسئلتهم الذاتية الناشئة من ثقافة المجتمع والعصر - فهل يجب علينا أن نرفض نفس القدرة عند الآسيويين اليوم ؛ فلنترك : آسيا إذا تكتشف وتعيد اكتشاف صورة يسوع الأكثر تطابقا لمواجهة تحديات القارة . وليحذر الفاتيكان أن يحدد اللاهوت الآسيوى بالتفكير فى مستقبل الكنيسة فى تلك القارة أو أن يعتبر نفسه سير لنقل الخطاب الرومانى الرسمى .

إن إرادة زرع جذور لرسالة يسوع فى حضارات وثقافات غير غربية هى إحدى وعود المستقبل .

فهناك مثلاً : ألو سيوسى بيرس » وهو يسوعى ولد فى سرى لانكا وهو مؤسس ورئيس مركز البحث فى « طولانا » فى « كيلانيا » القريبة من كولومبو وهو باحث كلاسيكى فى الهندوكية ومتخصص فى الفلسفة اليهودية ، وقد عمل

برنامجاً واسعاً للبحث حول الأدب الفلسفى البوذى الوسيط فى « بالى » وهو رئيس تحرير مجلة « الحوار » وهى مجلة عالمية للبوذيين والمسيحيين يصدرها معهد مسيحيى كولومبو . وقد كتب كثيراً عن الإرسالية وعقائد الأديان وعقيدة التحرر الآسيوى وعقيدة البوذية .

بعد ذلك نجد « رومان بانيكر » هو من أب هندى وأم من « كتالونيا » وقد بذل أقصى جهد ليوضح أن « أحد أهم أركان حكمة الهند وأعمقها » ترتبط بشكل ما بعقيدة التثليث المسيحية وقد حاول أن يفك رموز تلك العقيدة التثليثية بتأمل فى «الأدفيتا » (مذهب اللا ثنائية) فقد أوضح أننا نعتقد أن النهاية الحتمية لكل إنسان حسب تعاليم الصوفية الهندية هى أن يعتقد أن « الأنا أو الشخص » منطبق مع «البراهما » أو « الحضور الشامل » فى قولنا (أنت هكذا) المذكورة فى الأبا نشيد، وهكذا فالهندوكية تساعدنا على تخطى وهم السمو الخارجي من خارج أنفسنا .

وقد أعطى « رومان بانكير » فى كتابه « التثليث والخبرة الدينية » وهو قمة أعماله التعبير المثالى لحوار إيمانى حقيقى للتخلص من كل النزعات العرقية .

وقد حدث مثل ذلك الإيمان بالمتطلبات العالمية للدين لشرط لخلاصنا فى القرن الواحد والعشرين فى أفريقيا .

وفى عام ١٩٧٧ عقد مؤتمر فى « كوت ديفوار » تحت رياسة مطران أبيدجان «مجرياجو » وهو مؤتمر لعلماء اللاهوت الأفارقة السود تحت عنوان « حضارة السود والكنيسة الكاثوليكية » .

وقد أوضح الأب « جان مارك إلا » باسم العالمية أن « الثقافة اليهود متوسطية التى نقلت المسيحية ليست إلا ثقافة من ضمن الثقافات . . . فالكاثوليكى ليس مرادفاً للرومانى . . .

هذه الرغبة فى تحرير العقيدة ومحاولة قصر دور الثقافة الأوربية من أجل حماية القيم العالمية للمسيحية تتضح بقوة فى كتاب يسوعى كاميرونى هو الأب « هجبا » فى كتابه « تحرير الكنيسة من الوصاية . حيث يقول : « إن المسيحية ليست ديناً

غريباً ولكنها دين شرقى احتكره الغرب ليضع عليه صبغته الفلسفية التى لا يمكن محوها ، وكذلك صبغته القانونية والثقافية وهكذا نقلوه إلى بقية شعوب العالم ، والآن جاء دورنا لنضع صبغتنا على نفس ذلك الدين حين نستقى من الدين الوحى المقدس للفلسفة الأرسطية التوماسية والفكر البروتستانتى الألمانى أو الانجليزى أو أشكال التفكير والعادات الغالية أو الإغريقية الرومانية أو اللويسية الأسبانية أو الألمانية تلك الثقافات التى لبست ثوب المسيحية وإذا لم نفعل ذلك فستبتلعنا أوربا.

ويقتبس الأب « أوسانا » كلمات « مجر زوءا » مطران « يا وندى » التى يقول فيها : « إننا الورثة الشرعيون للأديان الأفريقية التقليدية التى أعدت الإنسان الإفريقى أكثر من أى دين آخر لقيامة يسوع المسيح . وهذه الأديان لها دور شبيه بدور العهد القديم » .

إن التأمل من جديد اليوم حول الوحدة السموية لحكم وأديان العالم ضرورة من أجل إقامة « مسيحية » لا تنحصر فقط فى الاعترافات المسيحية ولكن تنفتح على ثقافات وعقائد بقية الشعوب من أجل نهضة البشر جميعاً .

وهكذا فالدعوة إلى الانفتاح على كل روحانيات العالم من أجل إعادة قراءة رسالة يسوع لا يمكن أن تجد طريقها مع الانتقائية والتوفيقية ، بل يجب أن نستخلص من خارج ثقافتنا لاذاتية الثوابت العالمية التى تكشف لنا عن حياة كوكبية وتجعلنا نؤمن بنوعية شهادة يسوع حول « مملكة الرب » .

فإن يسوع لم يأت فقط ليكمل وعود « الكتب المقدسة القديمة » ولكنه جاء ليجيب على التساؤل الأساسى لكل البشر حول معنى الحياة والموت .

إن الإيمان هو بداية التخلى والسمو وتجربة التخلى والتحرر .

إن أكثر ما يثير الحماس والحيرة فى نفس الوقت فى أفعال يسوع وأقواله هى أنه لم يكن أبداً موجوداً حيث ننتظره . فنحن ننتظر دائماً قولاً أو فعلاً يطيل أمر نزواتنا الحيوية ورغباتنا ومصلحتنا وتاريخنا الفردى وثقافتنا وقوانينا .

بينما أكثر ملامح حياة وموت يسوع المسيح هى أنه تخلص من الشروط

البيولوجية والنفسية والاجتماعية . إنها حياة لا يسودها الروتين اليومى ، حيث لا يعد فيها أى شىء محصلة الماضى ولكن كل شىء خاضع لحرية الإرادة مستبعداً الأنانية والرتابة ولكنه قرار جديد بنهضة شاعرية للإنسان .

فلنعش ، لا أقول حسب قانون المسيح ولكن حسب ما أسميه « شاعريه » المسيح وهى الإيمان أن طبيعتى هى أن أستطيع تخطى الطبيعة ، والإيمان بأن كل أفعالى وأحداث حياتى التى أشهد عليها وأشارك فيها وأن حياتى الشخصية وكذلك المجتمع والتاريخ الذي أعيش فيه ليسوا حلقات فى سلسلة الأسباب والمؤثرات : ولكنها كما هى فى علاقتها بالغاية السامية التى سوف يواجهونها والتى تعطيهم المعنى ، وهذا هو المعنى العميق لإعلان « المملكة » الذى أعلنه المسيح .

إن المطلوب ليس أن نقيم هذه المملكة فى مكان ما فى الفضاء البعيد أو فى المستقبل ، مثل أى مدينة فاضلة ولكن أن نبرز فيها المتطلبات القريبة من كل ما اعتقد أنه هام فى العالم حيث تتهاوى مهامى لحظة حصول تلك المملكة كما لو أننى كان على أن أراجع أحكامى كلها وتصرفاتى كلها لخدمة تلك الحقيقة العميقة وشيكة الوقوع لأن المملكة موجودة فعلاً فى داخلنا وفى خارجنا . تلك المملكة التى لا يهمها بداية العدل من أجل القانون ولكن يهمها الحب كمبدأ .

فالإيمان يظهر عندما أتخلص من السؤال عن كيف « لأسأل نفسى « لماذا » .

عندما أسأل نفسى عن الغايات وليس فقط عن الوسائل

- فهذا تساؤل أساسى عن أهدافى الشخصية والاجتماعية .
- وهذا التساؤل يكسر دائرة عاداتى وثوابتى .

فعندما ينتهى رجل سياسة عن الاهتمام فقط بوسائل الحصول على السلطة والاحتفاظ بها ولكن يسأل نفسه سؤالاً عن غايات المجتمع الشامل وامكانيات الإبداع من أجل نهضته وأن يولد لدى كل شخص اختيار غاياته والمشاركة الفعالة فى تحقيقها ، ساعتها يصبح السياسى نبياً .

وعندما ينتهى فنان عن الاهتمام فقط بتأكيد تميزه الفردى والاهتمام بنطاق عمله ونجاحه من خلال ازدهاره التقنى ، ولكن عندما يهتم على العكس من ذلك بأن يصبح ضمير أمة عندما يعمل عمله ليس انعكاساً للواقع ولكن على العكس بتحريب الإمكانيات يمكن أن يساعد تلك الأمة على الإيمان بمشروعها ويأملها ومستقبلها ، ساعتها يصبح الفنان مبدعاً . وعندما يعيش عاشقاً حبه لا كوسيلة للأخذ ولكن كسبيل للإعطاء ، أن يعطى لا مما يملك ولكن من نفسه ، أن يبذل حياته حتى يفضل حياة الآخر على حياته الشخصية بينما يدعى كما كتب ابن الفارض الشيرازى : « أنه يحل من خلال كتاب الحب البشرى رموز لغة الحب الإلهى » وساعتها يصبح المحب صوفياً .

ولكن هذا التخلى وهذا السمو ليس هو الإيمان .

فالإيمان هو سلوك تفريغ النفس .

هو تجربة التفريغ و« الليلة العتماء » للقديس « جان دولاكروا » .

فلنسكت الرغبات التى تصرخ داخلنا بقوة ولأنزع نفسى من حدود وسطى الاجتماعى ولأمح الصور التى بهرتنى دون أن تضئ لى الطريق ولأتخلص من الكلمات والمفاهيم التى وجدت لتخلط بين الأشياء .

هذا التخلى وتفريغ « الأنا الحقير » والتخلص من النفس ، هذا الفعل الذى يسميه علماء اللاهوت المسيحيون Kenose هذا الفعل الذى بينت لنا « الحقائق الأربعة المقدسة » لبوذا طريقة فى قسم بيرافيس والتى أعطتنا تأملات « زازن » التجربة ، هذا الفعل من الإنسلاخ الذى هو المقدمة الوحيدة المممكنة للنهوض إلى حياة جديدة (نفس اسم بوذا معناه « اليقظ ») .

هذه الحياة الجديدة هى أولاً الإيمان بأنتى لن أكتفى بنفسى وبأنتى لا أوجد إلا فى علاقة مع الآخرين ، كل الآخرين حسب الصيغة الباهرة لروحانى بيزنطى فى القرن الرابع عشر وهو « كالسست » الذى يقول : « أنا أحب إذاً أنا موجود » .

نحن هنا بعيداً عن الفقر الديكارتى لمبدأ « أن أفكر إذاً أنا موجود » الذى يبتسر الإنسان فى فرد واحد والفكر فى الذكاء فقط .

وقد اكتشف صوفى مسلم من القرن الثالث عشر الميلادى هو الشيخ « أبو سعيد » ما أسماه « سر الشيطان » حيث يقول إبليس : « إذا قلت أنا فستصبح شبيها بى » .

فالتجربة الأساسية هنا هى تجربة الصليب الذى ينقطع مع كل صور الله التقليدية وهى القوة والجمال والعقل والعدل .

نتعرف على الله فى شكل ذلك المصلوب ، ذلك المحبط ، ذلك المطرود الضعيف عن أن يسلم من الناس ما دام لم يقم أحد بأى شىء للدفاع عنه وما دام أصحابه المقربون قد تنكروا له . إنه ضعيف حتى أن يسلم من أبيه ، حتى صرخة الألم الأخيرة حين أذاقه الموت وهنا سأل السؤال الذى يمزق نياط القلب «لماذا تخليت عنى ؟ » إن كل تجربة الإيمان هى محاولة للإجابة عن هذا التساؤل المعذب الذى يسمح لكل فرد أن يعيش حياته البشرية بشكل إلهى أى أن يعيشها بمسئولية كاملة عن مصيره الشخصى وتاريخه الشخصى ؟

– إن الإيمان ليس إنعكاساً لذلك الصليب ولكن هو أن نعيش هذه التجربة القاسية والتحررية للصليب .

ويوم القيامة فقط يبدأ الطريق الجديد ، بعد البعث . لأن المسيح لم يمت وإنما قتل . اختار بعض الناس أن يقتلوه واختار هو أن يموت فهذا الفعل وهذا الاختيار يظهر معناهما فى البعث : فلم يكن موته موتاً طبيعياً ، ولكنه اختيار الحياة الجديدة. وقيامته لا تعنى العودة إلى حياة حيوانية ولكنها تعنى بداية حياة جديدة .

والإيمان هو استقبال الحياة الجديدة والغزو بتلك القوة وتلك الفرحة والإيمان هو تجربة المنابع .

والإيمان ليس تجربة حدودى ولكنه على العكس تجربة القوة المتوقعة لتجاوز حدودى . ليست تجربة العجز ولكنها تجربة الزيادة . إنه الإيمان فى المركز لا على الحدود كما يقول : « بونهوفر » .

* * *

الفصل الثامن

ما هو المخرج ؟

الفصل الثامن
ما هو المخرج ؟

من خلال هذا الحساب الختامى للثقافة الغربية التى آلت إلى الإفلاس وذلك الحج نحو عقيدة وثقافة الآخرين (أى أربعة أخماس العالم) يجب إذن أن نستخلص المفاهيم الآتية :

ما هو المخرج من التناقضات التى تكتنف نظاماً لا يمكن أن يؤدى إلا إلى الموت؟

يجب أن نغير وإلا سنختفى .

ماذا يمكن أن تكون الاستراتيجية التى تسمح لنا أن نقيم عالماً ذا توجه بشرى من أجل القرن الواحد والعشرين ؟

ففى المنظور الخاص بفلسفة الفعل التى تحررنا من ألوان السيطرة التى تمخضت عن فلسفة الوجود الغربية التى استمرت منذ خمسة وعشرين قرناً ، يجب الخروج من هذا المأزق المزيف : بداية يجب أن نغير الإنسان من أجل تغيير العالم أو بالأصح تغير التركيبات التى يظهر فيها إنسان جديد « بشكل ضرورى » .

ولم ينجح « الأخلاقيون » لا سيما فى مسيحية بولس الذين انخرطوا فى الطريق الأول للمسيحية ، لم ينجحوا بمواعظهم فى تحرير البشر من ألوان السيطرة والإبعاد والحروب التى تمخضت عنها وذلك يحدث منذ ألفى عام .

والبعض الآخر الذين يعتقدون أنهم أكثر واقعية انخرطوا فى الطريق الثانى . فمدرسة منتظرى المسيح السوفيتية كانت لمدة ثلثى قرن حاملة لوهم مماثل للوهم الأول : فلنغير البنى التحتية الاقتصادية واضعين نهاية للملكية المحرومة من وسائل الإنتاج بواسطة مركزية الدولة ومبدأ « الإنسان الذى يولد من جديد » .

ولكنه لم يولد ، بينما سمحت عودة الرأسمالية بميلاد « مافيا » حيث دفعت ثروات المضاربين والطفيليين بسرعة التنافس المحموم وامتداد رقعة البؤس والفساد والدعارة والمخدرات وكل الموبقات التى يتميز بها الانهيار « التحررى » .

لقد بات واضحاً أنه ليس بالإمكان فصل أحد الطريقين عن الآخر لا هذا الذى يقوم على سمو الحدث المبدع ولا هذا الذى يتطلب من هذا المبدع الذى لا ينحصر فى نطاق تحويل بعض الأرواح أيا كانت إلى قديسين ولكنهم لا يملكون خياراً إلا بين الرهبة الإختيارية أو التهميش .

وفى فلسفة الفعل يعتبر هذان الشكلان من الهجوم على ما هو موجود غير منفصلين : فالإيمان والفعل ليسا إلا باطن وظاهر الإنسان كله ، فالفعل المنفصل عن الإيمان يعيد الإنسان إلى حيوانيته الأولى .

إن الروحانية تنصهر فى بوتقة الصراع من أجل تغير التركيبات ولا تفقد أياً من أبعادها الداخلية .

ويمكن بفضل العودة اليومية إلى الانطباع عن غايات فعلنا ووحدتنا الصوفية مع « الكل » أن لا ينحصر فعلنا فى نطاق البحث عن الوسائل وعن الإنتاجية والفعالية ولكن أن نعتقد أن الطبيعة كلها هى جسدنا وأن روحنا مسكونة بحضور كل ثقافات الإنسانية عبر تاريخها الطويل وليست « أنا » فردية وأن يكون إيمانى بصرف النظر عن الثقافة التى يتبلور فيها قد تحول مع كل ما يحياه من تجربة الثقافات الأخرى دون أن يريد « التحول » أى دون أن ابتسر بطريقة حياتى هذا الإيمان الأساسى والأول .

إن الصيغة الفاسدة والمشوهة التى قالها « لوكير » تلخص نظرة الإنسان هذه «اعمل وحين تعمل اعمل ولن يكون الإنسان شيئاً سوى فعله » هذه الصيغة ليست فاسدة إلا حين نحرم الفعل من أبعاده الداخلية أو فعاليته .

وعشيه المعركة من أجل بناء عالم آخر وليس عالم من النشوة أو المدينة الفاضلة قامت المعركة على ثلاثة أصعدة : صعيد التربية وصعيد الفنون وصعيد السياسة

وبهذا الشكل يكون سلوك الإيمان وسلوك الإبداع الفنى والسلوك السياسى كلاً لا يتجزأ .

(أ) تغير نظام التعليم :

ليس المطلوب هو اقتراح « إصلاح للتعليم » لأن محتويات ونظم التعليم الحالية لا يمكن إصلاحها بل يجب تغييرها .

ودون أن نخوض فى تاريخ التعليم ، فإننا نلاحظ فقط أن التعليم لا يكن له حتى الآن كمهمة أساسية سوى تقليد النظام الموجود .

إن نظامنا الحالى ينحدر من مفهوم النظام الشامل الذى ساد فرنسا بعد الثورة وكان يهدف إلى تكريس دور « نابليون » الذى كان اهتمامه الأول حين أنشأ المدارس الثانوية هو الوظائف وهو تكوين الكوادر الصالحة لجيشه وإدارته والصالحة لقيادة نظام التعليم هذا .

ومنذ « السيد دو فانيمونسيل » فى أيام عوده الملكيين وحتى وزراء التربية الحاليين أدخلت تعديلات كثيرة على نظام التعليم بغية تلبية احتياجات النظام واضعين فى الاعتبار تطوره واحتياجاته الجديدة ، فمثلاً مع تطور الصناعة احتاج النظام إلى كثير من الفنيين على جميع المستويات ، فتحويل المدارس إلى الديمقراطية بدءً من المدارس الإبتدائية ثم المدارس الفنية من أجل إعداد البعض ليكونوا عمال الممكن أن يصبحوا عمال بسبب الصعوبة المتزايدة للعمل بينما هم أميون ، وبالنسبة للآخرين فقد كانوا مهندسين أو كوادر مما استلزم إصلاحاً لمحتوى التعليم وذلك باستبعاد اللغة اللاتينية التى كانت تشكل حتى ذلك الوقت علامة للرجل المثقف ، وكذلك أدخلت الرياضيات والعلوم الأساسية لكل التقنيات الجديدة .

ولكن هذه التلبية المتلاحقة للحاجات الجديدة للنظام الإجتماعى لا تمس القضية الجوهرية وهى أن هذا النظام حين يعد مثلاً « صفوة » من المتخصصين فى الفيزياء النووية أو فى الوراثة أو فى الإقتصاد السياسى أو تكنولوجيا المعلومات يحرمهم من الثقافة لا أقول الثقافة العامة ولكن الثقافة التكاملية أى السؤال عن غايات أبحاثهم وإنجازاتهم .

ليس المطلوب هو إصلاح النظام ولكن المطلوب هو قلبه رأساً على عقب وهذا لن يتحقق بإصلاح « ولو للمرة المائة » سواءً أكان منحه أو اقتراعاً ولكن بتغيير العقليات التى تقود نظاماً تعليمياً للاغايات سوى رفع معدل « الناتج القومى» والاستهلاك والقوة وغزو الأسواق .

هل المطلوب هو أن نخرج فى مدارسنا أطباء أسنان أو مغامرين أو عسكريين أم المطلوب هو إعداد بشر ليكونوا بشراً أى مبدعين ؟

إن ذلك يتطلب تحولاً جذرياً فى شكل ومضمون التعليم .

بدايةً وحتى نراجع ثقافتنا الغربية يجب أن نطور التعليم ليس فقط فى معهد « الكوليج دو فرانس » أو فى « الدراسات العليا » أو مدارس « اللغات الشرقية » ولكن بالنسبة لمجمل ثقافات الآخرين ، وليس فقط تطويراً فى الدراسة بإضافة مناهج جديدة لأننا لن نجد معلمين قادرين على التطوير ما داموا لم يتعلموا إلا فى مدارس أوربا . وكمثال على ذلك يحضرنى نموذج الفلسفة ماذا يحدث إذا أضفنا إلى برامج الدراسات العليا نماذج خط الفلسفة من « أفلاطون » إلى «هايدجر » فلسفة « تشوانج » أو « أنكاراً أو الغزالى » ؟

ومع ذلك فإننا لا نعدم خارج المدرسة فرص لقاء هؤلاء الذين يحملون قيم هؤلاء الفلاسفة فى نفوسهم : ففى أوربا كما فى أمريكا لا يعيب هؤلاء عن الساحة وكذلك الصينيون وكذلك الهنود فى انجلترا والعرب فى فرنسا والترك فى ألمانيا .

وعلى هذا النحو يمكن أن تبدأ الأشياء : يجب أن يكون هناك موقف آخر تجاه المهاجرين الذين يحملون فى أنفسهم ولو أحياناً بشكل غير واضح قيم الشمولية والإيمان .

وهكذا يمكن أن نبدأ مع الكتل البشرية ، أن نفهم الآخرين والثروات البشرية التى يحملونها فى داخلهم . وليكن فى يقيننا أننا يمكن أن نتعلم منهم شيئاً ما وليس أن نبحث من أعلى عن مركزيتا الأوربية وتقليدها وما أدت إليه من انهيار :

* حيث أصبح العلم علموية .

* والتقنية أصبحت تقنوية (عبادة التقنية) .

* وحيث أصبحت السياسة مكيا فيلليه .

فالعلمويه هى شكل من أشكال التحريف أو التمامية المتكاملة القائمة على هذه المصادرة : أن العلم يمكن أن يحل كل المشكلات ، وما لا يستطيع العلم أن يقيمه أو يجربه أو يتوقعه لا وجود له ، وهذه الوضعية تبتسر أسمى أبعاد الحياة وهى : الحب والإبداع الفنى والإيمان .

والتقنوقراطية هى هذا الشكل من الجنون بالتقنية من أجل التقنية دون طرح السؤال عن الغايات . وهى قائمة على هذه المصادرة : كل ما كان ممكنا تقنياً لا بد أن يكون مأمولاً وضرورياً . وهذا السبب هو الذى تمحض عن أسوأ ألوان الجهل بما فى ذلك السلاح النووى وحرب النجوم » وذلك هو دين الوسائل لا الغايات والمكيا فيللية هى حيوانية السياسية المحدودة بالتقنية وزيادة السلطة وليست انعكاساً حول غايات الوحدة الإنسانية وبالتالى وضع وسائل لتحقيق تلك الغايات موضع التنفيذ .

هل من أجل ذلك نفخر بتقليد هذه المذاهب أو بتعميمها ؟ أو الأحرى أن نضيف إلى « الإنسانية » الحقيقية الضمير الذى أثرى ثقافة فرنسا عن طريق «اختلاط الأجناس العشرين » التى تكونت عبر العصور كما قال « ميشليه » أو «رينان » .

إن فرنسا ليست كياناً سابقاً للفرنسين كما يقال « أجدادنا الغال » كما لو كنا لا نحمل فى دمنا سو« « فرسنجونوركس Vercingetorix ولا فى ثقافتا إلا انتصار « كلوفكس وهى الأساطير التى ما زال القوميون المتطرفون يستخدمونها حتى اليوم كما لو لم نكن أيضا رومانين باحتلال الرومان لبلادنا (بلاد الغال) وجرمانين مع كوننا فرنسيين ومن سلالة السلت عن طريق غارات النورماند وعرب بفضل شعراء الأندلس الذين الهموا شعراء حركة التروبادور الجوالين .

ويمكن أن نسير على نفس المنوال لننتقل من المفهوم الإمبريالى إلى المفهوم التوحدى للعلاقة بين الحضارات ولنغير نظام التصدير الثقافى « للمتعاونين » . لقد استغرقت فى الحلم (وثمة خطر أن نتيه فى هذا الحلم) أقول حلمت ببعث

«متعاون » من أصل آسيوى يأتى فى بداية الألفية الثالثة ويقوم بدراسة معرفية أنطولوجية عن القبائل التى تعيش فى هذه الشبه جزيرة فى « أقصى آسيا » التى تسمى « أوربا » . هذا الأنطولوجى الذى تربى على مبادئ البوذية وامتلاك الغرائز والتحكم فيها أو اخمادها ، سوف يكرس تقاريره الأولى حول دراسة « تقنية زيادة الطمع فى عالم ما قبل التاريخ (لهذه القبائل البدائية) خاصة فى مجال الدعاية والتسويق ، وسوف يحاول بمزيد من الجهد العلمى أن يذكر مصادره خاصة عند سوفسطائى أثينا وأقوال أفلاطون ، ويعتبر المرء أن الخير هو أن يكون لدينا الرغبات الأكثر إمكانية للعثور على الوسائل الممكنة لذلك وتكملتها ، بينما يمكنه أيضا أن يضيف فى معرض حديثه عن نظام الزيادة والنماء الذى يسود فى العصر الأثرى للنصف الثانى من القرن العشرين . أن هذا النظام « نظام الإزدياد» كان يعتمد أيضا على مفهوم السوفسطائين الأثينين . إن تقنيات الطمع (الدعاية – والتسويق – الخ) قد نجحت فى خلق احتياجات ذات مستويات عالية مطلقة الحرية لانطلاق المسروعات متعددة الجنسيات حول كل الكوكب الأرضى .

وحين يتعرض للمنظور الشعائرى فى وحدانية السوق ودين النماء والإزدياد فى هذه القبائل فى عصور ما قبل التاريخ فإنه سوف يدرس أنماط التعليم لدى الطوائف المقدسة لعبدة التقنية ومؤتمراتهم النهمة للتليفزيون ووسائل الإعلام الأخرى من خلال العقيدة الأساسية وهى استبعاد كل سؤال متعلق بلماذا أو بالغايات . ولأنه على علم بما وصل إليه الحيوانية فى عصرنا فإنه سيصل إلى هذه النتيجة المستوحاة من بحث « لابوريت » من أن ثدييات هذه الجزيرة لم تستفد إلا بنخاعها الزواحفى .

وهذا العالم الأنطولوجى المستشرق سوف يذكرنا بالإستشراق فى هذه المرحلة العرقية فيما قبل التاريخ وسوف يكون قرار إتهامه قاسياً وربما شاملاً ولكنه قائم على بعض الأمثلة الواضحة والتى للأسف لا يمكن دحضها !

مثلاً نجد مؤسس الإستشراق والمستشرق والأستاذ الكبير للجميع « سلفستر دوساسى » الذى وجه « جوته » إلى حضارات الشرق كان هو الذى يكتب بيانات نابليون بونابرت إبان غزوه لمصر وكذلك بيانات الجيش الفرنسى إبان غزوه للجزائر .

« ماكس مولر » وهو واحد من أكثر الرجال أهمية فى الإستشراق التقليدى وهو أيضاً الذى قام بإلقاء محاضرات فى كمبردج من أجل تكوين الحكام الإنجليز للهند وأما مدام « روث بندكت » التى كتبت هذا الكتاب الجميل (السيف والأقحوان) عن اليابان ، كانت قد كتبته بناء على طلب مكتب الحرب بقيادة الجينرال « ماك أرثر » من أجل إحكام إدخال اليابان فى نظام السياسة الأمريكية.

إن هذه الفكرة الشنيعة للإستشراق قد أصبحت فكرة غربية ، أى أن يكونوا مستعدين لرؤية الغرب بالميكروسكوب كما يفعل علماء الحشرات حين يرون الحشرات وكما يرى المتغربون أحياناً البلاد التى ليست غربية .

إن تغير المواقف تجاه الثقافات الأخرى لا يبدأ فى المدرسة ولا فى الجامعة ولكنه يبدأ لدى سواد الشعب من خلال موقفنا من المهاجرين ، والمفهوم الأوحد للمتعاونين الذى لا بد أن يتغير . ولن يدخل النظام التعليمى فى هذا التغير إلا من القاعدة لأنه لا حكومات اليمين ولا اليسار ولا الأحزاب ولا الطوائف الكنائسية ، لا يمكن أن يسير أى من هؤلاء فى هذا المجال .

وسيكون نفس الشىء بالنسبة للتاريخ حيث يقول « بول فاليرى » فى كتابه «نظرات حول العالم الحالى » « إن التاريخ هو النتاج الأكثر خطراً مما تشكله الكيمياء والفكر إنه يجعل الناس يحلمون ويسكر الشعوب ويطعمهم بذكريات مزيفة ويبالغ فى أفكارهم ويتلاقى مع جراحهم القديمة ويقض مضاجعهم ويقودهم إلى إهتزاز جميع ألوان العظمة أو ألوان الإضطهاد ويحيل الأمم إلى أناس متعجرفين عابثين لا يطاقون .

إن التاريخ يبرر ما يريده الإنسان ، إنه لا يعلمنا شىء دقيق لأنه يحتوى على كل شىء ويعطى أمثلة على كل شىء » .

لقد رأينا إذن الدور الذى يلعبه التاريخ الرسمى فى الأيديولوجيات القومية . ونفس الشىء بالنسبة لتبرير الإستثنائية الغربية حين نقدم بشكل مماثل معارك «مارثون » ومعركة بواتيه بطريقة مزيفة بشكل ساخر حين نجعل منها إنتصارات حاسمة للغرب على الشرق . بينما وبعد قرن من معركة مارثون حيث بالغ

هيرودوت بإفراط فى أهمية هذه المعركة « حيث مدح الاثنيين لما كانوا يمتلكوه من المال كما كشف عن ذلك « باللو تارك » . ففى سنة ٣٨٦ أملى « تيريباز » بإسم ملك الفرس شروطه باعتباره سيد على المدن اليونانية بهذا الصلف الذى سخط منه أيسوكريطس» حيث قال : « إنه هو الذى ينظم شئون الإغريق حيث هو الذى يأمر كل إنسان بما يجب أن يفعله ويمتنع عن إقامة حكومات فى المدن ألا باسم بالملك العظيم كما لو كنا أسراه (بانى جيرك ص١٢٠-١٢١) . ونفس الشيء وبعد عدة قرون على معركة بواتيه ظل العرب فى مدينة ناربون وذاع صيتهم فى مدينة رون كما تشهد بذلك النقوش ذات الطابع الصوفى الموجودة على جدران كاتدرائية بوى فخلال ستة قرون ستكون قرطبة مركز إشعاع الثقافة والعلوم فى كل أوربا كما يشهد بذلك « روجر بيكون » وكذلك شعر الشعراء الجوالون (التروابادين) من أمثال أكوستانى ودانتى .

أما فيما يتعلق بكتابة التاريخ من جانب واحد من أجل غايات سياسية فإنه ما يزال خطيراً جداً فيما يتعلق بالفترة المعاصرة ولنأخذ مثال واحد كان يقصد إلى زيادة التسلح والسيطرة الإقتصادية حيث تم صنع تاريخ لعدو يجب محاربته فقد كان الإتحاد السوفيتى مثلاً هو امبراطورية الشر وبعد إنهياره وجد بوش فى الإسلام ممثلاً لهذا الشر ليبرر نفس السياسة وعلى العكس من ذلك تم تكوين تاريخ مقدس كان بداية تاريخ العبرانيين ثم احتكره المسيحيون الذين أرادوا أن يكونوا ورثة العبرانيين ليبرروا حملاتهم الصليبية أو استعمارهم .

إن التاريخ لا يمكن أبداً أن تعاد كتابته من قبل المؤرخين الذين تربوا فى هذه المدرسة ولكن من خلال تغير حقيقى للعلاقات بين الشعوب وخاصة مع الشعوب غير الغربية ، هذا التباعد الضرورى تجاه العرقية الغربية يترجم فى التعليم « ونحن نرى أبعد من ذلك أن المطلوب ليس فقط فى المدرسة » ولكن بمعرفة اسهامات كل شعب فى أنسنة الإنسان .

إن التاريخ الرسمى يلعب دوراً قاتلاً ويمكننا أن نرى ذلك حين نتذكر كل المخترعات الصينية أو الهندية أو الإسلامية والتى كانت سابقة على الغزو الغربى للعالم حيث كان هذا الغزو فقط فى خدمة إرادة الغرب وسلطته وثروته .

إن التاريخ الرسمى وهو الذى تعلمناه فى المدرسة أو فى الموسوعات كان دائما قد كتبه المنتصرون وقد أرادوا ودائماً أن يوضحوا أن سيطرتهم كانت نتيجة لتفوق حضارتهم وليس فقط بفضل أسلحتهم لأن من بين الإمكانات البشرية لم نسمع إلا عن إنجازات المنتصرين وأن التاريخ هو تاريخ المسيطرين .

وعلى الصعيد الغربى نجد أن التاريخ كله قد حددت معالمه بفضل الإكتشافات التقنية حتى فيما قبل التاريخ فهناك العصر الحجرى القديم وعصر الحجر المصقول وعصر البرونز وعصر النار كما أنه فيما بعد قد بدأ التاريخ الحديث عام ١٤٩٢ مع بدايات الإستعمار حيث عصر الآلة البخارية والكهرباء والطاقة النووية .

هذا هو قياس التقدم والسيطرة لأن التقسيم حسب الفترات قد قامت به امبراطوريات مثل عصر الأسر فى مصر الفرعونية أو الإمبراطورية الرومانية المحصورة داخل حدود قلاعها وجيوشها وما عدا ذلك ليس هناك إلا البربرية .

وماذا لو اختار البشر معيار آخر للتاريخ ؟

نأخذ مثلاً الفن حيث أنه هو الشيء الوحيد الذى ما تزال له آثار فإن التاريخ وترتيب الأحداث سيكون شيئاً آخر ، فمثلاً رسم لوحة الثور الأمريكى للفنان «لاسكو » معاصر لمتحنايات الفنان « ماتيس » .

واللوحة الصينية التى ما تزال موجودة من آثار عصر سونج فى القرن الثالث عشر هل ستكون أقدم أم أقل قيمة من لوحة « المزابل » للفنان « روشنبرج » أو الطبعات الخشبية للفنان أندى ورول ؟ . وكاتدرائية « دوشرتر » هل هى إنسانياً أقل أم أسمى من أعمدة بورن فى القصر الملكى ؟

ومنشأ تاج محل هل يمكن أن يستحق أن يتحامل عليه الفنان كريستو ؟ أين يمكن أن نضع قصيدة رميانا بين الأحداث التاريخية إذا قارناها بملاحم طرزان أو المدمر أو بروميثوس المكبل بالأغلال للفنان إيسكيل إذا قارناها بقصيدة سوف أبصق على أضرحتك ليورس فيان .

إن معيار التقدم سوف تتغير بشكل جذرى إذا ما قارنا بين الأخلاق والأديان فلسوف نجد فيها علامات من الكتاب المقدس .

وهنا تكمن إحدى نقائص نظامنا التعليمى ، فهناك مفهوم خاطئ للعلمانية يخلط فى العلاقة بين مؤسستين هما الكنيسة والدولة حيث كان الفصل بينهما فى فرنسا فتحاً عظيماً فى بداية هذا القرن وكذلك العلاقات بين بعدين فى الإنسان وهما الإيمان الذى يبحث عن غايات الحياة ، والسياسة التى تضع الوسائل موضع التنفيذ لتحقق الغايات الأكثر إنسانية .

هذا المفهوم الثانى قد حرم المدرسة من تخيلها هذه الغايات حين ألغى التعاليم المسيحية من جانب واحد (كان ذلك طبعاً من أجل مكافحة عقائدية دين التسلط) ولكن بالنسبة للآثار الدينية ما زالت هناك النصوص المقدسة مثل البهجافاو جتيا وحتى أنبياء بنى إسرائيل والقرآن والإنجيل .

ليس المطلوب هو حصر هذه النصوص فى برنامج مدرسى (حيث سنجد أن هناك قلة من المعلمين قادرة على إخراج هذه النصوص من دينها الحقيقى ومن إلحادها لتساعد على هذا التأمل حول غايات كل الثقافات) . ولكن المطلوب هو أن نضع هذه الأشياء تحت تصرف واستعمال البالغين من كل عصر وعلى كل المستويات الثقافية وفى أماكن مخصصة لقراءة تلك النصوص وهنا فقط قد يكون من الممكن أن نكون المبادرين القادمين للبحث فى غاية الحياة أو على الأقل أن نخلق جيلاً من المواطنين المؤمنين بقضية معنى الحياة .

(ب) الفنون « التاريخ المقدس » للبشرية .

إن المبادرة بهذا السؤال الذى يجعل من الإنسان إنسان يمكن أيضاً أن تتحقق من خلال الأعمال الفنية وفى كل لحظة من اللحظات الفاصلة فى التاريخ تظهر موجه من الإمكانيات التى تتفتح أمام الإنسان وشىء واحد هو الذى استطاع أن يكسب تلك اللحظة وهو الذى سجل التاريخ وأما الوسائل الأخرى فلم يكن هناك شاهد عليها سوى الأعمال التى تنبأت بالمستقبل وهى ليست فقط أعمال البلاد المستعمرة التى لم يكن لها حتى وقت قريب مكان إلا فى متاحف المعرفة بإعتبارهم بدائيين مثل الأقنعة الإفريقية أو البولاندية حتى عصر التكعيبية الذى أعاد إحياء هذه الفنون، أو الفنون الهندوأمريكية التى أعجب بها « دورو » والذى حكم عليه المطران دريجود ولاندا بالإعدام حرقاً باعتباره فاسقاً حينما كتب قصائد مقدسة مثل

قصيدة بوبل فه والتى هدمت الأصنام بإعتبارها أحجار وكون الجنود المرتزقة من تماثيلها الذهبية سبائك .

حتى فى داخل أوربا فإن تقسيمها إلى أمم كان له أثر على المدرسة فلم يسمح هذا التقسيم بإعادة الحياة إلى الأعمال التى خرجت مشكلة معنى الحياة ولذا يجب أن نختار النموذج الروسى لنعيد الحياة إلى ألوان الدراسة التى كتبها دوستوفيسكى مثل مسرحية قضايا أو الأخرة كرامازوف » أو نموذج يسوع الزاج الذى يستعيد حياته فى عالم غير قابل للحياة مثل مسرحية دونكى شوت التى ألفها سيرفنتس وكذلك الفارس النبى الذى كان يعتقد أن المثال أكثر حقيقة من الواقع كما يجب علينا أن نختار النموذج الإنجليزى إذا أردنا أن نعيد الحياة إلى مسرحيات عصر النهضة من خلال أعمال شكسبير . أما إذا اخترنا النموذج الألمانى فلسوف نعيد الحياة إلى مسرحية « خوذة المعلم » لجوته أو قصائد هو لدرلن .

وحتى فى الأدب الفرنسى نجد هناك كتب كثيرة قد أفسحت المجال للحديث عن «چان چينيه » أكثر مما تكلمت عن « رومان رولان » « وجورج برنانوس» «وفرانسوا مرياك » .

وقليلون هم الذين تجرأوا بالصياح فى وجه ضلالات مركز فوبور الأكثر شهرة إعلامية والأكثر مزاراً ، إن لوحة الملك عارياً تلك التى عملها بشجاعة الرسام «ماتيو» أو الأستاذ « فومارولى » متنكرين لأسواق الفن .

كم من الناس تجرأ أن يقول إذا أراد ألا يتهمش ، أن الديسكوهات الكثيرة سوف تتم كتابتها فى أبواب تاريخ الصخب وليس فى تاريخ الموسيقى ؟

هل سيستمر القرن الواحد والعشرون من أجل أن يستطيع مؤرخ بعيداً عن الموضة وعن الفكر الوحيد وعن الرعب العقلى وعن الشعور بالحرمان أن يحكم على الثلث الأخير من القرن العشرين من منظور الثقافة كما يفعل التليفزيون وموسيقى البوب والمعارض التى جعلتنا نعتقد أن سان فال كان نحاتاً « وبرنارد هنرى ليفى » و « دى كونج » كانوا رسامين ؟

إن هذا سوف يصبح جريمة تحت ستار المعاصرة عندما يشوه أطفال تبدو عليهم الشيخوخة ، بهو متحف اللوفر بباريس والقصر الملكى أو الكوبرى الجديد

بمساعدة وزراء ضد الثقافة إن الإصلاح الجمالى الحقيقى للإنسان يجب أن يحدث فى المدرسة منذ الطفولة ، إن تعليم الرسم أو الرقص يجب أن يحظى بمكانة كبيرة فى السنوات الأولى مثله فى ذلك مثل القراءة والكتابة والحساب وإستعمال الكمبيوتر وذلك حتى لا نتخم الذاكرة وحتى نفرغها تماماً لروح الإبداع بعيداً عن الآلة وكل ذلك يمكن أن نمارسه بطريقة أفضل من الآن وبجميع خطوات الذاكرة والتركيب بإستثناء فعل الإبداع الذى يحدد لأفعالنا غاياتها العلمية ولكن حتى فى تركيبتها نفسها فإن التربية لا يمكن أن تكون فقط فى المدرسة ولا فى بداية الحياة فقط .

فجميع ألوان تنمية العلوم والتقنيات والعلاقات بين الأفراد وبين الشعوب قد أصبحت سريعة جداً بشكل لا يمكن أن يحيط به الإنسان اليوم حيث أن الذى يبلغ من العمر اليوم ثمانين عاماً يعتبر قد ولد فى منتصف التاريخ العلمى البشرى ، وقد حدث كثير من الأشياء فى هذا القرن أكثر مما حدث فى خلال ستمائة عام من التاريخ المكتوب . ولنأخذ مثالاً واحداً على ذلك فإن أستاذ كبير فى الطب قد وصل إلى هذا السن يمكن أن يقول لى « لقد تعلمت وأنا طالب ٣٪ فقط مما استعمله اليوم». وعالم فيزيائى فى مجال الطاقة النووية يعتبر اليوم معاصراً لعلمه كما أن أى متخصص فى مجال تكنولوجيا المعلومات ويبلغ من العمر ٥٠ عام يعتبر معاصراً لعلمه . هذا بصرف النظر عن التحدث عما كتبه طلاب فى عام ١٩٦٨م ومعهم حق على لافتة فى مدخل السوربون تقول : « كلية الآداب والعلوم اللا إنسانية » .

فالمدرسة لا يمكن أن تنحصر فى نطاق بداية الحياة ولكن فى فترة يمكن أن تلبى فيها الإحتياجات الإنسانية بالعمل لمدة ثلاث ساعات خلال اليوم ولذلك يجب أن تكون التربية متواءمة مع الحياة بصفة عامة من أجل إيجاد شعراء فى الفنون وتلبية أسمى احتياجاتهم الإبداعية .

إن التعليم بداية من المهام الحرفية والصناعية حتى تكوين الكوادر أو الباحثين يجب أن يبدأ من هنا حيث يتغير تصرف الإنسان تجاه الأحداث بالمصنع وفى مراكز والتوجيه والبحث وفى قمة الإبداع ، دونما توقف لعجلة العمل الإنسانى . إن

المدرسة كما هى اليوم ما تزال مؤسسة قد لعبت دور مهماً فيما يتعلق بحاجات فترة معينة من التاريخ ولكنها لا تلبى الحاجات الحالية . إن نصيب المؤسسات التعليمية والطلاب وكذلك حال المعلمين تعد السبب الأول فى حالة التعليم الحالية إن أى إصلاح لنظام التعليم لا يمكن أن يجعل منه أداة لتكوين المستقبل .

إن التعود على الفعل الخلاق له مكان ممتاز فى الفنون فعندما لا تكون الفنون فى حالة تدهورها لا إنعكاساً للفوضى المكثفة ولا تمرداً عليها لا تعد فنوناً .

من الضرورى أن نتذكر الفن فى رسالته الأولى وهى خلق إمكانيات جديدة لتقدم البشرية إن الفن لم يعد فناً حين فقد الثقة فى هذه الرسالة وفى هذه الدعوة إلى سمو الإنسان وإلى ترابطه وإبداعه كما هو الحال مع « مهباراتا » ورسامى أسره « تاو » الصينيون وكما ترجمه القساوسة بشكل صوفى بالرسم والألوان مثل « روباليو » الذى صنع أيقونة التثليث ومثل بناة معبد « بروبيدور » ومسجد قرطبة وكنيسة دوشرتر ومثل الفنان فان جوخ مصلوب الرسم ومثل أساتذة التجريد الغنائى مثل مانسيه ومايتو .

ماذا يمكن أن تعطينا فى مجال النحت حركة بروميثيو فى عمل « العبيد المقيدون بالأغلال » لميشيل إنج . أو التمركز حول الذات فى العمل العظيم المستيقظ الحى لبوذا دوماصورا ؟ وهنا أيضاً وخارج المدرسة يمكننا بفضل تقنيات الإنتاج الحالية أن نضع فى أيدى الجميع روائع الرسم لكل العالم وذلك حتى نخرج من حالة العدم ولكن دون تعارض بين الألوان وأشكال النحت لكل العلم ودون أن نضعها فى قوالب من مادة الراتنج التركيبية التى تسمح بالتركيز على النماذج ذات النظام الميكرونى فقط .

ومن هذه الأعمال التى تتكلف فقط ثمن وجبة فإن كل هذه الأعمال تسمح لنا بأن نتخلص من حالة الإندفاع المرعب للمؤثرات الخاصة وألوان العنف التى تقدمها هوليود على شاشاتنا الصغيرة ، فهذا النوع من المشاهد يدمر روح النقد ليس فقط باعتبارها حلم ولكن باعتبارها كابوس أمريكى مثلها فى ذلك مثل أوهام الطمع فى مسلسلات دالاس والأشكال المرعبة من الديناصورات والأفلام

البوليسية والمؤثرات الخاصة لسلسة « يوم الاستقلال » الفارغة من كل مضمون إنسانى .

(جـ) السياسة والغاية الإنسانية .

هذا الكابوس لا يظهر فقط على شاشاتنا ولكن أيضا داخل حياتنا وعلى مستوى يتحتم علينا محاربته فالسياسة لم تعد إذن سوى المظهر الخارجى لجوهر الفنون والعقيدة .

فالإدعاء بالهيمنة العالمية للولايات المتحدة أصبح واضحاً جداً « وذلك فى شكل انحطاط الحياة لأولئك الذين يزعمون أنهم يصدرون بضائعهم إلى العالم أجمع ويسيطرون عليه » مما أشعل كثيراً من ألوان الغضب على المستوى العالمى حتى أوربا التى كانت تشارك أمريكا فى مسألة تميز الغرب بدأت تستيقظ من سباتها العميق الذى كان يمنعها من أن تصدق أنها فى سبيلها لتكون تابعاً لأمريكا أن لم نقل أنها مستعمرة من قبلها .

وفى قلب البلاد التابعة للولايات المتحدة فإن الزعماء الصهانية الذين يعدون ملهمى وقادة السياسة الأمريكية لديهم القدرة على توجيه الرأى العام وذلك بسيطرتهم على وسائل الإعلام من السينما إلى دور النشر من الإذاعة والتلفزيون إلى الصحافة المكتوبة ، وقد توصلوا هكذا إلى تغطية التوجهات القاتلة لسياسة السيطرة الأمريكية لوقت ما وكانوا يوجهون خطواتها المتتابعة : فمثلاً وجهوا سياستهم نحو العراق لتدميره بالسلاح أولاً ثم بالحظر الذى يقتل فى العراق أكثر مما تقتل الجيوش كما أنهم يريدون السيطرة والتحفظ على كل من إيران وكوبا وليبيا الذين يرفضون الشروط القاسية لصندوق النقد الدولى التى تخنق كل الشعوب .

لقد كانت ثورة « شياباس » فى المكسيك ، أولى الثورات ضد التدهور الإجتماعى الذى تمخضت عنه سياسة التحرر الإقتصادى التى تسمح للقادرين أن يهيمنوا على الأضعف منهم ويستغلوهم وقد اتضحت هذه الثورة فى شكل مظاهرات منددة بسياسة صندوق النقد الدولى التى تتطلب الخصخصة والإجراءات التى تكفل للولايات المتحدة السيطرة على البلاد الخاضعة لشروط هذا الصندوق والتى من ضمنها ضغط النفقات الإجتماعية من أجل دفع الديون وفوائدها .

لقد أخذت المقاومة شكلاً خاصاً فى المكسيك عندما تأيدت هذه السياسة بمعاهدة التبادل الحر المسماة « ألينا » بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك والتى كان من أهدافها فتح كل الحدود أمام التبادل التجارى والإستثمار .

ولنعد إلى تقرير القوة الإقتصادية بين البلدان الثلاث الأعضاء فى هذه المعاهدة.

	الولايات المتحدة	كندا	المكسيك
الصادرات بالمليار دولار	٣٩٣,٨	١٢٧,٧	٢٧,٢
الواردات بالمليار دولار	٤٩٤,٨	١١٦,٧	٣٨,٤

ومنذ فتح الحدود ظل العجز التجارى بين المكسيك والولايات المتحدة يتصاعد كل عام، فقد توقعت المادة ١٠٢ من المعاهدة ما يلى بالنسبة للدول الثلاث .

- إلغاء معوقات التجارة وتسهيل حركة الأموال والخدمات .
- تهيئة ظروف المنافسة القانونية .
- الزيادة الكمية فى فرص الإستثمار .

ولم تتوقف حدود معاهدة آلينا عند التبادل التجارى ، فلقد كان للإستثمار نصيب كبير من الإتفاقيات . حيث تقول المادة ١٠٢ : « ستمنح كل بلد للمستثمرين من البلدين الأخريين معاملةً على الأقل أفضل مما تمنحها لمستثمريها الأصليين فيما يتعلق بالمؤسسات واستخراج التصاريح والانتشار والبيع وسيولة الأموال وكل ما يلزم المستثمرين » (١) .

ففى المكسيك ذهب ٦٠٪ من رؤوس الأموال الأجنبية إلى البورصة و ٤٠٪ الباقى استخدموا لشراء المشروعات التى قامت الدولة بخصخصتها .

إن رأس المال هذا ليس فقط لم يخلق منتجات جديدة ولا وظائف جديدة بل على العكس خفض من تلك الوظائف بفعل الخصخصة فالمكاسب التى كان

(١) (ميشيل هوش - ألفونسو مونجيا - مجلة فللتك - بك عدد ٤ يناير ١٩٩٥) .

يحصل المستثمرون عليها بسهولة من البورصة وكذلك بتحرر رؤوس الأموال كانت هى الأمر الشائع يومياً فمع أقل مشكلة أو فى حالة إنخفاض الأرباح كانت رؤوس الأموال هذه تعود من حيث أتت ، فلقد قادت تبعية الإقتصاد المكسيكى رؤوس الأموال الأجنبية إلى فقد سلطة الدولة .

ومن المعروف أن الفرق الكبير فى التنمية بين المكسيك من جهة والولايات المتحدة وكندا من جهة أخرى ورؤوس الأموال المستثمرة فى الإنتاج كانت تبحث عن الاستثمار فى قطع غيار وفى تجهيزات مشروعات تكنولوجية متطورة جداً مما أدى إلى إغلاق المشاريع المكسيكية وإختفاء الكوادر المؤهلة .

وفيما يتعلق بالزراعة فإن إعداد المكسيك للدخول فى إتفاقية آلينا إتضح فى تخفيض امكانية نقل ملكية لأراضى وتعديل الدستور وبحجة زيادة الإنتاجية بمنطق التحرر فإن الفلاحين وجب عليهم بداية أن يواجهوا الملكيات الكبيرة القوية والشركات متعددة الجنسيات فى مجال الزراعة . وفى النهاية وكمهرب أخير من البؤس تحتم على هؤلاء الفلاحين الصغار أن يبيعوا أرضهم وأن يفقدوا وسيلتهم الوحيدة للعيش لقد نبعت حركة جيش زابا للتحرير الوطنى من هذا الموقف .

لقد ترك تحريم دعم المنتجات الزراعية الذى فرضته معاهدة آلينا فى المادة ٧٠٤ منها المنتجين المتوسطين فى المكسيك دون قدرة على منافسة الزراعة فى الولايات المتحدة وكندا .

« ينكر هذا القانون الجديد على كل العمال المكسيكين الحق فى الإضراب من أجل زيادة المرتبات وشيئاً فشيئاً لم يعد يسمح إلا بالإضراب من أجل فسخ عقد العمل لقد أصبحت المكسيك خاضعة بصورة كاملة لمعاهدة آلنيا وبدأنا نشهد إغلاق مئات المشاريع المكسيكية الصغيرة وقيل لنا أن أصحاب هذه المشاريع لم يعودوا يستطيعون أن ينافسوا المنتجات الأجنبية وإذا كنا نريد أن نساعد أصحاب المشاريع فى الاحتفاظ بمشاريعهم مفتوحة فإننا يجب علينا أن نتعاون معهم فالتهديد بإغلاق المصانع قد استخدم لغرض حق تصرف جديد من جانب العمال وعلى صعيد آخر وطبقاً لإتفاقية آلينا ظهرت سلسلة من خصخصة المشاريع الوطنية

ومشاريع الخدمات العامة ، كما ظهرت زيادة كبيرة فى إتفاقيات الإنتاج بين الحكومة والملاك والنقابات الرسمية .

وإتفاقيات التعاون هذه لم تكن تتعلق فقط بالقطاعين العام والخاص الإنتاجيين ولكن أيضاً فى قطاع الصحة والتعليم . ففى المدارس زادت أعداد الطلاب فى الفصول بسبب برامج التعاون هذه . كما زادت أعباء العمل إلى الضعف على الأطباء والممرضات فى الجهاز القومى للصحة . ولذلك فقد تدهورت كفاءة الخدمة الصحية بشكل مأسوى . كما أن فرص السيطرة على الأمراض قد قلت»[١] .

إن التنافس بين بلاد غير متكافئة ينتهى بتدمير البلد الأضعف .

وقد بدا الأمر واضحاً مع السياسة التحررية الجديدة . فهناك ٢٤ مكسيكى يزيد رأس مال كل منهم على مليار دولار هم وحدهم الذين استفادوا من معاهدة آلينا هذه التجربة الأولى والتى تعد نتاجاً لبداية عصر التبادل الحر بين البلاد القوية اقتصادياً والضعيفة إقتصادياً بسبب تبعيتها يصور لنا ما يمكن أن يحدث على مستوى العالم إذا حقق المسئولون الأمريكيون عالميتهم الإمبريالية .

كما أن ذلك يوضح لنا طرق التحرر وهى توحد جميع قوى العمل والفكر ضد القمع . « وبالفعل فإن المجموعات الهندية قد حملت السلاح فى منطقة شياباس فى الأول من يناير ١٩١٤ تحت اسم جيش زابا للتحرير ، وزاباتا كان إسما للقائد الملهم للإنتفاضة الهندية والفلاحية عام ١٩١١ حيث كانت المقاومة ذات توجه يبشر كل المضطهدين بالأمل » .

وقد حققت الحركة انتشاراً ملحوظاً بفضل المساندة التى تلقتها من « مطران شياباس » (كان المطران الأول فى شياباس بعد الغزو الأسبانى لمنطقة قرنس هو « برطولوم دولاس كاساس » المدافع عن الهنود الحمر) .

لقد وصل السيد « صمويل رويز » مطران شياباس إليها فى عام ١٩٦٥ وفى عام ١٩٦٨ اشترك فى مؤتمر مطارنة أمريكا اللاتينية الذى شهد ميلاد أصول حركة التحرر المسيحية فى عام ١٩٧٥ نشر رويز كتاباً يسمى « الأصول التوراتية لحركة

---

(١) (تقرير جريرو فلورز مديرة منظمة عمال النسيج المكسيكية فى كلمة أمام المؤتمر العالمى للعمل المنعقد فى سان فرانسيسكو ١٣/ ١١/ ١٩٩٤م) .

التحرر » وهو المقال الإفتتاحي فى مجلة يسوع المكسيكية حيث قدم عيسى أو يسوع باعتباره نبياً ثورياً وأنشأ فى ديره حوالى ٢٦٠٠ جمعية أساسية .

إن وقوف هذا الرجل المضاد للعنف بجانب الثوار جعله موضع اتهام من جانب حكومات المكسيك والولايات المتحدة بأنه يحرض الهنود كما أن البابا يوحنا بولس الثانى بعث إليه بأمر عن طريق المبعوث البابوى فى المكسيك بأن يستقيل من منصبه ولكن مع تصاعد الحركة فإن الحكومة المكسيكية كانت تخاف من أن تلجأ إلى السيد رويز كوسيط ولذلك فقد بقى فى منصبه وشرح فى مؤتمر عام أسباب حركة التمرد قائلاً .

« الحقيقة أن المواطنين تعبوا من الوعود الحكومية واعتبروا أنهم ليس أمامهم طريق آخر سوى حمل السلاح ، لقد دفعوا دفعاً إلى اليأس » (١) .

إننا نركز على المكسيك لثلاث أسباب

١ - إن موقفها الحالى لا يمكن فهمه بعيداً عن السياق التاريخى لأمريكا اللاتينية والاستعمار المتصاعد لنصف الكرة الأرضية كاملاً من جانب الولايات المتحدة كما أن المكسيك تشكل القاسم المشترك الأكثر انطباقاً على تاريخ بلاد أمريكا اللاتينية .

٢ - إن الأزمة الحالية هى أول الأعراض ذات الدلالة على سقوط نموذج التحرر الجديد القائم على توحيد السوق وذلك بسبب تناقضاته الداخلية والمعارضة المتنامية التى تتصاعد من جانب الشعوب التى يفرض عليها هذا النظام « إن حركة تمرد شياباس هى صورة طبق الأصل لما سيحدث إن عاجلاً أو آجلاً فى عالم المضطهدين أجمع » .

٣ - إن معاهدة « آلينا » أو « نفتا » فى لغة البلاد الأخرى لحلف شمال الأطلنطى تفتح عهد من السوق الحر بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك كما تعد هذه المعاهدة ملهمة لنفس منطق معاهدة ماسترخت فى أوربا وبشكل عام فإن هذا المنطق هو منطق ربحى ونقدى تريد الولايات المتحدة أن تفرضه على العالم أجمع ومنذ ذلك الوقت فإن حركة تمرد شياباس ضد الهيمنة الأمريكية قد أخذت أبعاد أخرى .

---

(١) (بروسيسو ، المكسيك ١٠ يناير ١٩٩٤م ص ٢٤) .

فعندما أراد كلينتون لأسباب انتخابية خادعة أن يدخل فى معركة مع الناخبين الجمهورين بأن ينتزع منهم تأييد الثوار المضادين لكوبا والذين لهم ثقل فى ولاية فلوريدا ، قرر أن يدعم الحظر ضد كوبا وذلك بالموافقة على القرارات التى صوت عليها الجمهوريون خاصة قانون « هلمز برتون » الذى يعاقب الشركات الأجنبية التى تتاجر مع كوبا وكذلك قانون « داماتوا كنيدى » الذى يعاقب المشاريع الأجنبية التى تستثمر فى إيران وليبيا . ولذلك فقد أثار غضب ليس فقط الضحايا الشعبين الأوائل لسيطرته على المكسيك ولكنه أيضاً أثار غضب الشركات الأجنبية الكبيرة متعددة الجنسيات التى استثمرت فى كوبا والتى استثمرت فى إيران وليبيا .

ومن الأمور الملفتة للنظر أن قانون « هلمز برتون » الذى صوت له الكونجرس بمبادرة من الجمهورين في ٣ يناير ١٩٩٦ قد وقعه « كلينتون » فى ١٢ مارس ١٩٩٤ من أجل زيادة العقوبات الدولية ضد حكومة « فيدل كاسترو » فى « كوبا» ودعم تغير الحكومة الكوبية إلى حكومة ديمقراطية .

ويوماً بعد يوم ننكشف خدعة التعددية الحزبية فى الولايات المتحدة حيث يسود دائماً منطق الحزب الواحد وهو حزب المال (ودخول مليارديرمثل « روس بيرو » فى الانتخابات يؤكد هذه الخدعة) . إن مسؤلى الحزب الواحد (حزب المال) سواءاً أكانوا جمهوريين أو ديمقراطين همهم الأساسى المشترك هو فرض سيطرتهم على العالم أجمع من أجل فتح أسواق بلا معوقات أمام مشاريعهم وكانت المكسيك أول الضحايا لأنها قبلت بحكم معاهدة « ألينا Alena » فلقد استمرت المجموعة الإقتصادية المكسيكية المعروفة « دوموس Domos وهى متخصصة فى مجال الاتصالات ٧٠٠ مليون دولار فى كوبا . ومن هنا فإن رؤساءها الأربعة وعائلاتهم وأطفالهم منعوا من الإقامة فى الولايات المتحدة منذ أن وضع قانون « هيلمز برتون » موضع التنفيذ فى ٢٤ أغسطس ١٩٩٦ .

وهكذا أصبح قانون أمريكى له قوة القانون خارج الولايات المتحدة تشريعاً ملزماً للعالم كله ، ولم يقف تدخل الأمريكين عند هذا الحد . ففى نفس يوم ٢٤ أغسطس وتطبيقاً لنفس القرار الأمريكى حكم على شركة كندية تدعى «شيرت انتر ناشيونال » بنفس الإجراءات التعسفية من جانب واحداً فقد تلقت إنذاراً محدداً بـ ٤٥ يوم لتصفية أعمالها فى استغلال المناجم واستخراج ومعاملة النيكل

فى كوبا . وعندما تنتهى المدة سيمنعها البوليس وستمنعها مصالح الجمارك من دخول أصحابها إلى الولايات المتحدة (ومنهم اثنان بريطانيان) وكذلك عائلاتهم.

ومثل هذه الإجراءات أثارت استياء الحكومة الكندية لأن كندا هى الشريك التجارى الأول لكوبا بمجموع تبادلات سنوية تقدر بـ ٥٠٠ مليون دولار .

كما أن اتفاقية ألينا (للتجارة الحرة بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك) تكشف بجلاء عن معانيها فهى أول تجربة للسيطرة الأمريكية على مقدرات شركائها التابعين لها .

وقد أعلنت الحكومة المكسيكية التى يساندها القطاع الخاص للإقتصاد المكسيكى أعلنت أن هذه إجراءات « غير مقبولة » وتتعارض مع مبادئ الحق العالمى « كما أن الأحزاب المكسيكية الأربعة الرئيسية قد عرضوا التصويت على « قرار التخلص» من تلك الانتهاكات لسيادتهم الوطنية حيث قالوا : « يجب أن تطبق قانون القصاص : العين بالعين والسن بالسن » الذى يقضى مثلاً بمنع المشاريع القومية من الخضوع لضغوط بلد آخر وتبنى نظام مساعدة للذين يرفضون الخضوع للقوانين الأجنبية . حتى حكومة « زيديو » التى كانت أداة طيعة فى أيدى واشنطن قامت بإجراءات مصالحه مع الحكومة الكندية من أجل إيجاد جبهة مشتركة ضد تلك التدخلات والانتهاكات الأمريكية والسيطرة على معاهدة « ألينا (وهى الإتفاقية الثلاثية للتبادل التجارى الحر فى أمريكا الشمالية) . حيث نصت المادتان ١١٠٥ و ١٦٠٣ على معاهدة للحقوق المتساوية فى الاستثمارات وحرية مرور رجال الأعمال للدول الأعضاء وهى المواد التى انتهكها تطبيق قانون « هيلمز برتون » .

وقد قررت الحكومة المكسيكية أيضاً أن تنضم إلى « منظمة الدول الأمريكية » وكذلك « الاتحاد الأوربى » من أجل دعم هذه الجبهة المشتركة ضد الإدعاءات الأمريكية هكذا فإن منظمة الدول الأمريكية قد عارضت على أصعدة كثيرة دعم الحصار المفروض على كوبا .

أما بالنسبة لأوربا فإنها أيضاً أصيبت بنفس التعسف الذى أراد به المسؤلون

الأمريكيون أن يفرضوا قوانينهم على كل حلفاءهم حيث كانوا يريدون أن يجعلوا منهم ذيولاً كما صرحت بذلك النصوص المكملة لمعاهدة ماسترخت « لا يمكن أن تكون أوربا سوى القاعدة الأوربية لحلف الأطلسى » .

ومع ذلك صرح المتحدث باسم الجماعة الأوربية كلاوس فان درباس « أن تلك الإجراءات التى تتخذها الولايات المتحدة لا يمكن القبول بها ونحن لن نقبلها » وذلك بعد منع واشنطن لخمسة مسؤلين من المجموعة التجارية المكسيكية «دوموس» من الدخول إلى أراضى الولايات المتحدة .

ويواصل « فان درباس » حديثه قائلاً : « وعلى صعيد القانون فإن انتهاك سيادة أراضى الغير واتخاذ القرار الأمريكى من جانب واحد يوضح إلى أى مدى يعد قانون « هلمز برتون » غير أخلاقى إن الولايات المتحدة اتخذت قرارها دون مشورة أحد وتريد تطبيقه على مواطنين غير أمريكين وهم رجال الأعمال الذين يوجدون خارج أراضيها . وكل هذا يحدث فى الوقت الذى تريد فيه الغالبية العظمى من الدول من خلال منظمة التجارة العالمية وضع قواعد متعددة الأطراف لدفع التجارة العالمية . وهذا هو السبب فى أن الدول الأوربية تعارض بشدة هذا القرار المعروف بقانون « هلمز برتون » بما فى ذلك البريطانيون أنفسهم » .

وفور إعلان اتخاذ إجراءات عقابية ضد الشركة المكسيكية أعلن المتحدث الرسمى باسم **Quaidosay** من جانبه « أنه فى إطار تطبيق التانون المعروف بقانون « برتون » فإن الولايات المتحدة تكون قد كشفت عن نيتها فى منع دخول مسؤلى الشركات المكسيكية إلى أراضيها هؤلاء المسؤلون الذين لهم مشاريع فى كوبا . وهذه الخطوة المتخذة من جانب واحد تتعارض مع قواعد التجارة العالمية ولذلك فهى خطوة لا يمكن القبول بها . ولذلك فإن فرنسا تشجب تطبيق هذا التشريع الذى تعارضه بشدة كما يعارضه شركاءها الأوربيون ولذلك فإن الحكومة الفرنسية مستمرة فى اتصالتها مع السلطات المكسيكية فى هذا الصدد » .

وسنرى قريباً ما إذا كانت حدة هذا الكلام سوف تتطابق مع الأفعال أم لا . وذلك لأن هناك شركة أوربية يتهددها قانون « هلمز برتون » : وهى الشركة

الإيطالية « ستت Stet والتى اشترت من شركة « دوموس » جزءاً من أعمالها فى مشروع الإتصالات فى كوبا ولذلك فهى تقع تحت طائلة المادة ٣ من القانون التى تخول للأمريكان حق الملاحقة القضائية للشركات الأجنبية التى تستخدم الأموال التى صادرتها ثورة كاسترو ، وهذا النص دخل إلى حيز التنفيذ فى أول فبراير عام ١٩٩٧ (لنتخيل أن فرنسا لو كانت لديها القدرة لطبقت مثل تلك العقوبات على الشركات الأمريكية التى وضعت يدها فى الجزائر على المشاريع الفرنسية التى صادرتها الجزائر عشية إعلان الاستقلال !) .

فهل تتمسك أوربا بطلب الإلتزام باتفاقية (منظمة التجارة العالمية) التى من أهم مبادئها أن تكفل حرية التجارة والتبادل التى تطبقها على جميع الأعضاء بحقوق متساوية أو بمعنى أصح هل تلجأ أوربا إلى محكمة العدل الدولية ؟ هذا قد يكون المنطق الوحيد لهذا الموقف ، حيث إن الخمس عشرة دولة أوربية درسوا فعلاً مشروع مقاطعة لقوانين « هلمز برتون » « وداماتوا كينيدى » التى تطلبت منهم تشديد الحصار ضد إيران وليبيا .

ولا مانع فى أن الشركاء المختلفين لا يستمرون فى توجهاتهم لمقاومة الهيمنة الأمريكية فإحداهما وهى المكسيك تخشى من ذلك لأن ميزان القوة بالنسبة للولايات المتحدة ليس فى صالح المكسيك بالمرة ، كما أن كندا تمثل تبادلاتها التجارية مع الولايات المتحدة أساس تجارتها الخارجية كما أنها تتحمل ضغوطاً مثل زيارة المبعوث الخاص للبيت الأبيض فى سبتمبر ١٩٩٦ « ستيورات ايزتشت » الذى سوف يحدد إجراءاته : حتى أنهم سيسحبون أخيراً الشركاء الأوربيين مثل « شل» التى تنازلت عن المشروعات البترولية فى إيران ومثل اليابان التى تحفظت على تلك المشاريع .

ولا يبقى إلا قليل من ردود الأفعال العالمية ضد الهيمنة الأمريكية وهى علامات تنذر باليقين بأن السياسية الأمريكية تمثل الخطر الأكبر أمام استقلال جميع الشعوب وتصاعد النزعة المضادة لأمريكا باعتبارها العدو المشترك إن حل مشاكلنا التى تتمثل فى المجاعة جنوباً والبطالة والتشريد التى تصيب أوربا كلها تتوقف على أهليتنا لتوحيد كل ضحايا الهيمنة الأمريكية حتى نعزل مسؤليها عن طريق مؤتمر يماثل

مؤتمر « باندونج » حيث قررت دول الجنوب أنها ترفض السيطرة الإستعمارية للولايات المتحدة على حلفاءها الحاليين : إن أوربا التى استفادت طويلاً من هذه الهيمنة الاستعمارية تقف اليوم فى طريقها إلى أن تصبح هى نفسها محتلة .

إن البرنامج الواقعى لهذا التحرر المزودج فى رأيى يتضح فى هاتين التظاهرتين:

- تظاهرة الجنوب : من أجل مؤتمر باندونج جديد .
- تظاهرة أوربا : من أجل وحدة متناغمة مع العالم .

* * *

الفصل التاسع

الإعلان العالمى للواجبات

الفصل التاسع
الإعلان العالمى للواجبات

إن المبادئ المنظمة للتحرر من سيطرة حرية السوق لا يمكن أن تكون هى مبادئ إعلان حقوق الإنسان التى منذ قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ وضعت نهاية للطبقية وللتميز حسب لون الدم ولكنها سمحت بظهور طبقية أخرى وألوان أخرى من التميز بحسب المال .

لقد حبست هذه المبادئ الإنسان فى أنانيته وملكيته ملغيةً فقط النظام القديم أى نظام النبلاء والملكية الوراثية لتترك الحرية أمام من يمتلكون المال فى أن يستغلوا طبقات المطحونين .

يلزمنا اليوم شيء آخر غير هذا النفى للماضى القريب . يلزمنا أن نعلو فوق أنظمة الهيمنة والادعاء بالإستثنائية الغربية وأن نبحث عن التيار الأساسى والعالمى لأنسنة الإنسان من خلال إعلان واجبات مع الدعوة إلى أن يتحمل كل إنسان مسئوليته مع التركيز بعيداً عن الطبيعة على كل ما هو إنسانى وها هى الخطوط العريضة التى نقترحها للإعلان العالمى للواجبات :

عرض سريع :

ينبع إعلان الواجبات من الفرق بين الإنسان والكائنات الحية الأخرى والفرق الجوهرى بين التطور البيولوجى والتاريخ الإنسانى أن الإنسان هو التاريخ بينما عمله هو التطور البيولوجى .

فالإنسان ليس فقط طبيعة ولكنه تاريخ معاش سواء آمن بذلك أو لم يؤمن إن الإنسان مسكون بالإبداعات السابقة للثقافة البشرية وهو المستفيد والمسئول عن هذا التراث ، ومن هنا يكمن دوره فى المشاركة بشكل خلاق فى إثراء هذا التراث ، حتى تستمر أنسنة الإنسان .

ومن هذا الواجب الأساسى تنبع كل الواجبات الأخرى .

١ - إن أنسنة الإنسان باعتبارها فعل ثقافات جميع أمم الأرض تجعل كل واجباتنا تكمن فى الحفاظ على هذه العالمية . فكل فعل وكل فكر لا يمكن أن يكون له قيمة إنسانية إلا إذا منح كل طفل وكل امرأة وكل رجل مهما كانت ثقافته الأصلية وعقيدته أو موطنه الأصلى الوسائل الإقتصادية والسياسية والثقافية أو الروحية لتطوير كل الإمكانيات الإنسانية الخلاقة التى يحملها فى داخله .

إن أى منظمة إجتماعية تريد أن تكون إنسانية لا يمكن أن يكون لها هدف غير ذلك .

وهكذا تلغى كل سلطة قبلية ويسقط الإدعاء من جانب أى فريق بأنه الشعب المختار .

٢ - إن أى سلطة يمتلكها إنسان بفضل تقلده وظيفة إدارية أو منظمة يكون عضو فيها مثل الكنيسة أو الأمة أو مشروع إنتاج أو خدمات أو مسئولية مهنية أو فنية أو أى خدمة إجتماعية أخرى تلزمه أن يقوم بواجبات إضافية وهى أن يهتم فى ممارسة سلطته نحو جماعته الأصلية بكل ما يخص من هم خارج هذه الجماعة ممن ينتمون إلى الأسرة الدولية .

فمثلاً لو كان الإنسان يمتلك سلطة دينية فإنه يجب أن يدين أى تشريد أو أى قهر للآخرين سواء كانوا متدينين أو غير متدينين . وكذلك فإن السلطة التى يمتلكها إنسان فى أمة من الأمم على أى مستوى كانت وخاصة مستوى السلطة العليا يحتم عليه واجب الإهتمام بالحقوق الخاصة لهذا الشعب وألا يميزا أحداً بعناية خاصة وألا يكون له هيمنة على أى شعب آخر .

٣ - إن الملكية تستلزم واجب توظيفها فى خدمة البشرية جمعاء لأن هذه الملكية هى نتاج علم وتقنية البشر كلهم ولذلك فهى تنتمى إلى آلاف السنين وإلى الأجيال التى خلقت التنوع الزراعى الجديد وتقنيات الصناعة والتبادل التجارى والعلوم والفنون التى استخدمها الفرد فى إيجاد هذه الثروة أو تكديسها إن من يمتلك من هذه الثروة شيئاً ولو لوقت ما سواءً بشكل خاص أو بشكل عام يعد مسئولاً عنها ومستخلف عليها وإذا لم يؤدى واجباته نحو هذه الثروة فإن الجماعة

البشرية التى هو عضو فيها لها الحق أن تسحب منه هذا التكليف وتعهد به لإنسان آخر ، شخصًا كان أو جماعة شريطةً أن يكون مضطلعاً بواجباته .

٤ - الواجبات نحو الطبيعة هى حالة خاصة من الواجبات نحو الملكية . فلاالأفراد ولا الجماعات يمكنهم أن يحتكروا التميز بإستهلاك أو تبذير أو تدمير الثروات من أجل إستمتاعهم الشخصى ، فالطبيعة التى ورثناها اليوم كانت فى أكبر أجزائها ذات طابع إنسانى نتيجة لعمل أجيال كثيرة . فلا يمكن أن تعتبر لا تكديساً بلا حدود للثروات لإشباع رغبات اللحظة ولا أن تكون مستنقعاً لنفاياتنا إن الطبيعة تخص ليس فقط مليارات الموتى الذين أثروها ولكن أيضاً تخص الذين لم يولدوا بعد . ومن واجبنا أن ننقلها أكثر ثراءً وأكثر جمالاً مما تسلمناها ، دون أن نمس المستقبل .

٥ - والحرية تعنى ألا يكون الإنسان أسير مصالحه الخاصة أو التوجهات الخاصة للجماعة التى ينتمى إليها ولكن أن يتصرف فقط من أجل مصلحة جميع أعضاء الأسرة الدولية فالحرية ليست فقط منحة لفرد ما . ففى المجتمعات الغربية يعد الفرد مركز ومقياس كل شىء وهو منفصل عن الآخرين بسياج حديدى من حقوقه. وعلى العكس فإن الإنسان يجب أن يؤمن بواجباته وهى أن يكون حقاً مسئولاً عن مصير كل الآخرين .

٦ - الأمن ومقاومة كل ألوان القمع (تلك التى لا تأتى إلا من أفراد وجماعات ترفض الإعتراف بالواجبات الإنسانية) والأمن والمقاومة ينبعان من هذا التضامن الحقيقى من جانب المؤمنين بواجباتهم فأى قوة طبيعية (وقد أعطانا التاريخ أمثلة كثيرة على سقوط كثير من الإمبراطوريات) لا يمكن أن تتغلب لوقت طويل على جماعة موحدة وحدة الإيمان المشترك بواجباتها العالمية الإنسانية .

٧ - أى رجل أو أى امرأة على أى مستوى من القوة الإقتصادية والسياسية أو الفكرية له الحق فى أن يسأل عن الغاية ، أى معنى وهدف سلوكه وعما إذا كان يساعد على إزدهار البشرية ، أو يساعد على انحطاطها وتدهورها ؟ وهذا يستلزم:

(أ) مشاريع إنتاج (حتى نقلص مشاريع التنافس ذات الأرباح العالية مثل تجارة السلاح وتجارة المخدرات) .

(ب) أو خدمات تفيد فى زيادة قوة تبادل الأفكار (لا سيما فى مجال وسائل الإعلام مثل الدعاية والتربية والأديان والفنون) .

٨ - إن حقوق الإنسان تنبع من هذه الواجبات وتتلخص فى حق واحد : فلا شىء يجب أن يشكل عقبات أو حدود أمام الإنسان (إذا تعلق الأمر بالتمايز الإقتصادى أو سياسى أو ثقافى أو فكرى) من أجل القيام بواجباته نحو الجماعة الكوبيبة للبشر .

٩ - إن مجموع هذه الواجبات يعود إلى فترة من أكثر فترات تاريخنا ثراء فى المجال الفكرى عندما أعتقد الإنسان وآمن بإنسانيته أى بتنوعه فى مقابل كل أنواع الحيوانات الأخرى . فالطبيعة لا تستبعد الصراعات حتى الموت بين الأنواع المختلفة ولا تدمير مليارات الخلايا والكائنات الدقيقة كما أنها لا يمكن أن تصيغ قوانين التصرف البشرى . إن الواجب الوحيد الذى يشمل كل الآخرين يستلهم صياغته الأولى الواقعية والبشرية فى هذا المبدأ . « كن واحد مع الكل » .

* * *

الفصل العاشر

برنامج واقعى

الفصل العاشر
برنامج واقعى

(أ) بالنسبة للعالم الثالث : مؤتمر باندونج جديد .

هذا هو البديل الذى نقترحه بالنسبة للقرن الواحد والعشرين حتى ننتهى حيوانية ما قبل التاريخ بالنسبة للإنسان حيث تستلزم الثروة التى تتحكم فيها أقلية صغيرة فى عالم محطم التبعية أو الإستغلال أو الموت بالنسبة لمعظم البشر :

١ - نهضة الوحدة البشرية لا يمكن أن تحدث كما كان إنقطاعها بالعنف والسلاح ولكن بكل القوى البشرية من الإقتصاد إلى الثقافة وحتى العقيدة .

٢ - إن ضعف الشعوب المقهورة حالياً يعود فى جانبه الأكبر إلى الإنقسام والمعارضات والحروب التى أشعلها وما زال يشعلها سادة العالم الحاليون وأول المهام هى وضع نهاية عن طريق المفاوضات السلمية لكل الصراعات التى هي لعبة المضطهدين .

٣ - أننا نرفض كليةً أن ندفع الديون التى يطالب بها صندوق النقد الدولى ولذلك لأسباب ثلاثة .

الأول : من هو الدائن ؟

إن الغرب عليه دين كبير إذا قيس بالعالم الثالث :

* من الذى يمكن أن يسدد لبيرو الـ١٨٥ ألف كيلو جرام من الذهب ، ١٦ مليون كيلو جرام من الفضة التى اعترفت جهات رسمية بنقلها من عام ١٥٠٣ - ١٦٦٠ ؟ وبشكل أعم من الذى أغتصب من الهنود الحمر قارتهم بالكامل ؟

* من الذى سيعوض الهند القديمة المصدر العالمى للنسيج عن ملايين الأطنان من القطن التى انتزعت من المزارعين بأثمان زهيدة وبإبتزاز ؟ وكذلك من يعوضها عن تدمير مصانع وورش النسيج الهندية لصالح شركات « لانكشير » الكبيرة ؟

* من يعيد إلى أفريقيا حياة الملايين من أبنائها الأقوياء الذين أقتيدو كعبيد إلى

أمريكا على أيدى النخاسين الغربية لمدة ثلاثة قرون ؟

الثانى : ما هو سبب هذه الإستدانة ؟

إن البلاد الإستعمارية القديمة قد دمرت الأقتصاديات المحلية وخاصة حين ضحت بالزراعات المتنوعة لصالح الزراعة ذات النمط الواحد والإنتاج ذى النمط الواحد حيث جعلت من الدول التى تستعمرها ذيولاً لإقتصاديات العاصمة وذلك لصالح الدولة المستعمرة . وبهذه الأشكال الإقتصادية لم يكن من الممكن ضمان إستقلال هذه البلاد ولا إكتفاءها الذاتى غذائياً ولا على مستوى الأيدى العاملة اللازمة للصناعة التى تلبى إحتياجات هذه البلاد .

ولذلك استمرت التبعية وأصحبت القروض ضرورة لا بد منها .

الثالث : إن هذه الديون سددت منذ وقت طويل فى شكل فوائد ربوية تدفع للدائنين الأجانب (فمثلاً تدفع الجزائر عن ديون مقدارها ٢٦ مليار دولار ٦ مليون دولار فوائد سنوياً) ولذلك فأى إصلاح ليس ممكناً ، وهنا يكمن السبب الرئيسى فى كل ألوان التطرف .

إن المبالغ الكبيرة التى دفعناها فى شكل فوائد دين تخطت منذ زمن طويل قيمة الدين الأصلى . وما يدعون أنه مساعدة يعد قليلاً جداً إذا قيس بما يدفع من هذه الديون .

* أننا نرفض إذن أن نبتز أو ندفع إلى صندوق النقد الدولى هذه الديون المزعومة والفوائد الربوية المرتبطة بها .

* إننا نرفض أيضاً المساعدات الخبيثة التى تهدف إلى إخفاء الظلم الذى يفوق هذه المساعدات مئات المرات .

* إننا سوف نشكل مع إلغاء الديون والفوائد صندقاً للتضامن يعوض على نطاق واسع المعونة التى يزعم مستغلونا أنهم يدفعونها .

٤ – أننا نعارض كل أشكال الحصار المفروضة بشكل تعسفى من جانب سادة العالم المؤقتين على البلاد التى ترفض هيمنتهم .

أننا سوف لا نعتد بهذا الحظر من الآن فصاعداً وسنبدأ بحرية فى التعامل مع إخواننا الذين أصيبوا بهذا الحظر .

٥ - وبشكل أكثر عمومية فإننا قررنا إنشاء سوق مشترك لشعوبنا وكذلك زيادة التبادل التجارى بين شعوب الجنوب وبين بلادنا التى تمتلك ٨٠٪ من موارد العالم الطبيعى .

* وسوف نعتمد فى هذا التبادل على نظام المقايضة حتى لا نضطر للتعامل بعملات الشمال ولا سيما الدولار مع العناية بكل ما من شأنه أن يضع نهايةً لنظام المضاربة وذلك حتى نستطيع شيئاً فشيئاً أن نوجد نقوداً مشتركة تصلح للتبادل فى جميع بلداننا .

٦ - وهذا يتطلب مقاطعة منظمة للولايات المتحدة وحلفائها لا سيما إسرائيل حليف الغرب المضاد لكل ثقافتنا والمضاد للسلام .

* إننا نريد أن نتخلص من كل أشكال الهيمنة الإقتصادية إعتداءتها الثقافية .

* إننا سوف نحارب ضد التسطيح الثقافى لأفلام الطغاة والمدمرين التى تنتجها هوليود وكذلك أدواتهم وكل المظاهر الأخلاقية والمادية التى تشهد على إنهيارهم.

٧ - وهذا يتطلب على المستوى السياسى الإنسحاب الشامل من كل المؤسسات التى تسمى بالعالمية والتى أصبحت أدوات لسيطرة دولة واحدة وغطاءً لكل إعتداائتها العسكرية أو الإقتصادية أو الثقافية وهذه المنظمات هى الأمم المتحدة وصندوق النقد الدولى والبنك الدولى والمنظمة العالمية للتجارة (الجات) وكذلك كل المنظمات التابعة لها والتى لا تعدوا أن تكون شركاء للهيمنة الإمبريالية على العالم بشكل يحتكر الإنسان ويعتبره فقط مستهلكاً أو منتجاً ومشغولاً بمصلحته فقط ومتنكراً لمنح البشرية معنى آخر لحياتها غير أن تكون عبداً لإستهلاكها وألا يكون الإنسان عاطلاً ولا محتلاً ولا مشرداً .

٨ - إن أشكال التهديد والعدوان على أى دولة منا سوف تحارب بشتى الوسائل من جميع أعضاء الجماعة الدولية .

٩ - هذه الجماعة الدولية التى تهدف إلى خلق عالم ذى توجه إنسانى لا تحمل فى طياتها أى خصوصية ولا أى تدين محدد ولا أى سياسة لأن هدفها هو خلق وحدة ليست امبريالية ولكنها متناغمة مع البشرية حيث تقدم كل جماعة وكل شعب ثروات أرضها الخاصة وثقافتها وعقيدتها .

إنها إذن منفتحة أيضاً على الدول الرسمية التى تشاركنا نفس النموذج الإنسانى ومنفتحة أيضاً على الأقليات المضطهدة بشرط واحد وهو أن تحقق فى كل بلد وحدته على أساس مبادئنا المشتركة .

لقد كان هدف مؤتمر باندونج الأول فى عالم ثنائى القطبية هو رفض الإنحياز إلى أى من القطبين وذلك من أجل الحفاظ على الإستقلال وهذا الهدف ما زال هدفنا .

ولكن الظروف التاريخية تغيرت فنحن نعيش فى عالم أحادى القطبية ولهذا يتحتم علينا أن ندافع عن هوياتنا من الثقافة إلي الإقتصاد ضد الذين يمهدون لإدعاء الهيمنة العالمية عن طريق اللعبة الوحيدة المسماة بتوحيد السوق ، أى بحرية الأقوياء فى أن يلتهموا الضعفاء ، جاعلين من السوق أى من المال المنظم الوحيد للعلاقات الإجتماعية .

إننا نرفض هذه النظرة للعالم بدون الإنسان وهذه النظرة للحياةدون مغزى ودون مشروع إنسانى ، أننا نتوحد من أجل بناء عالم واحد غنى بتنوعه وواثق من مستقبله بفضل تقارب الشعوب والثقافات فى يقين مشترك تغذيه التجربة الثقافية لكل منا ويغذيه المشروع المشترك لمنح كل طفل وامرأة ورجل مهما كان أصله أو تقاليده الذاتية كل الوسائل الكفيلة لإستغلال كل الإمكانات البشرية التى يحملها فى داخله .

(ب) بالنسبة لأوربا : من أجل وحدة متناغمة مع العالم .

إن السياسة الوحيدة التى يمكن اليوم أن يكون لها مستقبل هى التى ستحل المشاكل الرئيسية التى نواجهها وهى :

البطالة .

الهجرة .

مشكلة الجوع فى العالم .

مع كل النتائج الأخلاقية والثقافية التى تتمخض عنها .

هذه المشكلات الثلاث ليست سوى مشكلة واحدة .

ولا نجد أمامنا سوى حلول وهمية وهى :

- أن هذه المشكلات يمكن حلها عن طريق الإزدياد والتنمية .

- أن هذه المشكَلات سوف تحلها أوربا .

وهذه هى الأكاذيب القاتلة .

١ - لا شيء من مشاكلنا الحيوية يمكن أن تحل عن طريق الإزدياد .

إن الدول والأحزاب السياسية فى البلاد الغربية لا يتعرضون أبداً لهذه المشاكل لأنهم محاصرون منذ خمسة قرون بأوهام الإزدياد التى تعتمد على الإنتاج لأى شيء وبأقصى سرعة سواءاً أكان ما ينتجونه نافعاً أم غير نافع أو حتى ضار أو مميت (مثل المخدرات والسلاح) . وهذا الإزدياد تسوقه سياسات وسائل الإعلام على أنه طوق النجاة للخروج من الأزمة ومن البطالة بينما لم يخلق الإزدياد الذى أعقبه انتاجية عالية من ١٩٧٥ بفضل تقدم العلوم والتقنيات أى فرص عمل ولكنه على العكس دمر فرص عمل كثيرة حين استبدل شيئاً فشيئاً عمل البشر بعمل الألة . ففى عام ١٩٨٠ كانت بلجيكا تنتج ١٠ مليون طن من الصلب بقوة ٤٠٠٠٠ عامل وفى عام ١٩٩٠ كانت تنتج ١٢ مليون ونصف طن بقوة ٢٢٠٠٠ عامل .

إن الإزدياد مدفوع بمكاسب الإنتاج المتحصلة بفضل العلوم والتقنيات التى تسمح باستبدال جزء كبير من العمالة البشرية بالآلات وقد تطور هذا الاستبدال اليوم بفضل ثورة المعلومات والإنسان الآلى .

ومن العبث أن نجرم العلوم والتقنيات لأن المأساة تأتى من استخدام أو سوء استخدام هذه الأشياء .

فمثلاً منذ ١٩٧٠ زاد معدل الإنتاج عالمياً بفضل زيادة الاكتشافات العلمية بنسبة ٨٩٪ وكانت هذه فرصة للبشرية لتوفر المحاولات المتكررة نلإكتشاف ولكن كانت هذه أيضاً مأساة لأنه فى نفس الوقت لم يتقلص وقت العمل كما أن البطالة زادت بمقدار عشرة أضعاف وهذا يعنى أن زيادة الإنتاج لا تخدم الإنسانية بشكل عام ولكنها فقط تخدم من يملكون أدوات الإنتاج .

وربما كان من الأفضل للجميع لو كان وقت العمل أسبوعياً موافقاً لاحتياجات الإنتاج . وسيكون من الأفضل لو لم تؤدى هذه الزيادة فى أوقات الفراغ إلى

«أسواق الفراغ» التى تحول أوقات الفراغ إلى وقت مفرغ من الإنسانيات وذلك بفضل أنواع التسلية المختلفة التى تعرض للشاب المتفرغ ولا تنمى فيه الإزدهار الجسمى أو الثقافى.. هذا الوقت المفرغ الذى يحل محل مساعدة الإنسان على أن يكون إنساناً أى مبدعاً سوف ينتهى به الأمر أن يجعل من الإنسان عاطلاً وفى أحسن الأحوال مستهلكاً ، فليس هناك علاقة بين الإزدياد والبطالة :

ففى فرنسا مثلاً :

* فى عام ١٩٩١ كان معدل النمو ٧٪ بينما كان العاطلون ٢٣٤٨٠٠٠ عاطل بما يعادل ٩,٤٪ من قوة العمل .

* فى عام ١٩٩٢ تضاعف معدل التنمية فبلغ ١,٤٪ فى تعامل ٢٥٠٠٠٠٠ عاطل (١٠,٤٪) .

* فى عام ١٩٩٣ هبط معدل التنمية إلى ١٪ فى تعامل ٢٩٠٠٠٠٠ عاطل (١١,٦٪) من قوة العمل .

* فى إبريل ١٩٩٤ كان هناك حسب المصادر الرسمية ٣٢٠٠٠٠٠ عاطل .

ولا يعنى هذا أننا ضد التنمية أو على الأقل ضد تطور العلوم والتقنيات إذا كان ذلك سوف يؤدى إلى تقليل معاناة الرجال والنساء ولا يقود إلى عبودية لهوس المادة والمثال على ذلك « شبكات المعلومات » التى تسيطر على الرأى العام من أجل خدمة الهيمنة الأمريكية .

ولكن التنمية وزيادة الإنتاج حتى مع ما نرجوه من ترتيبات لن تحل مشكلة البطالة لأن حل البطالة فى أحسن حالاته سوف يدخل أصحاب العمل هم والحكومة فى ضغوط يريدون الخروج منها مثل المرتبات والضمانات الإجتماعية بينما هم يريدون انتهاك بعض أجزاء السوق لقصرها على المنافسة الأوربية أو الأمريكية أو اليابانية ولكنهم سوف يظلون غازين خادعين .

والأكذوبة الأخرى بعد أكذوبة التنمية والتى يعدونها طوق النجاة أيضاً هى أوربا .

فلا شىء من مشاكلنا الحيوية يمكن أن يحل فى إطار أوربا .

فالعالم يعدنا بأننا سنجد مع أوربا سوقاً قوامها ٣٠٠ مليون زبون إن لم نقل

أنها ستجد ٣٠٠ مليون منافس فى سوق العمل . وذلك لأن الإقتصاديات الأوربية ليست فى أغلبها متكاملة ولكنها متنافسة مثلها فى ذلك مثل اقتصاديات أمريكا واليابان هل يمكننا القول أن البديل الوحيد لأوربا سيكون الإنكفاء القومى على فرنسا وحبسها فى أسوار الحماية القومية ؟ على العكس من ذلك سيكون البديل هو الإختناق إن الحل الوحيد الممكن هو الانفتاح على العالم فى شموليته فبرغم مرور ٥٠٠ سنة على الإستعمار و ٥٠ سنة على ظهور صندق النقد الدولى والبنك الدولى ما زال هذا العالم منقسماً فى ظل اقتصاد متداعٍ حيث ما زال هناك ٢/٣سكان العالم يستغلهم الغرب وما زال العالم المنقسم إلى جوع وبطالة بلا حل لمشاكله . وبين مشكلة البطالة والجوع تظل الهجرة هى الطريق بين الجنوب والشمال .

حتى حين نركز على مصطلحات السوق فكيف نأمل أن نمنح فرص العمل للبعض بينما مليارات من البشر ليس لديهم حتى ما هو ضرورى لشراء الخبز ؟

إن الحل الوحيد الممكن لمواجهة مشاكل الجوع لدى البعض والبطالة لدى البعض الآخر وهجرة المطحونين بحثاً عن العمل هو التغير الجذرى لعلاقتنا مع العالم الثالث مع وضع نهاية لسيطرة الغرب وتبعية الجنوب لأن هذه التبعية هى التى جعلت هذه الدول تحت خط التنمية .

إننا نعيش فى عالم منقسم بين الشمال والجنوب وكذلك بين من يملكون ومن لا يملوكون حيث إن هناك ٨٠٪ من الموارد الطبيعية فى العالم يتحكم فيها ويستهلكها ٢٠٪ من سكانه حيث إن الـ ٢٠٪ الأكثر غنى يحصلون على ٨٣٪ من الدخل العالمى بينما يحصل الـ ٢٠٪ الأكثر فقراً على ١,٤٪ فقط .

ونتيجة هذا الإنقسام هى ٤٠٠٠ يموتون يومياً بسبب الجوع . كما أن نموذج التنمية الغربي يكلف الجنوب كل يومين ما يساوى ضحايا هيروشيما .

وتتسع الهوة : ففى خلال الثلاثين سنة الأخيرة اتسعت الهوة بين البلاد الفقيرة والبلاد الغنية من ١ إلى ٣٠ لتصبح ١ إلى ١٥٠ .

وعند ظهور الاستعمار منذ ٥٠٠ سنة ونظام «برتون ودز» منذ نصف قرن ظهرت تلك الفوارق بين الشعوب كما أن حرية التبادل تكرس زيادة خطر الهيمنة والتبعية .

كيف نغير التوجهات الحالية ؟

بداية بتدمير تلك الأسطورة المسماة بالديمقراطية وحرية السوق . فالسوق الحر هو الذى سيغتال الديمقراطية بسبب تجميع الثروة فى جانب من المجتمع والبؤس فى جانب آخر .

والأمر يتطلب عدداً من القرارات السياسية التى تهدف إلى التحرر من دعوى عولمة الإقتصاد . أى الإرادة الأمريكية بأن تجعل من فرنسا ومن أوربا وبقية العالم مستعمرة منفتحة على متطلبات الإقتصاد فى جميع المجالات : من الإنتاج الزراعى إلى غزو الفضاء ومن المعلومات إلى السينما .

لقد اتضح يوماً بعد يوم أن ماسترخت هى السبب الأساسى فى مآسى ليس فقط فى مجال الزراعة بما يتطلب تبوير الأراضى ولكن مع كل العمال وذلك بمساعدة وتشجيع ظروف العمل بحجة المنافسة الأوربية باسم (المرونة) وذلك بتسهيل كل الصناعات من الطيران إلى المعلومات وتمويه ثقافتنا بغزو السينما الأمريكية والتليفزيون الأمريكى جاعلين من جيوشنا ذيولاً للتدخلات الأمريكية . فمعاهدة ماسترخت تقول فى ثلاثة مواد منها أن أوربا ليست إلا القاعدة الأوربية لحلف الأطلسى » . أما بالنسبة للإقتصاد فإن المادة ٣٠١ من القانون الأمريكى تسمح بحماية المنتجات الأمريكية بينما تفرض اتفاقية الجات (منظمة التجارة العالمية) على كل البلاد الأخرى حرية التبادل التى تترك الساحة خالية أمام الواردات الأمريكية .

كما أن قوانين « هلمز برتون » ١٩٩٦ و « داماتو كندى » الذين صوت عليهما الكونجرس الأمريكى تدعى السيطرة على كل الجماعة الدولية وتمنعها من أى تجارة إلا مع الدول التى تحددها هى ، وهكذا نجد أن المسئولين الأمريكين يسنون القوانين للعالم أجمع ، إننا نطالب أيضاً بالإنسحاب من صندوق النقد الدولى والبنك الدولى وكل المنظمات الأخرى التى تستخدم كأداة لفرض الهيمنة الأمريكية على العالم .

ومن خلال ذلك سوف تساعد الحرية فى إقامة علاقات مختلفة جذرياً مع

العالم الثالث بهدف محدد وهو تشجيع الشعوب الأوربية الأخرى على السير فى نفس الاتجاه وذلك عن طريق :

١ - الإلغاء الكامل للديون التى ليس لها أساس تاريخى أو مبرر .

٢ - إلغاء كل مساعدة إقتصادية لحكومات العالم الثالث .

مثلاً هناك ٤٠ مليار فرنك مساعدات للتنمية هى حاصل ميزانية المعونة العامة الفرنسية وهدفها الرسمى هو دعم فقراء العالم بينما ٨٥٪ من هذا المال ليست للمساعدة ولم تسهم فى التنمية . ولكنها فى أحسن أحوالها تفرغ جيوب المساهمين لتملأ جيوب المنتفعين الحكوميين (فى الشمال وفى الجنوب) وفى أسوأ حالاتها تستخدم للقتل .

والأمثلة الأخيرة شاهد لنا على ما نقول :

- ففى رواندا استخدمت المعونة لتمويل حكومة القتلة من أجل تثبيت أقدامها بقدر الإمكان ثم لتمويل عملية الفيروز لتسهيل نقله إلى زائير حيث يعد للتصدير.

- وفى الجزائر قدم دعم مقداره ٦ مليار فرنك للحكومة التى نادت بنفسها حاكمه للدولة بعد أن ألغت بشكل غير شرعى الانتخابات . كما أن فرنسا باعت لنفس الحكومة طائرات هيلوكوبتر (وهى السلاح الفعال لمواجهة حرب العصابات) .

٣ - هناك قروض عامة أو خاصة لا تمنح للحكومات مباشرة ولكن للمنظمات الرئيسية (التعاونية - النقابات - جماعات المنتجين وذلك من أجل تشجيعهم) هذه القروض لمشاريع تعود بالنفع على المجتمع ولا سيما المناطق الزراعية وحفر الآبار وبناء الطرق والمستشفيات والمدارس الخ) وهذه يجب دعمها .

٤ - ضرورة القبول بأن تدفع هذه الديون بعمله البلد المدين (وذلك من أجل تشجيع إعادة استثمارها بدلاً من إعادة سرقتها فى صورة فوائد .

٥ - ضرورة تحديد أمين لأسعار المتجات التى تبيعها بلاد الجنوب حتى تقترب من أسعار المتجات التى تبيعها دول الشمال .

٦ - يجب أن نقف فى وجه عملقة المشاريع التى تهدف إلى الاستثمار فى

شكل شركات كبرى . وكذلك يجب أن نحترم التاريخ وثقافات كل بلد والاستخدام الأوسع للتقنيات المحلية والخاصة أحياناً . . .

إن الولايات المتحدة تحاول عن طريق نفاق التحرر الإقتصادى المفروض على كل الشعوب فتح أسواق عن طريق خلق ما يعرف بأمبراطوريات الشر المتلاحقة وذلك حتى تكون غطاءً لحربها ضد ما تسميه بالإرهاب وجرائمه ضد الإنسانية ومن ذلك حربها ضد الهنود والسود وڤيتنام وألوان الحصار المفروضة على كوبا وليبيا وإيران والعراق والتى تتسبب اليوم كما يقول الصليب الأحمر فى قتل أكثر من ٢٥٠ ألف فى العراق وحدها بينما هناك طفل من بين كل ثمانية أطفال فى أمريكا لا يأكلون حتى الشبع حسب تقرير اليونوسيف . هؤلاء المدافعون عن حقوق الإنسان وهذه الجرائم الخارجية ضد الإنسانية يمتلكون أعلى المعدلات المحزنة للإستهلاك العالمى للمخدرات وانتحار البالغين ومعدلات الجريمة والفساد كما أن السنيما الأمريكة تغلف بأقلام الديكور وأسماك قرش أفلام « دالاس » وحقيقة عنف الديناصورات والمدمر وغيرها .

كما أن وسائل الإعلام الأمريكية والتليفزيون ووسائل الإتصال هى علامة على الموت الذى يهدد العالم بالدمار كما تهدد الروح النقدية الروح القصيرة والنفس القصير والثقافة والعقيدة والأمل والحب لدى خمس مليارات من البشر .

هذا الكتاب هو مشروع يهدف إلى إثبات نهضة البشرية وكذلك خلاصها يستلزمان ترتيب المستقبل على أسس جديدة .

إن الحساب الختامى لهذا القرن يزخر ليس بإفلاس ماركس الذى خانت الإشتراكية مبادئه ولكن بإفلاس آدم سميث حيث يهدد تحرره الذى يصل إلى مداه بانتحار كوكبى وعواقب وخيمة .

كيف تفتح أفقاً جديداً ومستقبلاً ذا توجه إنسانى بعيداً عن مجالات انهيار تلك الحيوانية التى تشبه ما قبل التاريخ والتى تبلغ ذروتها مع القرن العشرين ؟ من أجل ذلك يجب أن نبحث عن الأخطاء التى أثرت فى التاريخ البشرى تأثيراً بالغاً. لقد كان أول انشقاق غربى ذلك الذى حدث مع سقراط (بداية الإنهيار كما يقول نيتشه) وكذلك مع تلاميذه أفلاطون وأرسطو، فلقد أفسدوا التاريخ العقلى للغرب لمدة ٢٥٠٠ عام بفلسفة الوجود وهى أساس كل ألوان الهيمنة والسيطرة.

لقد حاولنا أن نسلك سبيل فلسفة الفعل action وهى فلسفة بقية العالم من نشأه أول آلة وأول مقبرة وأول حلم خالد وخلاق .

وكان الإنشقاق الثانى فى الغرب هو الحروب الصليبية وما تبعها من ملاحقات ومن محاكم التفتيش ضد كل حكم الشرق .

وكان الإنشقاق الثالث فى الغرب هو دعوى النهضة التى استخدمت الإكتشافات العلمية المصنوعة فى الشرق مثل (البوصلة والدفة المحورية ومسحوق الطباعة) لتجعل منها أدوات بحث للشعوب والعقول .

وقد بدأ هذا الانشقاق فى حوالى عام ١٤٩٢ مع آخر طرد لثقافات الشرق بعد سقوط غرناطة وغزو وتدمير ثقافات أمريكا الهندية بالجوع والنهم إلى الذهب من خلال رحلات كريستوفر كولمبس .

إن أمامنا ٢٥٠٠ سنة من الهيمنة الغربية لا بد من إعادة النظر فيها عن طريق مفاهيم جديدة للإنسان واقتراح بديل للوحدة الإمبريالية للعالم : وهى وحدة متناغمة تستدعى حكم وثقافت العوالم الثلاث لتعيد وضع البشرية على طريق التخصيب المتبادل لكل الثقافات انتهاءً بالخروج من التوجهات المميتة للعرقية الأوربية والسيطرة .

وهذا يتطلب أيضاً إيجاد معايير أخرى « للنجاح » ، غير قوة التقنيات والثروة ومعدل الإقتصاد القومى » حتى نعرف التنمية ليس بالتنمية الإقتصادية وحدها ولكن بتنمية الإنسان .

وذلك يتطلب على الصعيد الأصولى أن نعيد إلى الإنسان بعده الأساسى وهو السمو وذلك بأن يعتقد ليس أنه خارج عن إله عاهل يتصرف من الخارج ومن أعلى فى مصير البشر والإمبراطوريات ولكن كنهضة جديدة قوامها إبداع الإنسان مع وجود الضمير (وحين نقتبس كلام آباء الكنيسة الشرقية) نقول أن الإله جعل من نفسه إنساناً ليجعل الإنسان من نفسه إلهاً . يجب لذلك أن ننقطع عن الأحكام المسبقة القائلة بأن التاريخ المقدس هو تاريخ قبيلة معينة ولكن أن نؤمن بأن هذا التاريخ يكتشف جذوره فى كل أسر الأرض وفى كل الثقافات والحضارات فى أمريكا الهندية وإفريقيا وآسيا .

كما يستلزم ذلك على الصعيد الجمالى ليس أقل نظام الدراسة من أجل إبداع البشر : وذلك حتى لا نبتسر جمال النماذج الغربية فى فن اليونان أو عصر النهضة فى القرن السادس عشر . ولكن أن نخرج من متاحف العرقية أقنعة بولينو سيوس ومن إفريقيا فنون النحت . والمعمار من أمريكا الهندية وأن نعترف بالأبعاد النبوئية للوحات الصينية من فترة سونج والدعوة إلى النظرية الداخلية لدوماتورا والبوذية فى جنوب أسيا . وهكذا فقط يمكن أن يخرج الإنسان من أخاديد إيماءات أرسطو وأن لا يكون محكوماً عليه بمعايير التشريح منذ عصر النهضة و(الإطفائية التى آمن بها المعلمون لمدة ثلاثة قرون) . فلنخرج أيضاً من الأخدود الآخر وهو النفي البسيط والتمرد الذى يقود إلى تدهور الفن المسمى « المعاصر » الذى يعتبر نفسه بشكل أو بآخر عصرياً حين يكون أكثر تنكراً للماضى . ويصل الأمر به إلى إنتاج ما يمكن تسميته بلوحات وتماثيل أرضية من المستنقعات وذلك باستبدال تاريخ الموسيقى بتاريخ الضجة أو تاريخ الرقص بتاريخ الإيماءات الهيستيرية الخالية من أى معنى إنسانى .

إن أحد أكثر فنانى عصرنا وهو رائد التكعيبية (خوان جريس) يذكر أن « عظمة الفنان تتوقف على قوة الماضى الذى يحمله فى داخله ، ليس من أجل تقليد القدماء والحفاظ على مبادئهم ولكن من أجل استمرار شعلة النبوئية التى حملها العظماء من أجل إيجاد الإمكانيات الجديدة دائماً لأنسنة الإنسان .

وهذا يتطلب على الصعيد السياسى والاقتصادى تكسير الأصنام المدعوة بالعلوم الإنسانية حيث يعد منهجها مستنسخاً من علوم الطبيعة وقائماً على المفهوم المبتسر للإنسان « الإنسان الإقتصادى » الذى لن يكون إلا منتجاً ومستهلكاً ومشغولاً بمصلحته فقط . كما أن من الخطر بمكان أن الاقتصاديين يحاولون أن يغلفوا أنفسهم بقناع من الجهاز الرياضى الخادع والصعب حتى يجعلوا من مظاهر أى علم عقيدة تهدف إلى إستمرار النظام القائم . إن قلب المفهوم هو البحث مع التركيز على كل المفاهيم الأخرى للإنسان عن الوسائل الممكنة لخلق ظروف تقنية وإقتصادية وسياسية وفكرية تسمح لكل كائن بشرى إمرأة أو رجل أن يصبح أكثر إنسانية أى أن يصبح شاعراً بالمعنى العميق للكلمة وهو أن يكون مبدعاً لإحدى إمكانيات المستقبل .

وهذا هو الهدف الذى نركز عليه وهو يتجاوز كل إمكانيتنا والتى حتى الآن ليست إلا ملحمة من الإقتراحات وهي ليس لها من طموح سوى أن تساعد فى كسر نظرتنا المركزة للعالم حتى تشكل العقول المتفتحة والفاعلة فى وحدة البحث والعقيدة عالماً يمكن وصفه فى النهاية أنه إنسانى .

وفى نهاية هذا الحساب الختامى من هذه المحاولة للتنظير والإقتراحات من أجل إقامة عهد ووصية بحياة تنسجم مع حياة العصر بفضل فلسفة الحدث . حيث جعلنى البحث أتخطى الحدث المسيحى عند « موريس بلوندل » والجهد الشبيه بمبدأ « بروفيش » لدى « ماركس » والنظرة الديناميكية للعالم فى القرآن الكريم التى تسيطر على الموجودات كما يسيطر على شعور بأننى أقترب من نهاية حياتى الشخصية وأننى ألمح بالكثير من السعادة رسوماً أولية لحياة جديدة للعصر تلوح فى الأفق وسوف تولد وأنا لن أراها .

٣٠ أغسطس ١٩٩٦ روما

روچيه جارودى

ملحوظة هامة :

هذا الكتاب ليس رثاءً وليس مجرد الترحم على حضارة آفلة هى حضارة الغرب الذى يعنى فى أصل كلمته البلاد التى تغرب فيها الشمس أى بلاد الغروب .

أما فى الشرق أى البلاد التى تشرق فيها الشمس أى بلاد النور فإن النور قد بدأ ينبلج وكان هذا فى السابع من مايو ١٩٩٦ فى بكين .

والجزء الثانى من هذه الإصدارات المسماة « Edition vents du large » سوف يعد ساحة مفتوحة منذ ثلاث سنوات من أجل الأمل في وحدة متناغمة للعالم من خلال طريق حرير جديد من شنغهاى إلى روتردام ومن خلال حضارة المدارات الناشئة فى الآمازون وفى صحراء كانت منذ عشرة آلاف عام عبارة عن غابة ومرعى ويمكن أن تعود كما كانت فى خلال عشرة سنوات .

ليس هناك خط سير مكرس من قبل أجهزة الإذاعة والتليفزيون ولا المجلات للميلاد الحقيقى لهذا العالم الجديد .

والكتاب الثانى فى سلسلتنا هو عمل شامل لبناة الحضارة (الصينين - الايرانيين - الأتراك - الهنود . . . إلخ) وسيكون بعنوان

- لقد بدأ المستقبل -

* * *

ملاحق

« ملاحق »

الدولارات والإنسان

بقلم أناتول فرانس

فى بداية هذا القرن فى عام ١٩٠٨م استخلص أناتول فرانس فى عمله « جزيرة بنجوان » عقل هذا العالم الذى بلا عقل سوى الحساب والسياسة الأمريكية حيث يحضر البروفسير أبنوبيل جلسة من جلسات الكونجرس الأمريكى ويقوم بعمل تحقيق حوله .

« الحرب من أجل فتح أسواق ذيلاند الثالثة التى انتهت برضا الولايات المتحدة وأنا أعرض عليكم أن نرسل إليها حسابات العمولة المالية » .

أليس هناك معارضة ؟

الإقتراح مقبول .

– هل فهمت جيداً ؟ يتساءل البروفسير أبنوبيل – ماذا ؟ أنتم أيها الشعب الصناعى أنتم مشتركون فى جميع الحروب !

– فأجاب المترجم بلا شك : فهذه حروب صناعية فالشعوب التى ليس لديها تجارة ولا صناعة ليست مضطرة لإعلان الحرب ولكن شعباً من رجال الأعمال «لا بد أن يلتزم بسياسة الفتوحات إن عدد حروبنا يتصاعد بالضرورة مع زيادة نشاطنا الإنتاجى فعندما لا تجد صناعاتنا تسويقاً لمنتجاتها فلا بد من حرب لنفتح أمامها منافذ جديدة وهكذا فقد كان عندنا هذا العام حرب الكربون وحرب النحاس وحرب القطن وفى ذيلاند الثالثة قتلنا ثلثى السكان من أجل إجبار الباقى على شراء الشماسى والسيور التى نضعها .

فى هذه اللحظة رفع أحد الرجال وكان يجلس فى منتصف القاعة قبعته تحية للمترجم .

- قال لقد أعلنت حرباً على حكومة جمهورية امراود التى تعارض وحدها سيطرتنا على تجارة لحوم الخنزير ومشتقاتها فى أسواق العالم .

- فسأل الدكتور « أبنوبيل » من هو هذا المشرع .

- هذا تاجر خنازير .

- سأل الرئيس أليست هناك معارضة ؟ فسأطرح الموضوع للتصويت . لقد صوت على إعلان الحرب على جمهورية إمراود بأغلبية كبيرة رفعت أيديها بالموافقة قال انبوبيل للمتروجم - كيف صوتم على الحرب بهذه السرعة وهذه اللا مبالاة ؟

- هذه حرب غير مهمة وسوف تتكلف بالكاد ٨ مليون دولار .

- والبشر .

- البشر يدخلون فى عداد الثمانية مليون دولار »

(أناتول فرانس - جزيرة بنجوان

ط كالمان ليفى ١٩٠٨ الكتاب الرابع الفصل الثالث)

* * *

« مثل طاحونة الشيطان »

هذا النظام الذى تتعارض فيه التنمية الإقتصادية مع تنمية الإنسان سوف نعرضه بمثل ضربه كتاب ميشان حول موضوع « تكلفة التنمية » .

وسوف نسميه « مثل طاحونة الشيطان » .

فى بلاد متقدمة جداً أعادت الحكومة صياغة القانون الذى يتطابق مع الحرية الشخصية فى أن يحمل الإنسان سلاحاً .

فلقد عرفت صناعة السلاح رواجاً هائلاً لا سيما فى القطاع الخاص . وقد تسابق المنتجون فى التخيل وإبداع سبل الدعاية من أجل فتح سوق حر لتشكليه متنوعة من المسدسات والقنابل اليدوية والعنقودية من النموذج الفاخر الذى يحمل فى سلسلة عقدية وحتى أقل المنتجات قيمة والمستعملة بشكل واسع الإنتشار ، ومن الأسلحة السرية التى تضمن كتمان الصوت فى جريمة القتل وحتى الأسلحة المسماة أسلحة الردع حيث التفجيرات المرعبة التى تشعل أكبر مساحة من النار دون حتى تحديد هدف معين . وحق الإختيار مكفول بالكامل للمستهلك .

والسوق بالفعل غير محدود لأنه بسبب العصبية الناشئة عن زحم العمل وزحام المدينة ووهن المثل المقدسة بسبب التحركات الإغرائية والمالية فإن الرجال حتى الأكثر مسالمة والنساء حتى أقلهن رغبة لا يمكن أن يخاطروا بأنفسهم بالخروج إلى الشوارع دون سلاح أو سلاحين ناريين بكامل تعميرهم . كذلك فإن المستوى العالى جداً من الحياة وصل إلى أعلى معدلات الانتشار المؤدى إلى أن هذا التحرك الإقتصادى يسمح لكل فرد أن يشترى الكثير من الأسلحة . ولقد وصل زمن الانحطاط والبؤس البشرى إلى الذروة . كما أن هناك صناعات جديدة قد ولدت مما يعد مؤشراً على حركة غير عادية : مثل صناعة الصدارى الواقية من الرصاص والقبعات والأربطة من نسيج المعدن والأقنعة التى لا يمكن اختراقها والمصفحات والزجاج المصاد للرصاص للسيارات وأبواب المنازل الحديدية ، كما

أن الارتفاع المفاجئ فى صناعة الحديد يعد علامة على سلامة الإقتصاد لبلد ما وروح المبادرة والتسابق الصناعى ومثل المشاريع الحرة ونفاذ بصيرة الحكومات . وفى غمرة هذا النجاح تختفى أى معالم للكآبة .

كما أن كل أفرع النشاط الوطنى تتلقى دفعاً حيوياً : وهذا هو العصر الذهبى للتأمينات والعيادات الخاصة ومعامل الأدوية التى تلبى بشكل محموم الطلبات التى لا تنتهى لأنواع المهدئات . ولذلك فزخم العمل مضمون بينما الاتجاه للإهتمام بالشباب محدود كما أن أقل المميزات هى التأكد من وجود أماكن متكافئة وبشكل أمين ودون الحاجة إلا إلى تدريب بسيط هو التدريب على عمل ناقلى الجرحى وذلك لجمع أشلاء الجرحى أو الموتى .

إن مناقشة الميزانية فى ظل هذا الإقتصاد الوطنى فى أقصى اتساعه جعلت العلم يستفيد من استقطاعات التسليح الخاص حتى يخرج من أزمته : كذلك فإن نضوب الموارد المعدنية السريع قاد إلى البحث وإكتشاف المواد التركيبية الأكثر مقاومة للحديد ، مما يتطلب تقدماً فى صناعة القذائف كما قال ذلك أحد ألمع الخطباء البرلمانيين حين قال : لقد انفتح لولب التقدم على اللا متناهى .

وقد أحرزت الجراحة وكذلك الطب والطب النفسى نجاحات ملحوظة فى علاج الأمراض السرية : كما أن حمل الدروع المحكمة قد جدد مفاهيمنا حول التحول الغذائى وكذلك التقدم فى مجال السلاح جعلنا نكتشف اكتشافات كثيرة عن القلق والعدوانية سوف تقلب رأساً على عقب مستقبل الطب النفسى .

يا له من تجديد فى الثقافة لا سيما فى مجال العلوم المسماة « علوم إنسانية » فلقد وجد علم الإجتماع الوضعى أمامه أفقاً رحباً ينفتح عليه لتطبيق نظرياته . فلقد شغل وظيفة الربان فى التنسيق بين الأبحاث متعددة الأنظمة حول « صناعة المسدسات » كما أن الإحصائيين يؤكدون على تقنيات الاستقراء الخارجى المبتسرة ليحسبوا التاريخ الذى سيتساوى فيه كم وكيف الأسلحة مع كم وكيف الأرض بكثير من الدقة وصلت إلى أن أحدهم قد حدد فى أى عام ستصل الزيادة السكانية بالبشر إلى حد لا يكون للفرد فيه سوى متر مربع من الكرة الأرضية .

كذلك فإن الديموجرافيا (علم السكان) الحديثة قد قلبت الاتجاه إلى استخلاص «القانون اللوغارتمى » للفناء مما سمح بتوقع اليوم الذى يأتى فيه الإنسان الأخير وينظر على بعد مرمى بصره ليوجه لنفسه آخر ضربة قاتلة . فى ظل هذا الجو العلمى يصبح علم التنجيم الوضعى ملك العلوم حين يأخذ نفس الأهمية النظرية التى نوليها لعلم الطبيعة أو اللغويات . كما أن رابطة الحرفين ومنافيسها والذين لهم بالفعل تجربة عريضة فى « قواعد اللعبة » الاستراتيجية سيلعبون دوراً بارزاً باعتبارهم مستشارين وأنبياء لدى المديرين الكبار لصناعة الموت .

وهناك باحث قد يكون أحد العبقريات فى عصرنا معروف بتوقعاته بعيدة المدى قد توقع طرازاً جديداً من العمارة وهندسة المدن والفن بصفة عامة وذلك لتلبية حاجات عصر البندقية من شوارع منحنية لتقيد مرمى القصف ، ومن خلال ذلك ستكون هناك ثورة فى عالم الأشكال القائمة على تلك الإحتياجات الأولية . وهكذا وبفضل التماسك الداخلى للنظام الموسوم بكل الحضارات الكبيرة فى أوج عظمتها سوف تزدهر ثقافة جديدة وكلاسيكية جديدة .

إن الحكومة لتذكر ذلك بكثير فى الزهو المشروع بتلك المفاهيم ، وفى كل مرةج تعمل حساباً ختامياً للإنتشار الذى دفعته تجد : معدل تنمية عال يفوق كل معدلات البلاد الأخرى مع ما لذلك من نتائج عظيمة مثل : العملة القوية ، والعمل الجاد والموازنة بين المدفوعات بشكل مربح ، والفتح المستمر للأسواق الجديدة أمام تصدير السلاح لأن الكيف الجيد لإنتاجنا التسليحى جعل أسعارنا لا تقبل المنافسة .

كما أن معدل دخل الفرد من الناتج القومى قد تضاعف خلال السنوات العشر الأخيرة . لذلك فقد تجمعت كل علامات ظهور اقتصاد قوى وصحيح .

كما أن كل طموحات الإقتصاد والتنمية قد تحققت .

ويمكننا بكل حق وثقة أن نأمل فى السيطرة عالميا ليس فقط بفضل ثروتنا وقوتنا ولكن بفضل حكمتنا .

(مأخوذ عن كتابى « البديل »

ط . روبرو لافون ١٩٧٢ من ص٧١ إلى ص٧٤)

* * *

خلفيات حملة كلينتون الصليبية ضد الإرهاب

وافق الرئيس وليم كليتون فى ٥ أغسطس ١٩٩٦ على قانون « داماتو كينيدى الذى اعتبر إيران وليبيا خارجين على القانون الدولى . وقد حرص بالطبع على أن يعرض أمام عدسات التليفزيون أهالى وأقارب ضحايا هجوم لوكربى الذى حدث ضد طائرة شركة بان أمريكان فى ٢٠ ديسمبر ١٩٨٨ حيث حملت الحكومة الأمريكية ليبيا المسئولية عن هذا الهجوم برغم أن تحقيقات مشابهة قد قالت عكس ذلك وكرمز لذلك كانت الاحتفالات ذات مغزى كبير يدل على السياسة التى تنوى واشنطن انتهاجها : وهى تحديد الإرهاب كعدو لدود ، وقد تم تفعيل الرأى العام حول هذا الموضوع والبلاد المجرمة حسب الاعتبارات الأمريكية : وكبداية فإن السلاح المستخدم ضدهم سيكون سلاح العقوبات الإقتصادية وسلاح الحصار ما أمكن والقرارات المتخذة من واشنطن بشكل منفرد تمثل إنتهاكها صارخاً للمبادئ الأساسية لمنظمة التجارة العالمية وحين تطبق هذه القرارات فإن الإدارة الأمريكية تتنكر لتعهداتها الدولية بما لا يدعو للشك إن الكفاح ضد الإرهاب على مستوى العالم يشكل أحد محاور السياسة الخارجية لرئيس الولايات المتحدة وهو سلاح سوف يستخدم كلما احتاجت الدبلوماسية الأمريكة . هل هو قرار انتخابى من أجل انتزاع الرأسة فى نوفمبر ١٩٩٦ ؟ بالتأكيد إن قانون هلمز برتون فى ١٢ مارس ١٩٩٦ بتشديد الحصار على كوبا أوجد صدى قوياً لدى ٤٠٠ ألف أمريكى من أصل كوبي سوف يدلون بأصواتهم فى ولاية فلورد . بينما لم يضيع السيد «روبرت دول » المنافس الجمهورى « لوليم كلينتون » الفرصة للهجوم على التوجهات المضادة للإرهاب التى يتخذها منافسة واصفاً بالتراخي سلوك الإدارة الأمريكية مع كوبا وإيران .

إن الحكومة الأمريكية تعطى الفرصة اليوم للإرهاب ليهاجم أهدافها وذلك لتقليص التوصيف الشامل والمنظم والمخطط الذى يسترعى الإنتباه .

١ - (إن الإرهاب سيكون أحد المخاطر التى تهدد أمتنا فى القرن الحادى والعشرون) جاء ذلك على لسان الرئيس كليتتون فى المؤتمر الذى خصص للإرهاب فى ٣٠ يوليو ١٩٩٦ بحضور وزراء الخارجية والداخلية لمجموعة الدول السبع الصناعية وقد تطور هذا الموضوع فى تقرير نشره مجلس الدولة الذي قام بعمل محصلة للأنشطة الإرهابية فى العالم وحدد السياسة الأمريكية فى هذا الصدد .

وهى أن هؤلاء الإرهابيين ليسوا سوى مجرمين وبالتالى لا يمكن عقد أى اتفاق معهم من أى نوع .

٢ - أننا يجب أن نلاحقهم حتى نستطيع أن ننفذ ضدهم أقصى العقوبات .

٣ - يجب أن نمارس ضغوطاً واسعة ومتواصلة على الدول التى تأوى الإرهابيين وتسلحهم وتساندهم وتستخدمهم ويجب أن يكون الضغط بوسائل سياسية دبلوماسية وإقتصادية قوية المفعول إنتظاراً للفرصة المواتية للجوء إلى وسائل أخرى. وفى هذا الصدد فإن أى بعد إجتماعى أو قومى أو إقليمى أو حتى سياسى أو حربى لا يمكن أن يقام له اعتبار ولذلك فإن هذا التقرير لم يقترح أية إجابة على السؤال الذى وجهته فى مارس ١٩٩٦ صحيفة الإيكونومست » (أليس الإرهاب ظاهرة بسيطة وجزئية وعمل أولاد أشرار ونريد أن نعاقبهم جميعاً إذاً . فمن هو الإرهابى ؟ هل هو الذى يرمى قنبلة إنتحارية ؟ ، هل هو المتمرد محارب العصابات ؟ هل هى جبهة التحرير ؟ هل هى القوات المسلحة لدولة ؟ وعلى أى حال فإن المفهوم الذى تريد إدارة كلينتون أن ترجحه وتدعى أنه موضوعى هو هذا المفهوم فهى بطريقة أو بأخرى تقدم سياستها على أنها حلقة جديدة من كفاح الخير ضد الشر فتحت أى إسم تريد أن تحرك بقية العالم حول خياراتها وتحليلاتها ؟ وإذ لم تكن الولايات المتحدة متأثرة ببساطة بالاهتمامات الإنتخابية فإن الأهداف الحقيقية التي تتبعها لم تعد ضمن تلك النظرة النموذجية للخير . وليس أدل على ذلك من القائمة التى تحوى الدول المتهمة بمساندتها للإرهاب والتى تضم إيران وليبيا والسودان فما هو رأينا فى نظامها وأنشطتها الخارجية والتى كانت قبل ذلك مختلفة فى الحالات الثلاث . يجب بصراحة إختيار بلد تكون التغيرات السياسية فيه قد وضعت نهاية بشكل أو بآخر للهيمنة

التى كانت تمارسها الولايات المتحدة فى هذا البلد قبل ذلك : فالثورة التى قامت فى ليبيا عام ١٩٦٩ قد تسببت فى هدم القواعد الإنجليزية والأمريكية على أراضيها ، وكذلك الإنقلاب الذى أطاح فى عام ١٩٨٥م بالديكتاتور نميرى فى السودان الذى كان متحالفاً مع السياسة الأمريكية فى المنطقة وكذلك سقوط نظام الشاه فى عام ١٩٧٩ والذى كانت واشنطن تمارس معه نوعاً من الحماية .

كما أن غياب بعض الدول من هذه القائمة له دلالته . فقد كانت العراق مثلاً ضمن هذه القائمة ولكنها حذفت منها إبان الحرب العراقية الإيرانية حينما قام الرئيس صدام حسين بتقارب واضح مع الولايات المتحدة التى قررت أن تسانده وتعيد علاقتها الإقتصادية والدبلوماسية مع بغداد ، وكذلك سوريا التى توجد دائماً فى قائمة الدول المتهمة بمساعدة الإرهاب ولكن لا تطبق عليها أى من تلك العقوبات فى السنوات الأخيرة ولكنها وصفت بأنها أحد الأطراف الرئيسية فى مفاوضات السلام فى الشرق الأوسط وأخيراً إسرائيل التى كلفت سلطاتها فى أحيان كثيرة بقتل خصومها خارج حدودها . وهذه الأمثلة تكفى لتوضيح أن حملة الولايات المتحدة ضد الإرهاب تأتى أولاً فى إطار السياسة الأمريكية الخارجية وتخدم أهدافها .

وفى خلال الأشهر الأخيرة أعطى البيت الأبيض لهذه الحملة الصليبية بعداً عالمياً يسترعى الإنتباه : أولاً فى مؤتمر شرم الشيخ فى ١٣ مارس ١٩٩٦ فى أعقاب سلسلة الهجمات الإنتحارية فى القدس وعسقلان وعشية الأزمة الاسرائيلية اللبنانية ، ثم مؤتمر قمة زعماء وحكومات الدول السبع الصناعية فى ليون فى شهر يونية وعلى غير المتوقع فإن مؤتمر شرم الشيخ قد انعقد بشكل سريع لدعم فرص السيد شمعون بيريز الذى كان رئيساً للوزراء فى الإنتخابات المزمع إجرائها فى إسرائيل بعد بضعة أسابيع وكانت الحكومات المشاركة فى المؤتمر تتسابق على مستويات متفاوتة فى صياغة إعلانات المؤتمر المضادة للإرهاب المفروضة عليها .
ولكن الرئيس كلينتون أراد أن يستغل هذا المؤتمر ليحدد إيران بالإسم باعتبارها المسئولة عن الإرهاب فى المنطقة تمشياً مع التأكيدات المتكررة من جانب الحكومة الإسرائيلية . ويمكن فى هذا الصدد أن نتأكد أن الدبلوماسية الأمريكية بحجة مكافحة الإرهاب كانت تريد أن تعيد تكوين حلف لحسابها مشابهاً لحلف حرب

الخليج ولكنه موجه هذه المرة ضد إيران التى تعتبرها الولايات المتحدة الآن عدوها الأساسى كما كان العراق منذ ست سنوات مضت .

وكانت مرحلة ليون أيضاً ذات دلالة فقد حاول الرئيس كلينتون كما كان الحال فى شرم الشيخ أن يجعل من قضية الإرهاب الموضوع الأساسى لقمة الدول السبع الصناعية فى يونية ١٩٩٦ ومن جديد عارض قصر الإليزية ذلك حتى يتحاشى تهميش الموضوعات الأخرى المزمع مناقشتها وبرغم ذلك فإن واشنطن تغلبت على باريس هذه المرة . ففى ختام عشاء جمعهم اعتمد زعماء الدول السبع الصناعية إعلاناً حول الإرهاب . وليس فى ذلك شىء غير طبيعى سوى هذه الوثيقة التى تدين الإرهاب باعتباره « التحدى الرئيسى لمجتمعاتنا ودولنا » مع التركيز على الهجوم الذى حدث فى ٢٥ يونية ١٩٩٦ ضد الحامية الأمريكية فى القاعدة السعودية فى الخبر واصفين إياه بأنه عمل بربرى ولا مبرر له معلنين المساندة التامة لجهود الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية ومن هنا فإن الدول السبع قد صرحت ضمناً بمساندتها لإستمرار الوحود العسكرى الأمريكى فى الشرق الأوسط وبالتحديد فى الخليج مع أن هذا الوجود تناهضه كل القوى الإجتماعية والسياسية وتصفه بأنه غير مقبول ويتعارض مع استقلال بلادها . ومن هنا أيضاً فإن هذه الحلقة كانت ذات مغزى كبير فى التوجهات الإستراتيجية التى تغطى الحملة المضادة للإرهاب التى يقودها البيت الأبيض ولكنه يقبل بحماية دولها حين تكون شركاء للولايات المتحدة .

ومهما يكن من أمر فإن غياب أى إدانة صريحة وواضحة يوضح بجلاء التحفظات أو بالأحرى العداوة التى تشعلها السياسة الأمريكية تجاه البلاد التى تصفها بدول مساندة للإرهاب . فالحقيقة إن الدول الأوربية قد رفضت بعد ذلك الخضوع لبنود قانون « داماتو كينيدى » كما حدث مع كندا من خضوع المشاريع للمحاذير التى فرضها قانون « هلمز برتون » ضد كوبا وهذه المقاومة لا يمكن أن يقام لها اعتبار فإن أوربا لم تعتمد أى إجراءات إنتقامية بل كان الإتجاه هو تقليص التناقضات الأوربية وتحاشى كل ما من شأنه أن يبدو وكأنه حلقة فى سلسلة إجراءات إنتقامية مالية وتجارية .

وبعد ساعات قليلة من اعتماد الرئيس كلينتون لقانون « داما توكندى » طرح

المتحدث باسم مجلس الدولة السيد « نيكولاس بمس » قضية الحقوق الفرنسية فى إيران فقد أعلن « أن شركة « توتل » قد حلت محل الشركة الأمريكية كونوكو وفسخت عقداً كان من الممكن أن يدر ربحاً هائلاً على شركة كونوكو وإننا نريد أن نعاقب المشاريع التى تسلك نفس النهج فى المستقبل » .

بمثل هذا التهديد فإننا نشك فى أن المشاريع الأوربية حتى وإن استعرضت الأثر العكسى لقانون داماتو كينيدى وآثارة على حكوماتها لن تخاف فى المستقبل من إجراءات إنتقامية أمريكية إذا وجهت مشاريع إستثمار أو تنمية إلى إيران أو ليبيا حيث يحصل الإتحاد الأوربى منها مع ذلك على ٢٠٪ من حصته من الهيدرو كربور . على العكس من دول أخرى مثل الصين وبقية دول الشرق الأقصى التى ستكون أقل ضرراً من هذا القرار .

إن الحملة المضادة للإرهاب التى تقودها الولايات المتحدة تحدد غالباً عدواً رئيسياً وهو الإسلام الأصولي من المعارضين وحتى الثوريين حيث تعتبر إيران مصدره ونموذجه وهذه القضية لا تعتمد مع ذلك على التميز بين تعارض الأحداث الإرهابية فيما بينهما . فليس هناك إيرانى واحد ضمن منفذى هجوم ١٩ إبريل ١٩٩٥ فى « أوكلاهوما ستيى » الذى قامت به جماعة يمنية الذى قامت به جماعة تطلق على نفسها أحفاد النازى ولا فى أحداث ٣ أبريل ١٩٩٦ التى قام بها دكتور فى الرياضيات يدعى السيد تيودور كازنسكى الذى تنكر باسم أونا بومبر ولجأ إلى استخدام الأحزمة المفخخة ، كذلك لم يتهم الإيرانيين فى قضية « فريمان » التى حدثت فى ربيع ١٩٩٦ والتى استمرت لمدة ٨١ يوم فى مقاومة البوليس فى مزرعة مونتانا فبالنسبة لأمريكا تعتبر النزعة الإسلامية الملهم الرئيسى والفاعل الرئيسى للإرهاب.

فالمعارضة للقوى السياسية والدول التى تتخذ مفهوماً أصولياً للإسلام قد تشكل مع ذلك أى أساس من أساسيات السياسة الأمريكية ، تاريخياً وضعت الولايات المتحد قدمها فى الشرق الأوسط عبر السعودية حيث زادت مكاسبها البترولية بين الحربين العالميتين ومنذ ذلك الحين لم تتوقف واشنطن عن معاملة السعودية كحليف رئيسى فى المنطقة مع أن هذه الدولة تعد أكثر الدول تمسكاً بالإسلام فى العالم كما أنها ساندت بشدة الديكتاتور الرئيس جعفر النميرى فى

السودان الذى كان أول رئيس فى قارة إفريقيا يقوم بتطبيق الشريعة فى كل مجالات الحكم فى البلاد كما أنها اختارت فى جنوب شرق آسيا نظام الرئيس ضياء الحق الذى كان على شاكلة جعفر نميرى دون أن ننسى أنها أيضاً هى التى أثرت وكونت وسلحت المنظمات التى كانت تعارض فى أفغانستان النظام الذى كان يسانده الإتحاد السوفيتي مستلهمين مبادئ الإسلام الأصولى .

من الخطأ أن نقلل من قيمة تأثير هذا التواطئ فى تنامى الأنشطة الإرهابية فى هذه السنوات الأخيرة وفى المقام الأول نتائج حرب أفغانستان .

فقد جاء أفغانستان حوالى ١٥ ألف رجل من حوالى عشر دول يحاربون إلى جانب المنظمات الإسلامية الأفغانية وانخرطوا فى نفس المعسكرات واتبعوا نفس المنهج ثم كونوا فى النهاية كثير من المنظمات التي تهدف إلى اللعب فى ساحات عمليات أخرى كما أنها تحتفظ فيما بينها بروابط قوية أو ضعيفة .

وقد كانت مصر أول ساحة لأحداث إحدى هذه الجماعات : فقد قامت باغتيال الرئيس أنور السادات ثم رئيس مجلس الشعب رفعت المحجوب فى سبتمبر ١٩٩٠ وأخيراً اغتيال الكاتب فرج فودة فى ٨ يونية ١٩٩٢ وهؤلاء الرجال لم ينسحبوا من الأراضى السودانية على ما يبدو قبل أن يعبروا الحدود مرة أخرى كما أن أحد قاداتهم وهو محمد شوقى الإسلامبولى هو شقيق خالد الإسلامبولى قاتل أنور السادات .

ويمكننا أن نجد في الجزائر خيطاً يربطنا بأفغانستان فقد كانت أول منظمة إسلامية غير قانونية هى الحركة الإسلامية المسلحة التى كان قادتها من المحاربين فى أفغانستان مثل محمد الطيب الأفغانى الذى هاجم النقطة الحدودية فى جمار فى نوفمبر ١٩٩١ ومراد الأفغانى الذى قاد هجوماً على مركز القيادة البحرية فى الجزائر العاصمة وقمر الدين غربان والحاج بونواع الذين كانوا يتخذون من فرنسا قاعدة لهم .

كما أن المجاهدين الأفغان هم المسئولون الرئيسيون عن المجاهدين فى البوسنة وعلى رأسهم محمد أبو المعادى . وكان الحى الرئيسى له هو منطقة « فرنكا » وقد ظلت قواته لمدة طويلة تشارك فى المعركة الثالثة للميلشيات البوسنية المسلمة ؛كما أن دعم هذه الميلشيات مالياً كان يأتى من دول إسلامية كثيرة خاصة المملكة العربية

السعودية حيث قدم عاهلها شخصياً إلى الرئيس على عزت بيجوفتش ٤٠ مليون دولار عندما زار الرياض كما قدمت له دول الخليج الأخرى ٤٣ مليون دولار وما يقرب من ٢٥٠٠ جندى وصلوا من أفغانستان إلى البوسنة عن طريق ألبانيا فى أصعب فترات المواجهة بين المسلمين والكروات .

وقد تسبب حضور الجماعات الإسلامية المسلحة إلى البوسنة فى كثير من المشاكل كما أن رحيلهم عن البوسنة كان أحد بنود إتفاقية دايتون للسلام وهذه الجماعات لن تظل فى البوسنة لمدة قليلة حيث أنها تحتاج إلى مبالغ مالية كبيرة .

وبصرف النظر عن هذه الحلقات الرئيسية والمتناقضة للسياسة الأمريكية تجاه ظاهرة الإرهاب فإن عداوة الولايات المتحدة للإسلاميين الذين تعدهم المحرك الرئيسى للإرهاب توجهها إعتبارات سياسية استراتچية معروفة وهى هدم أو على الأقل إضعاف النظام الإيرانى والمواجهة مع حماس الفلسطينية وحزب الله اللبنانى الذين يقودون معركة واحدة ضد إسرائيل وفى معرض خطاب واشنطن المضاد للإرهاب يجب أن نعرف آلية هذين الإختيارين .

- مأخوذ عن مقال « خلفية حرب كلينتون الصليبية ضد الإرهاب » كتبه بول مارى دولا جورس فى صحيفة العالم الدبلوماسى فبراير ١٩٩٧ ص١٥ .

* * *

عقيدة الهيمنة الأمريكية

تأليف « چون جالتوج »

أعلن الرئيس « تافت » فى عام ١٩١٢ قائلاً « يجب أن أحمى شعبنا وممتلكاتنا فى المكسيك حتى تفهم حكومة المكسيك أن هناك إله فى إسرائيل وإن من الواجب طاعته » .

هذا التعبير الذى يطلق أحياناً تحت مسمى « إسرائيل الرب الجديدة » يظهر جلياً فى التاريخ الأمريكى منذ « ماى فلور » وإنشاء مستعمرة بليمون (١٦٢٠) .

وهذا تاريخ عظيم وقوى : شعب فى المنفى ، شعب صغير ينجو من السيطرة القمعية وهو فى طريقه لبداية جديدة .

لقد عقد حلف على جبل الطور فى سيناء : فلقد أعطى « ياوا » لليهود في المنفى وضعاً خاصاً أنهم « أفضل الأمم » فاليهود هم الشعب المختار فى الأرض الموعودة كما أن لهم دوراً مهما فى قيادة الشعوب الأخرى .

والآباء المؤسسون للولايات المتحدة والطهريون البروتستانت والشعب المختار منذ قرون ومن يقرؤون التوراة يعتبرون أنفسهم شعباً مختاراً إن لم يكن من قبل ياوا فعلى الأقل من قبل الرب يسوع المسيح .

لماذا لم تكن هذه الأرض إذاً الأرض الموعودة ولماذا لم يكونوا هم النور والهداية للشعوب الأخرى إذا كانوا فعلاً شعب الله المختار ؟

ولكن الأرض الموعودة لم تكن صحراء !

إن الفكرة الرئيسية هى أن الله يساند الشعب المختار وأن نجاح هذا الشعب لا يوضح فقط أنهم على الحق الذى يريده الله ولكن أيضاً أن الوسائل التى يستخدمونها لإحراز هذا النجاح وسائل مبررة .

كما أن العهد القديم كان يضرب مثلاً يتعلق بالأمريكان الأوائل فى علاقتهم مع السكان الأصليين ، فإن هؤلاء الطهريون البروتستانت بدورهم ضربوا مثلاً على علاقة الإسرائيلين بالفلسطينين .

وهكذا فقد نذروا أنفسهم لتكوين جبهة واحدة ضد الإسلام .

إن القناعة بأنهم الشعب المختار لا تقل تفاهة عن القناعة بأن الولايات المتحدة هى أقرب الأمم إلى الله كما يظهر فى الشعار المطبوع على كل دولار « عندنا ثقة فى الله In God We Trust [1] إن أقرب البلاد إلى الله هى أيضاً ممثل الله على الأرض بصفات الله الثلاثة العظيمة وهى العلم الكامل والقوة المطلقة والاستغناء عمن سواه . وهذا يعنى حقاً مراقبة الكترونية فى العالم أجمع تجعل المرء يشك أنها التى تحمل إلى العالم الشر . وما يخص الولايات المتحدة هو أن تعرف كيف تدخل فى هذه الطائفة . وليس هناك محكمة استئناف لأن الولايات المتحدة تحتكر سلطة إصدار الأحكام وهكذا تمارس سلطة ثقافية وسلطة إقتصادية وسلطة عسكرية تحت إدارة البنتاجون (وزارة الدفاع) والسى - أى - إيه (المخابرات المركزية الأمريكية) .

إذاً يجب أن تقصف إمبراطورية الشر حتى تعود إلى العصر الحجرى .

فأى دين يمكن أن يعلو على العقيدة اليهو مسيحية ؟

أى إيديولوچية يمكن أن تعلو على التحرر المحافظ فى شكله الرأسمالى ؟

ليست هناك منظمة عالمية يمكن أن تكون فوق الولايات المتحدة . وهذا يجعل من الأمم المتحدة على الأقل منظمة كل مهمتها أن تكون أداة تمارس الولايات المتحدة من خلالها تأثيرها الخير على العالم أجمع . والولايات المتحدة تحتل القمة فى تصنيف الأمم محاطة بالدول التى تشكل مركز العالم وهم : الحلفاء الذين يتمتعون بميزتين أو ثلاث :

* اقتصاد السوق الحر .

* الإيمان بالإله اليهو مسيحى .

* والانتخابات الحرة .

وفى القطب الأخير من العالم الواقع بين الخير والشر فإن امبراطورية الشر تشكل من البلاد التى ليس لها اقتصاد السوق الحر ولا تؤمن بالإله اليهومسيحى ولا بالديمقراطية على النمط الأمريكى .

لقد عقدت الولايات المتحدة حلفا مع الله بينما عقدت الأمم الأخرى حلفا مع الولايات المتحدة على شكل علاقات خضوع لمركز دائرة العالم من الدول الغربية إلى الولايات المتحدة ومن الولايات المتحدة إلى الله .

تلك هى العقيدة الأساسية للسياسة العالمية للولايات المتحدة .

(چون چولنج « السياسة الخارجية للولايات المتحدة فى مظهرها العقائدى » ورقة عمل حول الصراعات الشاملة والتعاون . المقال الرابع ١٩٨٧) .

* * *

رقم الإيداع : ٢٣٦١/٩٨
الترقيم الدولي : I.S.B.N 977-5679-17-6

هذا الكتاب

* إننا نعلم جيداً أن أمركة أوربا بعد الحرب خطر عظيم جداً ، ونحن نعلم أيضاً ماذا يمكن أن نفقد إذا حدثت تلك الأمركة ، إن أمركة أوربا هى بلا شك تمهيد لأمركة الكرة الأرضية كلها ، وهكذا يمكن أن تفقد الإنسانية ماضيها .

* وحينما توحد الاستعمار تحت قيادة الولايات المتحدة فى ظل النظام العالمى الجديد، لم يكن ذلك سوى استمرار للفوضى الاستعمارية باسم « التحرر الاقتصادى الشامل » حيث أصبحت السيطرة على العالم وإبادته أكثر فاعلية ولكن بالطرق الاقتصادية (دون استبعاد التدمير العسكرى) فبعد زوال نظام التفرقة العنصرية فى جنوب إفريقيا أصبحت الصهيونية الإسرائيلية وهى أعظم حلفاء هذا النظام آخر ممثلى الاستعمار القديم أى الاستعمار العنصرى .

* إنه لمن الملفت للنظر أن الذين ينصبون من أنفسهم مدافعين عن حقوق الإنسان على مستوى العالم (مجموعة السبع) وهى السبع دول الأغنى فى العالم التى اجتمعت فى ليون ٩٦ وكان زعماؤها الذين اجتمعوا لمحاربة الارهاب ، هم أخطر الارهابيين فى العالم وأكثر المنتهكين لحقوق الإنسان ، ليس فقط بسبب ماضيهم البعيد (مذابح الهنود الحمر فى أمريكا ومعاملة العبيد السود والاستعمار بصفة عامة) ولكن بسبب جرائمهم القريبة مثل حرق فيتنام بالنابالم فيما يشبه يوم القيامة ، وإمداد سفاحى رواندا بالمال والسلاح والمعلومات لإبادة ٤٠٠٠٠٠ وكذلك فهم مسئولون عن موت ٢٥٠٠٠٠ طفل فى المستشفيات فى أقل من خمس سنوات وعن عدد مماثل من القتلى نتيجة استمرار الحصار على العراق .

النهار للطبع والنشر والتوزيع
٧ش الجمهورية ... ت: ٣٩١٣٦٨٨